مواراة الموت في معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني

ياسمين باسم قعدان

مواراة الموت في معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني

ياسمين باسم قعدان

"The Concealment of Death in the Architecture of Palestinian Public Space"

Yasmin Qedan

© Copyright: MUWATIN - The Palestinian Institute for the Study of Democracy
P.O.Box: 1845 Ramallah, Palestine
2016

This book is published as part of an agreement of cooperation with the Henirich Boell Foundation - Germany

جميع الحقوق محفوظة

مواطن، المؤسسة الفلسطينية ادراسة الديمقراطية
ص.ب ١٨٤٥، رام الله، فلسطين
هاتف: ٢٩٥ ١١٠٨ ٢-٩٧٢+، فاكس: ٢٩٦ ٠٢٨٥ ٢-٩٧٢+
البريد الإلكتروني:muwatin@muwatin.org
٢٠١٦
يصدر هذا الكتاب ضمن اتفاقية تعاون مع مؤسسة هنرش بُل - ألمانيا
تصميم وتنفيذ iprint
رام الله - هاتف ٠٥٥٥ ٢٩٧ - ٠٢

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر عن رأي مؤسسة مواطن و كذلك لا تعبر عن رأي مؤسسة هينرش بل.

The contents of this publication do not necessarily reflect the views of Muwatin or the Heinrich Böll Stiftung.

هذه السلسلة

تهدف هذه السلسلة إلى التعريف بنتائج عدد من رسائل الماجستير التي قُدِّمت في الجامعات الفلسطينية لنيل درجة الماجستير، وتتناول موضوعات تعنى بها مواطن؛ المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، وبخاصة تلك الرسائل التي حصلت على منح في المسابقات السنوية التي بدأتها المؤسسة منذ العام ١٩٩٦ ، والتي هي جزء من برنامجها.

كما تهدف هذه السلسلة إلى تشجيع نشر رسائل الماجستير، أو بعض منها، وبخاصة تلك التي تسهم في إلقاء الضوء على ظواهر مجتمعية محددة وتساعد في تفسيرها وتبيان أسبابها، أو تشكل إسهاماً جديداً وإضافة نوعية في حقل من حقول العلوم الإجتماعية، وبخاصة تلك المتعلقة بالتحول السياسي والاجتماعي والمؤسساتي والقانوني نحو دمقرطة المجتمع الفلسطيني أو المجتمعات العربية، ومقومات ذلك.

وتعرض مقترحات الرسائل التي تتقدم إلى المسابقة السنوية التي تعقدها مواطن، والتي يعلن عنها في الصحف المحلية، إلى لجنة تحكيم تضم باحثين ومختصين في مجال هذه المسابقات، ليتم بعد ذلك اختيار عدد محدد منها لغرض الدعم الجزئي، ومن ثم إمكانية نشرها بعد التحكيم.

وفي كل الأحوال، تبقى هذه الرسائل بعد نشرها إسهاماً طلابياً في مرحلة محددة من مسيرتهم العلمية، حتى لو تميز بعضها بموجب المعايير المتعارف عليها للإسهام العلمي في الجامعات المرموقة .

الناشر

الإهداء

إلى أمي التي تمنَّت لو أنها درست علم الاجتماع لتساعدني في بحثي، مع أنها كانت حجراً أستند إليه، وأقوى من كل معرفة الكون.

إلى أبي الذي غابت ابتسامة عينيه عن عالمي.

الشكر

لا تكتمل قوة المعرفة إلا بإقرار صادق بمدى أهمية المساعدة التي قُدمت لي لإنجاز هذه الرسالة، وأخص بالشكر، تحديداً، جميع المبحوثين على الوقت الذي قدموه لإنجاز المقابلات، وشجاعة القلب عند بعضهم بعد ترددهم الأولي لإجراء المقابلة.

والشكر الخاص لأستاذي المشرف أباهر السقا على جهده الذي رافق الإشراف، وحتى جهده الذي رافق معرفته بي في المساقات الأخرى، وكذلك أستاذتي ليزا تراكي، وأستاذي عبد الرحيم الشيخ، وأساتذتي جميعاً طوال فترة دراستي في جامعة بيرزيت.

الفهرس

الإهداء ٥
الشكر ٧

الفصل الأول ١١

١١ المقدمة ١١
١,٢ الإشكالية ١٣
١,٣ مفاهيم مفتاحية في الدراسة ١٤
١,٤ سبب اختيار الموضوع «ذاتية الباحثة في الموضوع» ١٥
١,٥ هدف البحث ١٦
١,٦ منهجية البحث ١٦
١,٧ الإطار الزماني والمكاني للدراسة ١٩
١,٨ أسئلة البحث ٢٠
١,٩ فرضيات البحث ٢١
١,١٠ عينة البحث ٢٢
١,١١ الصعوبات ٢٢
١,١٢ تنافذ نظري على الظاهرة ٢٥
الذاكرة والتذكير بالذكرى فلسطينياً ٢٦
العمارة الزمكانية: تمثلات الذاكرة الجمعية في العمارة الفلسطينية ٣١
تغييب الموت في الصورة داخل تشكيلات الفضاء المعماري الاجتماعي الفلسطيني ٣٥
المؤسسة تستعيض عن الموت بمكان للذاكرة فلسطينياً ٣٨
إعادة إنتاج العلاقات السلطوية من خلال العمار، «خطاب العمارة الاستعمارية» ٤١
العولمة تضم العمار فلسطينياً في تمويل عابر للحدود ٤٥

الفصل الثاني ٥٥

٢,١ مواراة الموت في موت العمارة لـ«النموذج الأمني» ٥٥
٢,٢ تمثلات السلطة في عمارة «النموذج الأمني» ٦٥

٣ , ٢ فصل العمارة فصلاً تخصصياً في المؤسسة الدولاتية ٧٨
٤ , ٢ سوسيولوجيا الاستقبال«تلقي النموذج الأمني من الفلسطينيين» ٨١

الفصل الثالث ٨٩

مكان الذاكرة يَلُفُ البلدات القديمة الفلسطينية ٨٩
١ , ٣.التدمير الحضري ممارسة استعمارية تُضيع هوية المكان..... ٩٠
٢ , ٣ أماكن الذاكرة: مفهوم يخلق صوراً عن الموت تَألف المكان ١١٥

الفصل الرابع ١٣٣

خطاب العمارة اللاعنيفة، استيلاد فلسطيني في الواقع ١٣٣
١ , ٤ الوقوع في شبك اللاعنف للمقاومة ضد المستعمِر
بعد الانتفاضة الثانية..... ١٣٤
٢ , ٤ التمويل يرسم مؤسسات الدولة وخطابها معمارياً
«النموذج الأمني» ١٣٩
٣ , ٤ العمارة المقاومة تُضَم لخطاب اللاعنف «مخيم جنين .. نموذجاً» . ١٤٨

فيما يشبه الخاتمة ١٦٠

الملاحق..... ١٦٤

ملحق رقم (١) ١٦٤
ملحق رقم (٢) ١٧١
ملحق رقم (٣) ١٧٢

المصادر والمراجع..... ١٧٨

منشورات مواطن..... ١٨٤

١

الفصل الأول

١ , ١ المقدمة:

يشكل العمار جزءاً أساسياً في بنية الذات والهوية في المجتمع؛ فأصبح تموضعه يشكل وعي المكان، ويهندس لوعي الهوية والثقافة عند الأفراد. ومع تصاعد التصادم في الانتفاضة الثانية مع المستعمر الإسرائيلي، لم تعد حياة الجسد فقط هي المستباحة؛ بل أصبح عنوان السياسة الاستعمارية يكمن، أيضاً، في استباحة العمار داخل المكان/ الفضاء الفلسطيني، ففي تكامل الجسد والعمار تشكيلٌ للهوية الفلسطينية، التي غدت مرتبطة بتصميمات معمارية تعيد الهيمنة الاستعمارية من خلال إخفاء قصة الحرب مع المستعمِر في إعادة الإعمار، لتصاب الذاكرة الفلسطينية بثغرة إسمنتية أكبر تخفي فيها معالم مطلبية المشروع التحرري عن المستعمر الإسرائيلي.

وما هذه المحاولة البحثية إلا أداة معرفية تحاول نبش الإسمنت واستنطاقه، نحو معرفة القصة من الواقع، وفي معركة السياسات والخطاب الاستعماري وما يواليه، الذي يقدم مشهداً بصرياً معمارياً جديداً يوضع في الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، تبعاً لدراسة ثلاث مناطق حضرية تختلف في البنية، وتتشابه في الخطاب اللاعنفي الذي اجترت فيه؛ وهي «المقاطعات، والبلدات القديمة، ومخيم جنين». وتكمن عينة المناطق الحضرية في كونها اشتركت في معركة الموت في الانتفاضة الثانية، ومن ثم اشتركت في لعبة مواراة الموت بعد إعادة إعمارها جميعاً.

إن ما يظهر في هذه المحاولة لدراسة المشهد البصري لمعمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، ومن خلال حفر الإسمنت الجديد هو؛ عملية تفريغ للفضاء من قوة الفعل على التشكيل المعماري بفعل تداخل عوامل الهيمنة التي أعادت إنتاج عمارة كولونيالية ظهرت عند إعادة إعمار المقاطعات، التي تعكس تمثلات الفلسطيني لمؤسسات رسمية تُعلي خطاباً دولاتياً داخل واقع ما زال مستعمراً، بحيث تمثلت الهيمنة في رسم خطاب الضبط والمراقبة في أبراج وأسوار المقاطعات المنقولة بصرياً للفلسطينيين، وفي الوقت ذاته لم يتخلل أي من المقاطعات الجديدة المعاد إعمارها أيٌّ من آثار القصف الذي حدث في فترة الانتفاضة الثانية، وذلك ضمن خطاب مهيمن آخر نحو إيجاد قواعد «لاعنيفة»، ولا تشير إلى عنف الممارسات الاستعمارية التي استهدفت هذه المقاطعات، ومن كان داخلها، وتصبغها بمسمى «المؤسسات الأمنية»، تحت معايير ومواصفات عسكرية مسلحة لا تملك الحيلة أمام صواريخ الطائرات العسكرية الاستعمارية. وترسخ معها أمناً وسلطةً وهميةً تخفي ملفات الذاكرة لمراحل تاريخية فلسطينية معينة، وتنتج خطاباً دولاتياً عالي الإيقاع لمتلقي الشكل الجديد للمقاطعات. وإضافة إلى العاملَين السابقين، لا تخفى عن هذه الصورة دور التمويل الخارجي مع أجندته المتمثلة بالتدخل في لعبة الصراع بين الأطراف الفلسطينية السياسية، والتدخل كذلك في رسم صورة «المؤسسات الأمنية» لصالح السلطة الفلسطينية بعد العام ٢٠٠٧.

أما ما يظهر في مخيم جنين، أو البلدات القديمة الفلسطينية، فهو انسحاب العمارة المقاومة التي كانت جزءاً أساسياً في المقاومة في الانتفاضة الثانية، وتفريغها من محتواها السياسي، بعد إخفاء حالات التدمير الحضري الذي

مارسه الاستعمار فترة الاجتياحات، وإلصاقها بعبارة «اللاعنف»، وخطاب سلمي يخلق إحدى حالات تشوه الواقع الاستعماري. وامتازت البلدة القديمة في نابلس في محاولة تتبع ظواهر تُرسم على منافذ مفهوم «أماكن الذاكرة» التي تجسدت بعشرات من أضرحة الشهداء، وما تتسم به هذه الأضرحة هو خلق نوع مختلف من الذاكرة «غير الحقيقية» أو المختارة، ليس لحدث المعركة، وإنما لتاريخ الاستشهاد، قاصراً فعل الذاكرة على لحظة زمنية معينة، وإن كان المفهوم السابق بحاجة إلى دراسات أخرى عن حالات مشابهة أو مختلفة داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني.

١,٢ الإشكالية:

يأتي الطرحُ من الحالة الاستعمارية المفروضة على فلسطين وما يقابلها من عدالة المشروع التحرري؛ وبعيداً عن الخطب في المشاريع الوطنية، يكمن جديدُ الطرحِ في جزأين:

الأول في محاولةٍ تفكيكيةٍ لفهم بنيةٍ من الرموزِ الدلالية والإيحائية الموجودة، والمختفية داخل معماريةِ الفضاء الاجتماعي الفلسطيني الراهن، التي تواري «الموت»، حيث تطغى على هندسة الفضاء المعماري الاجتماعي الفلسطيني المتكون بعد الانتفاضة الثانية، رمزية سلمية متبوعة بسلطةِ خطابٍ «لا عنفي» داخلي وخارجي، يعمل على انسحابِ التاريخ و«الحقيقة» و«الصمت عن الاستعمار»، يظهر ذلك في مواراة الأجزاء المعمارية التي وُصمَت بآثار الحرب في لباس معماري جديد يبتعد عن الحرب وأثرها، لتصبح هذه الأجزاء المعمارية المتنكرة تابوتاً لتاريخ معاناة الحرب، أو الحروب التي مرت على المجتمع الفلسطيني، وأداةً في مواراة الموت.

ينقلنا هذا الفضاء المعماري الاجتماعي نحو الصورة الجديدة؛ التي تختفي فيها ثغرة رصاصة الموت تحت إسمنت جديد في جدران العمارة الفلسطينية من قرى ومدن ومخيمات، ليصبح الشكل المعماري بذلك جزءاً من عدم التورط بلُعبة الموت، والانسحاب من «الذكرى»، ويتكون أثر جديد حي في الصورة يدفن الأثر والمضمون المنتصر والمنهزم في الحرب مع الاستعمار.

أما الجزء الثاني للطرح، فيكمن في أنه لم يعد للذكرى أي تأريخ رمزي أو مباشر داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، ليصطدم في خلق رؤية إرجاعية تاريخية مستمرة في الحياة اليومية للفلسطينيين، وتبقى الألسنة تكرر مقولة «على هذه الأرض ما يستحق الحياة»، دون وجود مقولة «لئلا ننسى»؛ يَفترضُ تملكُ الأولى اجتماعياً انتصار الحياة على الموت ومواراة الموت، ويفترض غيابُ الثانية غيابَ مواجهة الموت كجزء من الحياة المعاشة الفلسطينية، وتأريخ ذكراه داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، فما الموت إلا جزءٌ منَ الحياة، يختلف حال الموت هنا لكونه ليس مطلباً، وليس من المطلوب أن يكون كذلك؛ إلا أن الفضاء المعماري الاجتماعي الفلسطيني المتبلور بهندسةٍ جديدة وارت عن الموت وأخفت فيه «الذكرى»؛ ذكرى تعيدُ إحياءَ وعي لتاريخ استعماري حربي، وواقع ومستقبل يتصادمُ مع الاستعمار داخل الفضاء المعماري، ليس بلحظاتِ التصادم القاتلةِ فحسب، وإنما في الحياةِ اليومية التي أصبحت تقضي على وُجود ذكرى لحظةِ التصادم السابقة.

١,٣ مفاهيم مفتاحية في الدراسة:

مواراة الموت: أي إقصاء الحرب من الذكرى والذاكرة في المعمار الفلسطيني والوعي الفلسطيني، وتسجيل الحدث من خلال ثقافة بصرية في الرموز المؤرخة له. تتمثل رمزية الموت في الطرح ببعدين؛ البعد الحسي في الاختفاء والفناء سواء كان للجسد أو العمار الذي تعرض للرصاص الإسرائيلي داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، والبعد المجازي في الحالة الاستعمارية لكونه مفروضاً، ومعنوناً لسياسات هذا الاستعمار بمشاريع الهندسة المعمارية الكولونيالية الجديدة، الممتدة لخلق هندسة وعي جديد للفضاء/ المكان للفلسطينيين. يكمن تقصي الموت والبحث في حالات ظهوره واختفائه بفعل استمرار مسببه؛ المتمثل بالسياسات والعنف الاستعماريين القائمين حتى اليوم، بينما الأثر هو ما أصبح يتوارى عن بصرية المستعمَرين، بالتالي الموت يوارى بقبور إسمنتية جديدة دون نبشه، ومما سبق يقوم فعل المواراة برسم رؤية جديدة عن الفضاء الاجتماعي الفلسطيني المعاصر، وعن المشروع الفلسطيني التحرري.

معمارية الفضاء الاجتماعي: معاينة الظاهرة تكمن في فحص شقين لمفهوم معمارية الفضاء الاجتماعي؛ الأول بمعاينة بصرية العمارة فيزيائياً، وشكل العمار الهندسي، وانتظامه كمادة إسمنتية لها امتدادات التأثير والتدليل على العمارة مفاهيمياً وسوسيولوجياً. وكذلك من حيث أن الهندسة المعمارية هي هندسة في بنية الوعي الرمزي الاجتماعي داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني المعبر عن الذات والهوية المستعمَرة، مكاناً وزماناً في الواقع والذاكرة. يكمن اختيار دراسة العمارة كونها أحد تشكلات الهوية المجتمعية، وتعكس العديد من المحددات السوسيولوجية في بنية مجتمع ما، وجزءاً من مشهد بصري للفضاء المعاش الذي يتم إنتاجه من خلال بنية هذه المحددات.

١,٤ سبب اختيار الموضوع «ذاتية الباحثة في الموضوع»:

بداية التساؤل عن الموضوع كانت مع ثلاث نخلات؛ وضعت أمام المقاطعة «الجديدة» في رام الله، وأزيلت بعد فترة قصيرة، ليتم استبدالها بشجرات زيتون استبدلت هي الأخرى بعد موتها في مشهد غير مألوف لبلد يستثمر في زراعة الزيتون. عملية الاستبدال أضاءت تساؤلات أخرى على الاستبدال الكامل للمقاطعة «التالفة وظيفياً» بفعل عمليات القصف الحربي الإسرائيلي فترة الحصار في بدايات الانتفاضة الثانية. امتدت عملية الاستبدال في طرح التساؤلات وصولاً إلى طولكرم، وبالأخص إلى جدار مخيم طولكرم؛ الجدار «الجديد» الذي رسم عليه زهرة وطفل وكتاب، واختفت فتحات الرصاص التي كانت في إسمنته تحتها، لتأخذ التساؤلات بعرض شريط صوري ضبابي للألم والموت الذي حدث في السنوات الأولى للانتفاضة، وتبدأ محاولات الفهم لمدى تبلور الذكرى في الذاكرة الفلسطينية داخل الفضاء/ المكان الفلسطيني، لرسم قصة الحرب مع الاستعمار الإسرائيلي، وما هي السياسات والممارسات، والتصميمات المعمارية، وأي سلطة ومعرفة تحدد تسجيل أو عدم تسجيل قصة الحرب في إعادة إعمار العمار الفلسطيني، ومعه هندسة «وعي» جديد لفلسطين والفلسطينيين.

١,٥ هدف البحث:

يهدف البحث إلى فهم التحولات التي طرأت، وتطرأ على الذاكرة الفلسطينية في حدث الحرب مع الاستعمار «الإسرائيلي»، الذي يبتعد عن التسجيل في السياسات والممارسات داخل الفضاء/ المكان الفلسطيني، ويكمن ذلك في الأثر والمضمون الذي تقدمه معمارية هذا الفضاء، وبالتالي في الإشارة إلى الوعي البصري داخل المعمار الفلسطيني، وبخاصة ذاك المعمار الذي تعرض إسمنته للقصف والرصاص الإسرائيلي في الانتفاضة الثانية، والذي أعيد إعماره ضمن سياسات السلطة/ الهيمنة التي أدعي أنها أقصت الموت من الذاكرة والهوية الفلسطينية، وأخفت الرمز المؤرخ له، والذي أسس للمحاججة لفحص هذه التساؤلات.

١,٦ منهجية البحث:

يستخدم البحث مجموعة من التقنيات البحثية الخاصة بالبحث الكيفي، التي طبقت على عينة من ثلاثة تجمعات حضرية، وهي:

المقاطعات التي أعيد إعمارها في الضفة الغربية «النموذج الأمني لمقاطعات (طولكرم، نابلس، جنين، رام الله)».

البلدات القديمة في نابلس وفي رام الله.

مخيم جنين.

تقوم منهجية البحث، بشكل أساسي، على المقابلات باعتبارها الأداة الأكثر جمعاً للبيانات لهدف هذا البحث، وذلك لأن المقابلات في الدراسات الميدانية تتميز بحصول عملية الاتصال، والتفاعل الإنساني ما بين الباحث والحقل الاجتماعي الذي يبحث فيه، التي تتيح للباحث من خلالها، الاطلاع على واقع المبحوث، والاطلاع على مجموعة العوامل والقوى التي تؤثر به،[١] مع وجود الوعي لتجنب حصول أي علاقة

---

١ عماد، عبد الغني. منهجية البحث في علم الاجتماع، الإشكاليات، التقنيات، المقاربات، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ٢٠٠٧، ص ٧٢-٧٣.

انعكاسية[٢] بين الباحث والمبحوث، لكي لا تتأثر البيانات التي تم جمعها للبحث. وفي هذا البحث، تم استخدام نوعين من أنواع المقابلات:

النوع الأول وهو، المقابلات المعمقة شبه المنمَّطة؛ التي تهدف إلى استقصاء معلوماتي مشبع لأهداف البحث، وتساؤلاته. وتم إجراؤها مع عينة قصدية على مجموعة مبحوثين من ذوي الاختصاص، والعلاقة المباشرة بالمؤسسات المراد دراستها، وسيتم تحديد ارتباط تخصصهم بأهداف البحث كالتالي:

ذوو الاختصاص بالعمارة، من المهندسين المعماريين الذين يعملون في مكاتب هندسية فلسطينية، أو في مؤسسات أكاديمية كجامعة بيرزيت.

بعض مسؤولي المؤسسات الرسمية التي يتم البحث عنها، كالمقاطعات، ورؤساء البلديات، ومديرية الأشغال «السلطة الفلسطينية».

ذوو الاختصاص بعملية الترميم للأماكن التاريخية، التي تحاول الحفاظ على ذاكرة المكان، وأثره فلسطينياً كـ رواق - مركز المعمار الشعبي.

الجهات المسؤولة عن الإشراف على إعادة الإعمار كالمجلس الفلسطيني للتنمية وإعادة الإعمار «بكدار»، ومكاتب التصميم المعماري كمكتب «نينو للاستشارات الهندسية».

تكمن أهمية المقابلة وفقاً لأهداف البحث، في كونها محاولة لفهم السياسات المتبعة في تحديد المخططات الهندسة المعمارية، عند تقرير البدء بعملية إعادة الإعمار للعمار الفلسطيني الذي تعرض للقصف في الحرب

---

٢ راجع عن مفهوم الانعكاسية: بورديو، بيير. بؤس العالم، الجزء ٣، دمشق: دار كنعان، ٢٠٠١، ص ٣٦٣-٣٩٢. حيث يقول بورديو: «وحدها الانعاكسية، وهي مرادف للمنهج، لكنها «انعكاسية رد الفعل»، مبنية على «مهنة»، أو «عين» اجتماعية، وحدها تسمح بالملاحظة الفورية وبالتحكم بتأثيرات البنية الاجتماعية التي تجري ضمنها، وذلك من خلال مسار المقابلة. كيف يدّعي المرء أنه يقوم بالتعرف على المسلّمات دون أن يعمل على التعرف على مسلماته الخاصة؟ وبخاصة دون أن يبذل جهداً كي يستخدم مكتسبات علم الاجتماع بشكل انعكاسي من أجل التحكم بتأثيرات الاستقصاء ذاته، ولينهمك في المقابلة متحكماً بتأثيرات الاستجواب التي لا يمكن تجنبها. إن الحلم الإيجابي ببراءة معرفية تامة يخفي بالفعل أنّ الفارق ليس بين العلم الذي يبني، وذلك الذي لا يبني، بل بين ذلك الذي يفعل ذلك دون أن يدري وذلك الذي يدري».

الإسرائيلية أثناء الانتفاضة الثانية وحتى الوقت الراهن. كما تحاول فهم دلالات المكان الفلسطيني بتغيراته بعد إعادة الإعمار عند الفلسطينيين. وبالتالي، ستفحص المقابلة المعمقة جزأين؛ الأول دور المؤسسات المنتجة التي ترسم هندسة الفضاء العام البصري من خلال تشكيل العمار الجديد، ومنها المؤسسات الرسمية التي تعرضت لإعادة الإعمار، ودور المؤسسات التي قامت بالتمويل في خضم سياسات اقتصادية ليبرالية جديدة، وذلك من خلال إجراء المقابلات مع رؤساء البلديات في نابلس، ورام الله، والمهندسين المعماريين المصممين والمشرفين، لنموذج إعادة إعمار المقاطعات في الضفة الغربية تحديداً في المدن (طولكرم، نابلس، رام الله، جنين)، وإعادة إعمار البلدات القديمة (كنابلس، ورام الله). وستكون هناك مقابلات مع المؤسسات غير الرسمية، وبخاصة مع بعض مسؤولي وكالة الغوث للاجئين، والمهندسين التابعين لها، لتوضيح ما كان لها من دور في الهندسة المعمارية داخل مخيم جنين في الانتفاضة الثانية، ومؤسسات المجتمع المدني الأخرى لفحص خطاب اللاعنف الذي يتم إسقاطه على العمار.

أما الجزء الثاني، هو الذي سيوضحه النوع الثاني من المقابلات، فهو عبارة عن مقابلات غير معمقة تسأل عن أثر الموت ومضمونه الذي رسم على العمار لفهم عملية استقبال الفاعلين الاجتماعيين للصور البصرية داخل معمارية الفضاء العام الفلسطيني، ويقع هذا في ما يسمى بسوسيولوجيا التلقي.

التقنية الثانية في هذا البحث، هي تحليل الخطاب المنقول في صور لمعماريات (المقاطعات، والمخيمات، والبلدات القديمة). تكمن الفكرة الأساسية في تحليل الخطاب هذا، في كون هدفه استنطاق الماقبل في مستوى وجوده، وفي مستوى الوظيفة المنطوقية الممارسة عليه، والتشكيلة الخطابية التي ينتسب إليها، ولا يأتي الخطاب هنا باقتصاره على أن يكون حاملاً لبنية أو دلالة أو مضمون؛ وإنما كحدث مادي له وظائف معينة في حقبة تاريخية معينة.[٣] فالصور المستخدمة صنفت المكان تبعاً لنوعين: النوع الأول، هو الصور التي تم تجميعها من مصادر وثقت، وأرشفت حدث ألم العمار المهدم

٣ الزواوي بغورة. «منهج في تحليل الخطاب»، مجلة إبداع، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، عدد ٤، ٥ نيسان-أيار، ٢٠٠٠، ص ١٠٨.

قبل إعادة إعماره، وجُمعت من قبل مصورين فلسطينيين وثقوا لحظات الهدم والحرب أثناء الانتفاضة الثانية، وهم «عباس المومني، عبد الرحمن القوصيني، وجمال العاروري». أما النوع الثاني، فهو الصور التي قامت الباحثة بالتقاطها للمقاطعات والمخيمات والبلدات القديمة، بعد إعادة الإعمار على مدى عام ونصف من ٢٠١٣-٢٠١٥. وبالتالي، سيتم إجراء تحليل الخطاب بصورة تحليلية مقارنة لما ظهر في صور النوع الأول، والنوع الثاني، ودلالات ما تنقل الصورة القديمة من عملية الموت الموجه ضد الفلسطيني من خلال العمار، والصورة الجديدة التي تواري الموت بهندسة جديدة للفضاءات العامة الفلسطينية من خلال العمار المعاد إعماره. ومن خلال كل ذلك، تم تفكيك مفاهيم وممارسات استعمارية تدخل ضمن إنتاج العمارة فلسطينياً، ضمن تتبع دلالات الموت ومواراته فيه سوسيولوجياً وسيميائياً.

وعليه تأتي المقابلات، وتحليل الخطاب، لتأطير التقنية الثالثة وهي «المعاينات والمشاهدات» للهندسة المعمارية للعمار المعاد إعماره بعد الانتفاضة الثانية، الذي هدم بفعل الحرب الإسرائيلية داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، التي اتبعت لمواراة الموت داخل العمار الجديد واقعاً ووعياً بدلالات وإيحاءات المعاني التي يتم توليدها فلسطينياً. كذلك تعد الملاحظة والمشاهدة من الأدوات المهمة في البحث العلمي، فالمشاهدة هي الوقوف عن كثب على الشيء المراد رؤيته، لأنها مقتصرة على العين في مشاهدة الأشكال والأفعال، وتمكن الباحث من الوصف لما يشاهده. والملاحظة هي الربط بين المشاهد والمسموع.[٤] وتصاحب هذه المصادر المجمعة للمعلومات، عملية من الاستقصاء المعرفي للدراسات والنظريات المحلِّلة، والمقارنة لتفكيك المقابلات، والمعاينات.

١,٧ الإطار الزماني والمكاني للدراسة:

يقوم هذا البحث بتتبع الظاهرة زمنياً على مدى أكثر من عقد ونصف في التاريخ الفلسطيني المعاصر، من بداية الانتفاضة الثانية التي اندلعت في العام ٢٠٠٠، وحتى اليوم الحاضر من العام ٢٠١٥. فهذه الفترة الزمنية،

٤ عماد، عبد الغني، مرجع سابق، ص ٦٧.

هي الفترة التي تؤمن للبحث تتبع المعركة التي وُجهت نحو الفلسطينيين ومكان عيشهم، وبما فيه من تشكلات كالمشهد المعماري. ومن ثم تتبع بدايات إعادة الإعمار، ومواراة الموت عن أثر المعركة السابقة وعن المكان/ الزمان الفلسطيني، انطلاقاً من إعادة إعمار مخيم جنين في العام ٢٠٠٤، إلى مشروع إعادة إعمار المقاطعات الذي بدأ العمل فيه من العام ٢٠٠٧ وما زال مستمراً حتى اليوم من العام ٢٠١٥.

أما مكانياً، فالظاهرة تدرس ما حدث داخل حدود الضفة الغربية على كل من البلدات القديمة، ومخيمات اللاجئين، والمقاطعات التابعة للسلطة الفلسطينية. وأخذت عينة من المخيمات مخيماً واحداً هو (مخيم جنين)، أما المقاطعات فأخذت مقاطعات (جنين، وطولكرم، ونابلس، ورام الله)، مع التنويه إلى أن جميع المقاطعات لها التصميم الهندسي نفسه، ما عدا مقاطعة رام الله التي تعد «مقراً للرئاسة». أما البلدات القديمة، فأخذت بلدة نابلس القديمة، وبلدة رام الله القديمة المعروفة بـ«رام الله التحتا».

١,٨ أسئلة البحث:

هل أخذت الهندسة المعمارية للعمار الفلسطيني الجديد ثقافة جديدة تواري الموت في الذاكرة الفلسطينية، وتعيد إنتاج الهيمنة الاستعمارية بالشكل الهندسي الجديد داخل الفضاء المُستعمَر؟

هل أصبحت عمليات إعادة إعمار معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني جزءاً من عدم التسجيل التاريخي القصدي لقصة الحرب مع الاستعمار في «الوعي الفلسطيني»؟

هل تمثلت عمليات إعادة إعمار العمار المهدم في الانتفاضة استمراراً لممارسات المؤسسة الرسمية الفلسطينية وخطابها الدولاتي بعد أوسلو التي أخفت الممارسات الاستعمارية في «الوعي» و«اللاوعي» الفلسطيني؟

هل كانت عملية إعادة الإعمار تنطوي في تمويلاتها على دعم مالي مصحوب بأجندة المولين التي ساهمت في إعادة إنتاج الهيمنة الاستعمارية داخل الفضاء المعماري الاجتماعي الفلسطيني وآليات استبطانها؟

هل يتم تأريخ حرب المعمار الفلسطيني مع الاستعمار الإسرائيلي في الهندسة المعمارية الجديدة؟

هل يطغى الخطاب «اللاعنفي السلمي» على معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، كجزء من سلطة خطاب اللاعنف السياسي الذي تعيد إنتاجه مؤسسات «المجتمع المدني» في فلسطين في طمس العمار المهدم تحت رمادية الإسمنت الجديد المواري للموت؟

١,٩ فرضيات البحث:

تشكلت في المعمارية الفلسطينية ثقافة جديدة تقصي الموت وتواريه عن الذاكرة الفلسطينية، وتعيد إنتاج الهيمنة الاستعمارية على الذات المستعمَرة.

تمثل إعادة إعمار معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني جزءاً من عدم التسجيل التاريخي لقصة الحرب مع المستعمر الإسرائيلي في الوعي الفلسطيني.

تتبع عمليات إعادة إعمار العمار المهدم في الانتفاضة استمراراً لممارسات المؤسسة الرسمية وخطابها الدولاتي بعد أوسلو، التي أخفت الممارسات الاستعمارية في الوعي واللاوعي الفلسطيني.

تنطوي عملية إعادة الإعمار في تمويلاتها على دعم مالي مصحوب بأجندة الممولين في إعادة إنتاج الهيمنة الاستعمارية.

تختفي النُّصُب التذكارية والرموز والصور التي تؤرخ حرب المعمار الفلسطيني مع الاستعمار في الهندسة المعمارية الجديدة، وتبقى مقتصرة على شخوص الأفراد ذات الطابع الحزبي أو جداريات ورموز سلمية.

يطغى الخطاب اللاعنفي السلمي على معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني كجزء من سلطة خطاب اللاعنف السياسي الذي تعيد إنتاجه مؤسسات المجتمع المدني في فلسطين في طمس العمار المهدم تحت رمادية الإسمنت الجديد المواري للموت.

١٠ , ١عينة البحث

تمثل مجموع المقابلات في البحث بخمس وثلاثين مقابلة. إحدى عشرة مقابلة من العينة هي لذوي العلاقة والاختصاص بإنتاج العمارة بمختلف المؤسسات المتداخلة في الموضوع، وكانت عينة قصدية تخدم أهداف البحث.

أما باقي المقابلات فكانت لمستقبلي العمارة الجديدة بعد إعادة الإعمار، وكانت عينة عشوائية بسيطة، خلال مرور الباحثة في إطار معاينة الأماكن الحضرية التي تم البحث عنها.

١١ , ١ الصعوبات:

بدأت الصعوبات تظهر في هذا البحث من اللحظة الأولى التي قررت بها الباحثة أن تجري مقابلات استطلاعية أولية للبحث، فكانت الإشكالية تكمن بأن قسماً كبيراً من الرسالة يتحرى جمع البيانات من مؤسسات رسمية، تستدعي وقتاً زمنياً طويلاً ضمن المنظومة البيروقراطية التي تحاول مؤسسات «الدولة» الفلسطينية الجديدة تبنيها ضمن هيكلة تُرسخ الخطاب الدولاتي. بالتالي، أخذ جمع البيانات من الميدان وقتاً طويلاً. وعلى الرغم من عملية مماشاة هذه البيروقراطية، ومدة الانتظار الطويلة، فإن أغلب المحاولات في تحديد موعد للمقابلة كان يتعرض للمماطلة، ثم الرفض بإجرائها في النهاية. بالطبع، لم يكن الرفض بصورة واضحة ومباشرة، وإنما كان يتم بأسلوب يعكس انشغال تلك المؤسسات بالقضايا العامة التي تعتبر أهم من باحثة اجتماعية تحاول جمع بياناتٍ لبحثها، أو بحجة «السؤال» عني لأني أطلب الدخول لتصوير مؤسسة أمنية.

قد يكون ما سبق عبارة عن صعوبات عامة يواجهها أي باحث اجتماعي، ولكن ما كان يسهل أحياناً الدخول إلى مؤسسة ما، وإجراء أي مقابلة، هو منظومة العلاقات الاجتماعية الخاصة بالباحثة؛ إما عائلية وإما عن طريق الأصدقاء. ولكن لم ينفع ذلك لأخذ «تنسيق» لدخول مقاطعة رام الله الجديدة، ولا يعني ذلك بالطبع أن دخول المقاطعات الأخرى «جنين، وطولكرم، ونابلس» حدث بسهولة. ولكن المقاطعات

الأخرى حصل على «تنسيق» دخولها من وزارة الداخلية الفلسطينية بعد ستة شهور من طلبها. أما مقاطعة رام الله، فيستوجب دخول أي شخص لها، «تنسيقاً» من حرس الرئاسة، بحيث تكون المقاطعة في رام الله، بكونها «مقراً للرئاسة»، مفصولة بالتخصص الوظائفي والمهني، عن وزارة الداخلية الفلسطينية. ومع استحالة دخول المقاطعة في رام الله للحصول على صور إعادة الإعمار، لجأت الباحثة، إلى مواقع الإنترنت، لعل أحد المصورين التقط صورةً لمقاطعة رام الله، بعد عملية إعادة إعمارها، ولكن ما قد يفاجئ البعض، عدم وجود أي صورة لمقاطعة رام الله الجديدة من الداخل قد تم تحميلها على الإنترنت. وطبعاً هذا كله يتماشى مع الممارسات الدولاتية التي تؤسس لها السلطة داخل مؤسساتها الجديدة في خطاب تحقيق «الدولة الفلسطينية»، وجزء من نظام المراقبة والضبط الذي يعكس أسوارها العالية، التي لا تسمح للفرد الفلسطيني برؤية ما بداخلها.

أضيف إلى ذلك صعوبات أخرى تتمثل في أن تحديد المقابلات حتى في المكاتب الهندسية، أو البلديات، أو حتى بعض المصورين، أخذت صورة المماطلة ذاتها التي تقتل النفس الباحثة، فيأخذ البعض بالتملص، لكون المقابلة تعطيلاً لأعمالهم، أو أنهم ملوا من كم الباحثين الساعين إلى الحصول على إجابات. قد يشير ذلك إلى عدم تكوين وعي كافٍ عن أهمية المساعدة في تكوين المعرفة العلمية عند الطلاب، و«الطلاب» تحديداً، لأن الباحثين الاجتماعيين المنتمين إلى مؤسسات بحثية، أو مراكز تهتم بجمع المعلومات ذوي الألقاب الوظيفية، قد تؤمن لهم سهولة أكبر في جمع معلوماتهم، من رأس مالهم الاجتماعي والمعرفي المتراكم.

إضافة إلى ما سبق، ظهرت صعوبات أخرى عند مقابلة المبحوثين المتلقين للصورة البصرية، وأقصد بذلك الفاعلين الفلسطينيين الذين يتقاطعون مع بصري المعمار في فضائهم، والذين كانوا يشعرون بالقلق لحظة سؤالهم عن المقاطعات، فالبعض امتنع عن ذكر اسمه، والبعض رفض أن يتم تسجيل صوته حتى مع عدم ذكر اسمه، والبعض الآخر كان يسأل عما إذا كانت الباحثة قد أخذت «التنسيق» من السلطة لإجراء البحث. يأتي ذلك من مقدار الملاحقات الأمنية التي يتعرض أو يسمع عنها الفلسطينيون عند الحديث عن المؤسسات الأمنية التابعة

للسلطة الفلسطينية. ومن ذلك أن وزارة الداخلية طلبت نسخة من هذا البحث بعد إتمامه، للتأكد من المعلومات التي ستعرض عن المقاطعات.

ومن الصعوبات التي واجهتها الباحثة الاجتماعية، أو قد لا تكون صعوبة بمقدار ما هي إحدى المعضلات الاجتماعية التي تتعرض لها النساء، بشكل عام، من محاولات الاستمالة لكونها امرأة لحدود قد تصل إلى التحرش، وهي إحدى الصعوبات التي يتم إغفالها لعدم التخويف من مهنة الباحثة الاجتماعية في مجتمع ذي ثقافة وهيمنة ذكورية، مع عدم الإنكار بأن كونها امرأة كان إحدى بدايات تسهيل الحصول على المقابلات عند بعض المبحوثين في بعض الحالات. ويجب التنويه إلى أن الباحثة هنا تتحدث عن بعض المقابلات وليس جميعها، وأن الحديث عن ذلك هو جزء من موضوعية كتابة الصعوبات، كون الوعي لا ينفصل خلال التجربة، على الرغم من الصعوبات المنتظرة بعد البوح عن ذلك. وذكر ذلك لا يفترض بأن الباحثة توليه أهمية عظمى أو تعيد رسم صورة المرأة «الضحية»، وإنما هذا يمثل جزءاً كبيراً من المشاعر التي لاحقت عملية جمع البيانات، كبقية الصعوبات الأخرى.

في نهاية الأمر، يبقى البحث الميداني مليء بالتجارب والقصص التي يتم رفض نشرها، والتي كان من الممكن أن تكون إضافة أكبر إلى هدف البحث، ولكن المواقع الوظيفية لبعض المبحوثين أوجبت أن يطلبوا ذلك من الباحثة، وبالتأكيد فإن الجزء المتعلق بمصداقية الباحثة والأمانة الأكاديمية للبحث، تستوجب حفظ مطلب المبحوث، ومجاراة كل أمر لا يضر بأحد مبحوثي هذا البحث.

١٢ , ١ تنافذ نظري على الظاهرة

مقاطعة نابلس القديمة التي تم قصفها في ٢٠٠٣ [٥]

مقاطعة نابلس الجديدة بعد إعادة الإعمار ٢٠١٤ [٦]

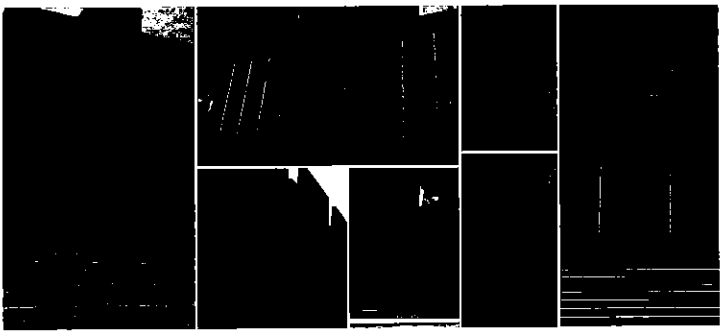

٥ تصوير المصور عبد الرحمن عمر القوصيني، مصور فلسطيني يسكن مدينة نابلس، وأخذت الصور من تلفزيون معاً، حقوق الطبع محفوظة للمصور.

٦ تصوير الباحثة، في شهر نيسان من العام ٢٠١٤.

الذاكرة والتذكير بالذكرى فلسطينياً:

قبل طرح الفلسفات التأملية والاجتماعية حول الذاكرة، علينا أن نعود لأصولها اللغوية عربياً، التي تقدم لنا المعاني الأولى، وتصف المراحل الأولى للتأويلات. فالذاكرة هنا تُشكل نواة البحث، ويدور حولها الشكل المعماري في محيط الفضاء العام وتمثُّلاته الاجتماعية، التي تنقلنا نحو التشكيل الهوياتي المعاصر للقضايا الراهنة في المجتمع الفلسطيني. وهذا يعني أن التدرج في طرح المعاني لغوياً واجتماعياً سيصل بنا إلى تحقيق غاية أساسية؛ وهي توضيح ارتباط عنواني البحث، والإجابة عن أسئلته المختلفة.

معنى ذكر في **لسان العرب** الذِّكْرُ الحِفْظُ للشيء تَذْكُرُه والذِّكْرُ أَيضاً الشيء يجري على اللسان والذِّكْرُ جَرْيُ الشيء على لسانك، وقد تقدم أَن الذِّكْرَ لغة في الذكر ذَكَرَهُ يَذْكُرُه ذِكْراً وذُكْراً، حكى أَبو عبيد عن أَبي زيد فقال أَرْتَمَتُّ إِذا ربطتَ في إِصبعه خيطاً يَسْتَذْكِرُ به حاجَتَه وأَذْكَرَه إِياه ذَكَّرَهُ والاسم الذِّكْرَى الفراء يكون الذِّكْرَى بمعنى الذِّكْرِ ويكون بمعنى التَّذَكُّرِ، والذِّكْرُ والذِّكْرى بالكسر نقيض النسيان. ما جاء في معجم اللغة العربية المعاصرة؛ قدرة النفس على الاحتفاظ بالتجارب، والمعلومات السابقة في الذِّهن واستعادتها «لديه ذاكرة حادّة - بقي في ذاكِرة الناس» إن لم تُغْنِي الذَّاكرةُ: إذا لم أنسَ - خلل في الذَّاكرة/ قُصور في الذَّاكرة: ضعف ونقص فيها - ذاكِرة بصريّة: قوّة عقليَّة، يحفظ بها الإنسانُ في ذهنه كلّ ما يُبصِر - ذاكِرة حافِظة: قدرة على استبقاء الأشياء في الذِّهن - مطبوعٌ في الذَّاكرة: لا يمكن نسيانُه. معنى ذَكَرَ في **المعجم الوسيط** الشيءَ ـُ ذِكراً، وذُكْراً، وذِكْرَى، وتَذكاراً: حَفِظَه. و استحضره. و جَرَى على لسانه بعد نسيانه.[٧]

يتضح هنا أن جميع الدلالات اللغوية للكلمة وأصلها تشير إلى حدث زمني تتم إعادة استحضاره، وتكراره. ولكنه يرتبط في أغلب الأحيان في محفزات تذكيرية تقوم بإعادة إنتاج الحدث، أو الشيء، أو حتى الإنسان الاجتماعي؛ الذي غاب في اللحظة الزمنية والمكانية الواقعة. بالتالي، فإن

---

٧ عن معجم لسان العرب من موقع: http://www.maajim.com/dictionary، تمت زيارة الموقع بتاريخ ٢٠/ ٩/ ٢٠١٤.

الذكرى تتشكل عند الوعي بأنها فعلاً موجودة. وتحدث عند التفاعل بالمحيط الاجتماعي. فهي ليست تمثيلاً للغياب، وإنما هي تمثيل لمعنى الحاضر في الاستحضار. وهنا تزيل عنها صفة الانفصال الفرداني عن المحيط الاجتماعي. فهي حتى وإن كانت فردانية دون مشاركتها مع الآخرين، فهي محفزة من قبل الفعل الاجتماعي بالمستوى الكبير.

في المجال المعرفي تمت فلسفة الذاكرة بصور مختلفة من أفلاطون، وأرسطو في محاولات الفصل والتمييز بين الذاكرة والتذكر، وصولاً إلى معاصري الفلسفة وعلم الاجتماع، ومع هذا الاختلاف من فردانية الذاكرة إلى جمعيتها، فإن ما يتقاطع مع البحث هو؛ التفسير الذي يرى أن للذاكرة مضموناً اجتماعياً وإطاراً اجتماعياً؛ وفي السياق الاجتماعي أو السياسي- الاجتماعي تتفرد الذاكرة الفردية.[٨] فإن استناد الأفراد في تجديدهم للماضي يعود إلى الإطارات المرجعية الاجتماعية، بحيث يجعل ذكرياتهم ذات طابع مرجعي- جمعي. بالتالي، لم تعد الذكريات الفردية إذن متمركزة ومنحصرة في داخل الفرد، بل أضحت تملك مكاناً ضمن المنظومة الاجتماعية كنتيجة لتفاعل هذا الفرد مع محيطه الاجتماعي. وعن طريق الحوار مع الآخرين، يتسنى للمرء أن يتذكر محطات وتجارب مهمة في حياته.

يطرح موريس هالبواكس (MauriceHalbwachs) أن الهوية المافوق فردية تتشكل عند الاستدعاء المشترك لماضي المجموعة الاجتماعية،[٩] وهي اللحظة الموضوعاتية للذاكرة.[١٠] أما بشارة، فيرى أن الذاكرة الاجتماعية لا تقتصر على مجرد التدليل لسياق اجتماعي للذاكرة، وإنما تدل على ذاكرة الجماعة.[١١] والأبرز بين هذه الذكريات هو الذكريات المتعلقة بأماكن الزيارات المشتركة. ويوضحها هالبواكس بأنها الأماكن التي تتيح لنا الفرصة الممتازة لأن نضع أنفسنا ذهنياً ضمن مجموعة معينة أو مجموعة أخرى. ثم نمر تدريجياً من دور شهادة الآخرين في استذكار الذكرى إلى شهادة الذكريات التي نملكها بوصفنا أعضاء مجموعة ما.[١٢]

---

٨ بشارة، عزمي. «في الذاكرة والتاريخ»، الكرمل، عدد ٥٠، ١٩٩٧، ص ٤٥.

٩ سوكاح، زهير. «مفهوم الذاكرة الجمعية عند موريس هالبواكس»، الحوار المتمدن، عدد ١٧٥٥، ٢٠٠٦. http://www.ahewar.org/، تمت زيارة الموقع بتاريخ ٥/ ٤/ ٢٠١٣.

١٠ ريكور، بول. الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة: جورج زيناتي، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، الصنائع، ٢٠٠٩، ص٢٣.

١١ بشارة، عزمي، «في الذاكرة والتاريخ»، مرجع سابق، ص ٤٥.

١٢ ريكور، بول، مرجع سابق، ص ١٩١.

وهنا تتجلى بوضوح وظيفة الذاكرة الجمعية كما يراها هالبواكس، ألا وهي تأسيس «هوية» المجتمع وضمان سيرورتها.[١٣] فالذاكرة تنشأ عند الإنسان مع بداية عملية انخراطه في المجتمع وتموضعه فيه. صحيح أن الجماعات في حد ذاتها ليست لها ذاكرة، إلا أنها تحدد ذاكرة الأفراد التي يعيشون فيها. فالذكريات تنشأ عن طريق الاتصال والتفاعل في إطار المجموعات الاجتماعية. نحن نعايش الأشياء بالنظر إلى الآخرين قبل كل شيء وبالتقابل معهم، نعايشها في سياق أطر اجتماعية أخرى معطاة وموجودة سلفاً، تحدد لنا أهمية الأشياء ومغزاها؛ لأنه -وبحسب هالبواكس- لا توجد ذكرى بدون إدراك حسي.[١٤] ينتقل لنا الإدراك الحسي في الوعي عبر الشكل الاجتماعي، ليخلق منظومة من استحضارات قضية كبرى من صور المحيط الاجتماعي البصري. ويشكل الهوية الفردية ضمن الاحتواء الاجتماعي، الذي يخلق خاصية جمعية تحافظ على التفرد والتميز داخل الوعي الجمعي. والأشكال المادية تؤثر على الاستعدادات لدى الناس. ولكن إلى أي مدى يمكنهم تغيير هذه الأشكال ذاتها؟ فالجماعات تتحرك في الزمان، ولا وجود لها، إلا أنها، ومع ذلك، تدوم وتستمر. وتؤدي آليات داخلية إلى تغيير أبعادها، أو تبقيها كما هي. وأما القوانين التي تحكم تجديد الأجيال، فإنها تقوم بتأثير حاسم على حياتهم ومستقبلهم.[١٥]

أما إيان أُسمن (Ausmin)، فيذهب باحثاً بين المدلولات والعلاقات للزمان والمكان الاجتماعي الذي يخلق معنى الذاكرة. ويميز بذلك بين «ثقافة التذكر»، و«فن الذاكرة»، داخل بناء الحضارة. وهذا الخط المرسوم بين كل من المكان والزمان، وبين الاتصال الجماعي والاجتماعي هو الذي يؤدي إلى خلق المفهومين السابقين. ما يمثله المكان بالنسبة «لفن الذاكرة» يمثله الزمان بالنسبة «لثقافة التذكر»، بل ربما يجوز لنا أن نذهب إلى أبعد من ذلك، ونقول إن «فن الذاكرة» تبع مجال التعليم (بمعنى أن هناك شيئاً يمكن تعلمه بمساعدة هذا الفن)، فيما «ثقافة التذكر» تختص بمجال

---

١٣ سوكاح، زهير، مرجع سابق.

١٤ أُسمن، إيان، الذاكرة الحضارية، الكتابة والذكرى والهوية السياسية في الحضارات الكبرى الأولى، ترجمة: عبد الحليم رجب، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣، ص ٦٣.

١٥ هالبواكس، موريس. المورفولوجيا الاجتماعية، ترجمة: حسين حيدر، باريس: منشورات عويدات، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٦، ص ١٥.

التخطيط و«بعث الأمل»؛ بمعنى أنها موجهة إلى المستقبل وتخطيطه انطلاقاً من تذكر الماضي. «فثقافة التذكر» تختص ببناء آفاق المعاني وآفاق الزمن الاجتماعية، أي بالنسبة للجماعة، وتعتمد «ثقافة التذكر» إلى درجة كبيرة -وإن كان ليس اعتماداً كلياً- على صور الاتصال بالماضي. غير أن الماضي ليس موجوداً بذاته، وإنما ينشأ أساساً في اللحظة التي ينسب الإنسان نفسه فيها إليه، ويتصل فيها معه. ومثل هذه الجملة قد تثير بدايةً الاستغراب. فما من شيء في الوجود قد يبدو أكثر طبيعة مثل نشأة الماضي: فالماضي ينشأ ببساطة عن طريق أن الوقت يمضي؛ ولهذا يحدث مثلاً أن اليوم يصير في الغد ماضياً، يصبح جزءاً من الماضي؛ فاليوم يصبح عندئذ «أمس»، وهكذا ينشأ الماضي على نحو ما يبدو لنا. بيد أن المجتمعات تتصرف حيال هذا الأمر الطبيعي بطريقة مختلفة تماماً. فهناك مجتمعات تعيش ليومها فقط، وتترك اليوم بعد ذلك يقع في براثن الماضي بلا أي أسف.[١٦] في هذا البحث، ستتم دراسة كلا المفهومين «فن التذكر» و«ثقافة التذكر»؛ من خلال التدخل الممأسس للماضي في الصورة المنتقلة للعمار داخل الفضاء الاجتماعي للفلسطينيين، ودراسة ما إذا كان الماضي قد ترك لبراثن الماضي داخل هذا الفضاء، أم يشكل وعي الهوية للجمعي الوطني.

يبدو أن ما يتكون لدينا في مختلف التفسيرات السابقة للذاكرة، أنها منظومة من المفاهيم والمعاني المتكونة بترابط خيوط الزمان والمكان. وتموضع الجسد الاجتماعي في المشهد الكامل، الذي يتخلص من ماضيته في الاستحضار الاجتماعي، من خلال إعادة إنتاج الصورة وربطها في واقع التغير الجديد. ومما سبق، يجب الإشارة إلى أن ما يعنينا في هذا البحث؛ هو أهمية الذاكرة الجمعية وتشكيلات الوعي الخاصة بها داخل الجماعة الفلسطينية والإطار الاجتماعي الفلسطيني، الذي يخضع لتهديد الحدث بإطاره الزمكاني والتاريخي، المشكل لهوية المشروع التحرري «لا نملك مورداً آخر فيما يخص الإحالة إلى الماضي سوى الذاكرة عينها».[١٧] لتصبح الإضاءة على العمار وإعادة الإعمار هي أداة تمثيلية للماضي الفلسطيني في معركته ضد الاستعمار داخل الفضاء العام.

---

١٦ أسمن، يان، مرجع سابق، ص ٥٥.

١٧ ريكور، بول، مرجع سابق، ص ٥٥.

إن جعل الذاكرة مرتبطة بالسياق الاجتماعي يقوم على أنها تَتأثر وتُؤثر؛ فالارتباط هنا تبادلي. ويكمن بالتحديد في آلية إنتاج وإعادة إنتاج الحدث ذاكراتياً، وتحريك الواقع من خلاله. فالذاكرة ليست بالجمود الصارخ الذي حظي به التاريخ، وإنما هي تتحرك نحو خلق صورة وشعور عند المواجهة في الفضاء العام. في جدلية الزمن لباشلار، يقوم بالتأكيد على أن الزمان المعقول يكون زماناً معاشاً في حالة النشوء، أو بكلام آخر نؤكد أن الفكر يكون على الدوام، ومن بعض الجوانب، محاولة أو مشروع حياة جديدة، محاولة للعيش في شكل آخر، للعيش الإضافي. أو حتى كما أراد صموئيل، إرادة تخطي الحياة. إن التفكير في الزمان معناه تأطير الحياة، وهذا لا يعني استخلاص مظهر خاص من الحياة ندركه بوضوح أكبر إذا عشناه عيشة أعمق. وهذا يحتم تقريباً القول باقتراح العيش بشكل آخر، وبتصحيح الحياة أولاً، وإغنائها ثانياً. عندئذ يكون النقد معرفة، ويكون النقد واقعاً.[١٨]

يصف حسين البرغوثي في هذا السياق الزمن وارتباطه بالذاكرة فلسطينياً في روايته **الضوء الأزرق** بأن «الدقة ليست هي الحقيقة، وأنا أقول: لا تطلبوا مني لا «الدقة، ولا تذكر «الزمن» هنا، فالزمن لكل من يمتلك «معرفة مرتبة»، متى حدث هذا الحدث أو ذاك، لا أدري، أعني عندما أتأمل ذاكرتي بأن الأشياء تحدث بعد بعضها، في تسلسل زمني ما؛ ولكن هذا التسلسل «ملفٌ» محفوظ في الذاكرة، لكن القلب له ترتيب آخر، ما حدث قبل عشرين سنة أحياناً يبدو وكأنه حدث بالأمس، وما حدث قبل سنتين يبدو وكأنه حدث قبل عشرين سنة، وهكذا وهكذا، فالقلب يرتب أثاثه حسب مدى أهمية أي حدث بالنسبة إليه، ضارباً بعرض الحائط كل نظام «الزمن السائد»، أو الذي يجب أن يسود».[١٩] إن ما يطرحه البرغوثي هنا يختلف عندما يشير إلى أن الزمن هو علاقة الفرد مع الحدث المؤثِّر وليس مع الترتيب الزمني المؤرَّخ، ولكنه لا يشبع الفلسطيني بتفسيرات هذا الترتيب الزمني، أو التداخل الذي يحدث على الفرد لتوضيح آلية هذا الترتيب. ولكن تكمن أهمية البحث في توضيح رسم ملفات الذاكرة وأهميتها عند الفلسطيني داخل سياسات الزمن السائد في الفضاء الاجتماعي

---

١٨ باشلار، غاستون. جدلية الزمن، ترجمة: خليل خليل، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ٢٠١٠، ص ٩٨.

١٩ البرغوثي، حسين. الضوء الأزرق، رام الله: الرعاة للدراسات والنشر، ٢٠٠٧، ص ١٧٥.

الفلسطيني، أو بكيفية صنع ترتيب معين للزمن وتذكره بعيداً عن قوة الفعل عند الفلسطينيين.

وبعد استقدام الذاكرة وسياقها النظري والاجتماعي فلسفةً وتأويلاً، سيطرح الجزء القادم، ارتباط الذاكرة الفلسطينية في العمارة داخل تلازم الزمان/ المكان، وتشكلات العمارة فيهما داخل التغيرات التي تحصل على المعنى في الفضاء العام.

العمارة الزمكانية: تمثُّلات الذاكرة الجمعية في العمارة الفلسطينية:

الذاكرة تحتاج الأماكن، وتميل الارتباطات المكانية إلى «أمكنة المعلومات» وتموضعها في المكان.[٢٠] الفعل الماضي يشير إلى الزمن، في حين يدل ظرف المكان هناك على الفضاء. ألـ«هُنا» والـ«هُناك» للفضاء المعاش، وكلمة سابقاً بالزمان المعاش للذاكرة؛ كلها تجد نفسها مترابطة ومتداخلة في نسق من الأماكن والتواريخ، ولم يتبقَ هنا والآن في التجربة الحية المطلقة.[٢١] في الواقع، من أجل أن نعطي زمن التاريخ مقابلًا فضائياً جديراً بعلم إنساني، علينا أن نعقلن الموضع، وننطلق من الفضاء الذي تشيده الهندسة المعمارية لبلوغ الأرض المأهولة الخاصة بالجغرافيا. ونجد أن خطاب الفضاء قد رسم هو كذلك مساراً أصبح معه الفضاء المعاش وقد ألغاه الفضاء الهندسي، ثم أعاد بناءه من جديد على المستوى الهندسي الضخم الخاص بالأرض المسكونة. ويتقابل الفضاء المعاش والفضاء الهندسي، والفضاء المأهول مع الزمان المعاش، والزمان الكوني، والزمان التاريخي. تقابل اللحظة النقدية لتحديد المكان في نظام الفضاء لحظة تعيين التاريخ في نظام الزمان.[٢٢] فتبعاً للمورفولوجيا الاجتماعية، يكمن تواجد الجماعات بمنطق بأنها تتحرك في المكان، ولها كيان معين، وأفراد، وجملة من العناصر التي تعتبر هي ذاتها أجساماً مترابطة[٢٣]

---

٢٠ أُسمن، ايان، مرجع سابق، ص٦٨.
٢١ ريكور، بول، مرجع سابق، ص ٢٢٥.
٢٢ المرجع السابق، ص ٢٢٨– ٢٣٤.
٢٣ هالبواكس، موريس، مرجع سابق، ص ٣٣.

مكونة لمنظومة كاملة غير منقطعة. إن المجتمع ينحصر في العالم المادي، ويوجد في فكر الجماعة في الصور التي تأتيه من هذه الظروف المكانية، وهذا هو مبدأ الانتظام والاستقرار، تماماً كما يحتاج الفكر الفردي لإدراك الكيان والحيز من أجل الحفاظ على توازنه.[٢٤] من رؤية المادي بصرياً في الفضاء، يدرس الناشف آلية توليد المعنى في التشكيلات الفلسطينية في «أن ما يحدد منطق عمل المعنى هو طبيعة ماديته الأولى، أي تلك المادة الذهنية من حيث هي لا-مادية بالمستوى الميتافيزيقي المباشر. فالذهن بما هو تشكيل اجتماعي تاريخي يعمل كوعاء/ كحلبة/ كبوتقة تصهر وتعيد إنتاج توليد ما يصلها من الواقع الحسي، ولكن بصهره هذا لا يفتأ الذهن العيني ذاته يتشكل من جديد. هذا التشكيل الذهني، بدوره، يشير إلى ما هو خارجه، وبإشارته هذه يبني ذهنيته التي تقف هي أساس منطق عمل المعنى بما هو آلية ذهنية محددة»،[٢٥] فمن أجل اكتمال حالة إنتاج عينية ما، تتزامن لحظة المادة المتشكلة مع لحظة المعنى في بوتقة واحدة قابلة للتداول الاجتماعي العيني.[٢٦]

هذا البحث يتجه نحو عنصر محدد من التشكيلات المادية في الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، وهو تشكيل العمارة بصرياً داخل المكان، وهنا يكمن الخلاف دائماً في دراسات العمارة الكلاسيكية؛ بأن العمار يختزل من خلال الوظائفية التي يقدمها، دون الإشارة إلى الدلالات والمعاني التي تشكل الأثر في الوعي داخل الفضاء الاجتماعي العام. يعرِّف ستين راسموسين العمارة بأنها فن وظيفي من نوع خاص، فهي تشكل الفراغ لتسمح لنا بالإقامة فيه، وهي ترسم الأطر التي تحيط بنا أيضاً. فإن الفرق إذن بين النحت والعمارة ليس هو اضطلاع الأول بأشكال أكثر عضوية، بينما الثانية أكثر تجريداً. فحتى أكثر القطع المنحوتة تجريداً التي تقتصر على أشكال هندسية بحتة، لا تكون عمارة، فهي تفتقر إلى العامل الحاسم: النفعية.[٢٧]

---

٢٤ المرجع السابق، ص ٣٤.

٢٥ الناشف، إسماعيل. معمارية الفقدان، سؤال الثقافة الفلسطينية المعاصرة، بيروت: الفارابي، ٢٠١٢، ص ١٩-٢٠.

٢٦ المرجع السابق، ص ٢١.

٢٧ راسموسين، ستين. الإحساس بالعمارة، ترجمة: عماد الكيالي، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٣، ص ١٥.

«ترجع «الوظيفية» عند عامة الناس إلى فكرة تعبير الشكل عن الوظيفة العملية. وسوف نتذكر هنا المثل السائد «الشكل يتبع الوظيفة» التي صاغها سوليفان (Sullivan)، صانع الأسلوب الحديث، وحكمة لوكوربوزييه (Corbusier) التي ليست أقل شهرة «بيت= آلة للسكن». المشكلة التي لا حل لها خارج إطار الأفلاطونية الجديدة - هي في معرفة الوظيفة الكافية للسكن، ما الذي سيكونه المدلول الوظيفي الثاني للعمارة؟ أوضح أننا لا نستطيع اختيار حاجات الحياة الخاصة فقط كما تقضي الاعتبارات السابقة - وإهمال الوظائف الجماعية، سوف نقترح، بدون أي ادعاء، أننا نستنفذ المسألة، مدلولاً وظيفياً بمظهرين، الأول خارجي، والثاني باطني، وسرعان ما سيبدو أن هذه المفاهيم الحيادية يمكن بسهولة أن تجتاحها إسقاطات أيديولوجية عديدة».[٢٨] يناقش ذلك ايكو في كتابه البنية الغائبة «سيميائية العمارة»، ولكن الإشكالية تكمن في المسلمة السابقة بأن الموضوع المعماري وظيفي بصورة جوهرية. فبحسب ايكو؛ يعد معمارياً «كل مشروع يغير الواقع، على مستوى ثلاثي الأبعاد، يهدف إلى إتاحة إنجاز وظائف ملحقة بالحياة الجماعية».[٢٩]

ولكن تشكلت دراسات تخرج عن هذا الإطار، وتعتبر العمارة أحد رموز الفضاء البصري التي تدرس سيميائياً بالدال والمدلول، كمجموعة مو التي طرحت العمارة بدلالاتها مرئية، في تكوينها لجو شعوري[٣٠]* عند المتلقي في الفضاء العام. فالمحيط المعمَّر لا تبلغ وظيفته البنائية في ظل تأمين ملجأ فحسب، بل تبلغ مدلولات كالمشاعر أو «الأجواء» تماماً كالموسيقى والرسم التجريدي.[٣١]

---

٢٨ مجموعة مو. بحث في العلامة المرئية، ترجمة: سمر سعد، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٢، ص ٥٥٨.

٢٩ المرجع السابق، ص ٥٤٩.

٣٠ المرجع السابق، ص ٥٦٧.

* للمزيد راجع مجموعة مو: جو شعوري: الشكل عمل فني صدى في ذات المتلقي الذي يدخل عالمه. ولكن هذا الصدى لا يمكن أن يوجد الا من خلال إدراك العلاقات الداخلية في هذا العمل. وهذا ما يسمى بـ» المقروئية» التي تحققها الأسلبة حين تتيح للمتلقي أن يفهم تركيب الشكل وتكوينه، كزح الألوان وتوزيعها في اللوحة، وانسياب الخطوط أو انكسارها في الرسم، وتعبيرية الخطوط المحيطة للكتلة في النحت، ووظيفة الأشكال الهندسية، كالمربع والدائرة، وتداخلاتها في العمارة... الخ. ذلك أن مدلول التشكيلات المحصلة نتيجة الأسلبة يعتمد -إلى حد كبير- على مشاركة المشاهد في تأويل العلاقة، ما يعني أن لكل إجراء فني أو تقني في العمل الفني أثراً في المشاهد.

٣١ مجموعة مو، مرجع سابق، ص ٥٥٠.

يرى ريكور (Ricœur) أن الفضاء الجسدي يرتبط مباشرةً بفضاء البيئة/ المكان، ومصير المكان بمصير الزمان، وبالتالي يتشكل مكان الذاكرة،[٣٢] فالذاكرة غالباً ما تأخذ في نشأتها شكلاً مكانياً يحتوي على كل من الفرد والمجتمع،[٣٣] إلا أن الشكل المعماري بهندسته الجديدة داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني قدم حرماناً من الذكرى، وبقي عقبة تحول دون نبش صمت الأموات بعكس ما يطرح أندرسون،[٣٤] وبالتالي أصبح الفاعل الفلسطيني غير قادر على تملك الذكرى وإحضار غائبيه، امتداداً إلى عدم قدرته على تملك الذات.[٣٥] وتبدو هنا أهمية الرمز والصورة البصرية المتلقاة المسجلة للحدث، وهذا يتفق مع ما يطرحه بيرين بأن ترسيخ الحدث، وبخاصة الحرب، يكمن في تحقيق المعنى من خلال الرموز المستخدمة في إعادة إنتاج الماضي، وقراءة قصة الحرب من خلال الرموز والنصب التي تجسد هوية الحدث.[٣٦]

وهذا ينسحب على الجماعات الفلسطينية وآلياتها في التعامل مع الحدث التاريخي الأول، إذ «أن الجماعة الفلسطينية تبدل موقفها من النكبة، ذلك الفقدان الأول. فتشير الإحداث التشكيلية الثقافية المختلفة إلى أن شكل عمل الجماعة الفلسطينية هو الذي يحدد الموقف من الفقدان، وأن الفقدان في ذاته لم يعد ذلك المقدس الجمعي، بمعنى اللحظة المطلقة لنشوء هذه الجماعة على مسرح التاريخ الحديث. تكرار الفقدان بأشكال تحويرية أدى إلى بهتان حدة وكثافة «الفقدان الأول»، وذلك عبر تراكم طبقات متعددة من أحداث فقدان أخرى. تدرجت هذه العمليات من التراكم إلى أن بلغت ذروتها في تشكيل القدرة على فقد «الفقدان الأول»، بسبب من «عدم» صلاحيته كآلية عمل تعبيرية في شكل الجماعة الجديدة».[٣٧]

---

٣٢ ريكور، بول، مرجع سابق، ص ٢٢٥.

٣٣ Svendsen .S, Living Memorials: Understanding the Social Meanings of Community-Based Memorials to September 11, 2001, SAGE Publications, 2010.

٣٤ أندرسون، بندكت. الجماعات المتخيلة «تأملات في أصل القومية وانتشارها»، ترجمة: ثائر ديب، بيروت: شركة قدمس للتوزيع والنشر، ٢٠٠٩، ص ١٨٢.

٣٥ ريكور، بول، مرجع سابق، ص ٣٣.

٣٦ Perrin, Stephen, The performance of remembering Semiology of war memorials,2006

٣٧ الناشف، إسماعيل، مرجع سابق، ص ٣٨١.

ومما يطرحه إسماعيل الناشف هنا عن فقدان الفقدان المتشكل عند الفلسطيني، يأتي الجزء القادم ليتتبع أحد أنواع هذا الفقدان في مواراة الموت داخل الفضاء المعماري الاجتماعي فلسطينياً.

تغييب الموت في الصورة داخل تشكيلات الفضاء المعماري الاجتماعي الفلسطيني:

تقوم تتبعات البحث هذا في آلية طرح الصورة داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، وبخاصة صورة العمار المنتقلة للفاعلين الفلسطينيين، ومدى التغيير المعماري في رمزية التواجد الصوري. ثقافة الصورة التي أصبحت أداة نحت للثقافة الفلسطينية المعاصرة، وصناعتها لأساسات الذكرى والذاكرة فيه.

إن استقدام الصورة من الفضاء يقوم على توضيح الأثر الذي يتم خلقه من خلال ميكانيزمات التموضع أو العزل، الذي تتعرض له خلال التحولات المجتمعية من وإلى الفضاء الاجتماعي، والذي يخلق للصورة ثقافةً بصريةً دلاليةً تنضح بالتفسيرات السوسيولوجية والسيميائية لمجتمع ما، وبخاصة للمجتمع الفلسطيني. إن ما يقصد بالثقافة البصرية هو امتلاك الميكانيزمات التي تشتغل وفقها الصورة من الناحية السيميائية، ولا يتم هذا طبعاً إلا بالاشتغال الدائم على البحث في كيفيات تدليل الصورة وإيحائيتها التي لا تنتهي. إن الصورة ليست معطى جاهزاً بريئاً، لكنها تحمل أوجهاً عديدة للمعنى، بإمكانها أن تقول في لحظة ما تعجز الآلاف من الألفاظ عن البوح به. تصبح الاستعادة في حياة الصورة كنوع من الاستعاضة عن اللغة. فالثقافة المرئية تصبح أداة لتوليد المعنى.[٣٨]

يرى دوبري (Debray) «أن ننظر ليس معناه التلقي؛ وإنما هي عملية ترتيب المرئي وتنظيم التجربة، فالصورة تمنح معناها من النظرة كما يمنح المكتوب معناه من القراءة، وهذا المعنى ليس تأملياً، وإنما هو معنى عملي، فنحن نتكلم في عالم ونبصر في عالم آخر. فالصورة رمزية غير أنها لا تملك الخصائص الدلالية للغة، إنها طفولة العلاقة. ولا يخفى أن هذه

٣٨ العابد، عبد المجيد. السيميائيات البصرية، قضايا العلامة والرسالة البصرية، دمشق: النايا للنشر والتوزيع، ٢٠١٣، ص٧٤-٧٥.

الأصالة تمنحها قدرة على الإيصال لا مثيل لها. فالصورة ذات أفضل دلالة لأنها أداة ربط. لكن بدون مجموعة بشرية متماسكة، تنتفي الحيوية الرمزية. إن خصوصية النظرة الحديثة تقف وراء فقر الدم الذي أصيب به عالم الصورة».[٣٩]

من العلاقات التي يرتكز البحث على دراستها في معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني المعاصر؛ هي علاقة نقل الصورة للموت من خلال الشكل المادي المعماري، وآلية النقل للفاعل من خلال مأسسة صور الفضاء العام في إعادة إعمار الإسمنت المرمز بالموت بعد الانتفاضة الثانية. ومن هنا سيتم تتبع المعرفة النظرية لرمزية الموت في المجتمعات، وصوره المخلدة عند الجماعة الأولى، وخلق الجماعات الجديدة، ووحدتها.

الموت عند باشلار (Bachelard) هو أولاً، وقبل كل شيء، صورة، وسيظل صورة.[٤٠] يمده عوناً دوبري بربط ولادة الصورة بالموت. لكن إذا كانت الصورة العتيقة تنبثق من القبور، فذلك رفض منها لك، كلما انحنى الموت من الحياة الاجتماعية، غدت الصورة أقل حيوية، وغدت معها حاجتنا للصورة أقل مصيرية.[٤١]

ويكمل دوبري مستذكراً أن «مجتمعاتنا، إلى يومنا هذا، كانت واقعياً مكونة من الأموات أكثر من الأحياء. فخلال آلاف السنين ظل الماضي والغور في الزمن طافحاً ومهدداً الحقل البصري، وظل المختفي يمنح للظاهر قيمته. فقد كان القريب والمرئي في نظر أسلافنا أرخبيلاً من بحر اللامرئي الذي له كاشفوه وتكهناته التي تصلح لتمثيله؛ ذلك أن اللامرئي، أو ما بعد الطبيعة، كان مجالاً للخارق (فهو المكان الذي تأتي منه الأشياء وإليه تعود). لذا، كان من مصلحة الإنسان التصالح مع اللامرئي بجعله مرئياً. والتفاوض معه وتمثيله وتشخيصه. أما الصورة، فإنها تشكل هنا لا الرهان، وإنما عماد التبادل والمقايضة في هذا التعامل الدائم بين الرائي واللامرئي».[٤٢] يصبح الموت في أوجهه المرئية صورةً

٣٩ دوبري، ريجيس. حياة الصورة وموتها، ترجمة: فريد الزاهي، الدار البيضاء: أفريقيا للشرق، ٢٠١٣، ص ٣٣-٣٥.

٤٠ المرجع السابق، ص ٢٠.

٤١ المرجع السابق، ص ١٥.

٤٢ المرجع السابق، ص ٢٥.

لسلام التصالح مع الحياة، فموت الموت سيخصص للمخيلة العذبة الضربة القاضية.[٤٣]

يقوم الإنسان المعاصر بإخفاء الاحتضار في المستشفى، والرماد في مستودع؛ رماد الموتى، ويواري الفظائع تحت الضوء الاصطناعي ومساحيق الجنازة الشخصية، فإنه بذلك يضعف حاسته السادسة اتجاه اللامرئي ومعها الحواس الخمس الأخرى؛ ذلك أنه حين لا يعود يرى اللامحتمل، فإنه يضعف الجاذبية الغامضة للظل ومعها ضده، أي قيمة شعاع نور. ويبدأ بترويض الواقع من خلال نمذجته النظرية والتقنية، ومن غير إضرار بعصبيات شبكية العين، يجعل من استعمالها أقل ملحاحية وضرورة. فإذا ما نحن تجردنا من «الأشياء في ذاتها»، فإننا لن ننتظر سوى تخدير حواسنا. نهاية البعث واختزال الموت في الحادثة، ذبول ما نراه من مرح، ذلك هو ما سيكون غداً تتابع المخاطر. ومما سبق، يقدم دوبري التساؤل والإجابة؛ ماذا سيتبقى للنظرة التي تتمتع بحماية مبالغ فيها، حين يغيب الهيكل العظمي، والعفن والمقزز والظليل من الأنف الصحي اليومي؟[٤٤] طارحاً إجابته بأنها ستحدث «الكآبة المجعدة للمرئي».

تنطلق تساؤلات البحث على المعمار الفلسطيني اليوم من تساؤلات دوبري على المرئي واللامرئي للموت، من صورة موت الإنسان في جدار المقاطعات، والمخيمات، إلى مراكز المدن الرئيسية في بلداتها القديمة كنابلس. وعليه، هل يبقى الخلود الوطني الفلسطيني ضمن حدود المرئي الذي يطرحه دوبري، أم أنه يحاول التجاوز خالقاً اللاحدود بين المرئي واللامرئي للموت؟

نأخذ على ما سبق وصف البرغوثي لثقافة الموت فلسطينياً: «شرد ذهني إلى ثقافة الموتى عندنا في فلسطين. قلت له: «كثيرون في فلسطين ماتوا شنقاً أو ذبحاً أو سماً أو بقصفٍ أو بطرق أخرى، ومن ظل منا حياً؛ تزوره الأجسام الذهنية لموتاه، وتشاركه في عشائه، وتقعد له في المقلاة. أنا يزورني شبح أبي، وأخي، وصديق استحم قبل سنين وتعطر ومشط شعره ليلاً، وفي الصباح ذهب إلى مظاهرة ضد الاحتلال الإسرائيلي وقتل. ارتعبت؛ ليس من موته، بل من كونه كان يحضر نفسه للموت. تزورني

٤٣ المرجع السابق، ص ٢٧.
٤٤ المرجع السابق، ص ٢٧-٢٨

أرواحهم، وقد صارت عظامهم مكاحل، في بلد يسيطر فيه الموتى على الأحياء، والماضي على المستقبل. هذه هي سلطة الذاكرة».[٤٥] من فردانية وصف البرغوثي إلى جمعية الذاكرة الفلسطينية عن الموت، يستنير البرغوثي في نهايتها إلى التحول السياساتي الذي يحصل على ذكرى الموتى جمعاً، وما هو مشهد الموت الجديد في العين الفلسطينية في عصر السياسات المشهدية التي يصبح نضال الفلسطينيين فيها هو العثور على النطاق الضيق الفاصل بين الانكشاف في وجه مكائد الصهيونية، وبين ممارسة نضالهم أمام جمهور متعاطف ومستعد ليرى ويميز،[٤٦] وهو ما سيتم تناوله في الأجزاء التالية.

فبعد إبعاد الصورة القاتمة للموت، يتم التأسيس لخطاب المواراة في صنع متاهات للذاكرة داخل الزمان والمكان، بفعل خطاب المؤسسة الرسمية، وهو ما طرحه بيير نورا بمفهوم «مكان الذاكرة»، الذي سيتم تفصيله نظرياً في الجزء التالي.

المؤسسة تستعيض عن الموت بمكان للذاكرة فلسطينياً:

ما حدث في فلسطين بعد الانتفاضة الثانية، من هدم واختراق للعمار من قبل المستعمر الصهيوني في المدن والمخيمات؛ جعل من الفضاء المعماري العام مادةً مليئة بأصوات ذكرى الحرب، وأصوات موت الجسد المطالب للحرية. بالتالي، مجموع الهدم الذي كان على مرأى من الفاعلين الاجتماعيين الفلسطينيين، كان هو الصورة بكامل دلالتها ومدلولاتها، التي تشير إلى الواقع الاستعماري المعاش يومياً. إن آليات التلقي في هذا الفضاء، كانت تعيد إنتاج الحرب صورياً بشكل مباشر، في مرحلة التصادم مع بقايا الهدم. ولكن؛ تكمن الإشكالية في البحث، وكما ذكرنا قبلاً، في خلق أدوات تلقٍ جديدة دون الحاجة للتصادم المباشر داخل الفضاء العام. وهو ما تدعي الباحثة أنه حدث في فلسطين بعد عمليات إعادة الإعمار للمقاطعات والمخيمات، والمدن. وبالتالي، نصل إلى تشكيل المنظّر الفرنسي

---

٤٥ البرغوثي، حسين، مرجع سابق، ص ٥٥.

٤٦ الخالدي، محمد. تجليات الهوية، الواقع المعاش للاجئين الفلسطينيين في لبنان، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠١٠، ص ١٦٠.

بيـير نـورا (Nora) لمفهـوم «أماكـن الذاكـرة» (Les lieux de mémoire)، وهـو المفهـوم الـذي سيتم إسـقاط تفسـير الواقـع المعـماري في الفضـاء العـام الفلسـطيني عليـه، لأنـه يمثـل مختلـف السياسـات التـي تـم اسـتخدامها في إعـادة الإعـمار، وخلـق الذكـرى فلسـطينياً.

قبـل الوصـول إلى مفهـوم بيـير نـورا، تـشرح لنـا سـوزان سـليموفتش في كتابهـا (the object meaning) كيـف يمكـن إعـادة بنـاء مـكان تـم هدمـه، والاسـتيلاء عليـه مـن قبـل آخريـن بالكلـمات. فهـي تهـتم بالأماكـن الخاصـة والرمزيـة التـي تسـتقر فيهـا الذاكـرة، فتمـزج في نصـوص الكتـاب التجـارب المعماريـة للبيـوت الحجريـة الفلسـطينية مـع الروايـات الشـفوية التـي تـروي ذكريـات مـن عاشـوا في هـذه البيـوت، والتـي تشـكل جـزءاً مـن الذاكـرة الجماعيـة الفلسـطينية لتجربـة الاقتـلاع والتهجـير.[٤٧] ومـن ذلـك، يـرى دوركهايـم أن كل مجتمـع يحتـاج إلى أن يشـعر باسـتمرارية المـاضي، وبـأن هـذا المـاضي هـو الـذي يمنـح الأفـراد والجماعـات هويتهـم. تسـمح لنـا الفكـرة السـابقة برؤيـة الذاكـرة الجماعيـة كأحـد الإشـكال المهمـة للحيـاة الاجتماعيـة.[٤٨] إن هـدم المـكان وضياعـه لا بـد أن يـترك آثـاراً هدامـة عـلى التاريـخ وعـلى الذاكـرة والهويـة بصيغتهـما الفرديـة والجماعيـة.[٤٩]

يقـارن بيـير نـورا بـين التاريـخ المصطنـع، كـما يسـميه، والذاكـرة الحقيقـة، ليجـادل بـأن الذاكـرة بطبيعتهـا حيـة، بينـما التاريـخ لا يخضـع فقـط للبنـاء، وإنـما لإعـادة البنـاء. وهـو يـرى، وبصـورة حـادة، أن هنـاك عمليـة قطـع تنشـأ بـين الذكـرى والتاريـخ، بـل يـرى أن هنـاك فقدانـاً لتاريـخ الذكـرى، وأن الذكـرى الجديـدة هـي التـي أصبحـت تنتـج التاريـخ الحـاضر.[٥٠] وخـلال دراسـته للهويـة الجماعيـة الفرنسـية، يقـترح نـورا مفهـوم «أماكـن الذاكـرة»؛ التـي يشـير بهـا إلى أي كينونـة أو وجـود مميـز، بغـض النظـر إن كان ماديـاً أو رمزيـاً، والـذي سـاهم التدخـل البـشري أو مـرور الزمـن في تحويلـه إلى أحـد الرمـوز التـي تشـكل الذاكـرة التراثيـة لمجتمـع مـا.[٥١]

---

٤٧ نقـلًا عـن عـدوان لـورا، صـورة فلسـطين في روايـات اللاجئـين الفلسـطينيين، دراسـة مقارنـة بـين مخيـم قلنديـا في فلسـطين، ومخيـم اليرمـوك في سـوريا، رسـالة ماجسـتير غـير منشـورة، جامعـة بيرزيـت، رام الله، ٢٠٠٩، ٣٥.

٤٨ عدوان، لورا، مرجع سابق، ص ٣٦.

٤٩ المرجع السابق، ص ٤٠.

٥٠ ريكور، بول، مرجع سابق، ص ٥٨٨.

٥١ عدوان، لورا، مرجع سابق، ص ٣٧.

وتبعاً لبيير نورا، فإن المجتمع العصري يشهد انتقالية ذات وتيرة متسارعة، بدأت فيها معظم إن لم نقل كل أشكال الارتباط بالماضي والمؤسسة في آن واحد للهوية الجمعية في الاضمحلال التدريجي، لتحل محلها أماكن الذاكرة، ما يجعل من «أماكن الذاكرة» هي البديل الحسي والاصطناعي لذاكرة جمعية فرنسية لم تعد موجودة الآن. يعزي نورا تكثف الذاكرة بشكل مستمر في أحاديثنا اليومية إلى غيابها المادي، عن حياتنا؛ بعد أن تم تذويب الذاكرة في السرديات الكبرى للتاريخ. وكما جاءت السرديات الرسمية للتاريخ لتحل محل التقاليد والأعراف والخبرة المعاشة للأحداث، جاءت أماكن الذاكرة لتكثف ذكريات أحداث مضت حول النصب التذكارية والأعمال الفنية والكتب التاريخية وأيام الذكرى السنوية، فتحل محل العوالم الحقيقية التي عايش فيها الناس الأحداث الماضية. فتشعر بحد تعبير نورا، وكأن أماكن الذاكرة جاءت لتقول باستحالة وجود الذاكرة بشكلها الطبيعي العفوي.[٥٢]

ومن بعد أن تتحقق وتتحول الرابطة المعنوية الراغبة في تحقيق السيادة إلى مؤسسات تجسدها، متميزة ومغتربة عن الأفراد ورغباتهم، يأخذ محيط الذاكرة بالانحسار، وتأخذ الحاجة إلى أماكن الذاكرة بالتزايد: النصب التذكاري، مواقع المعارك من هزائم وانتصارات، المتحف كبيت للذاكرة، وتتم فيها محاولة استعادة العلاقة مع الأمة، كأنها علاقة مع أشياء محسوسة وملموسة ومعروضة، وبخاصة بعد أن تجردت العلاقة وزالت الذاكرة كممارسة طقسية، وأصبحت تستعاد في ممارسة واعية للطقوس من ممارسة طقسية بطبيعتها إلى طقس ممارس.[٥٣] فالذاكرة قائمة في ثبات المكان، أما التاريخ فيحاول أن يثبت شيئاً في تقلب الزمان. إن الذاكرة الحية تتمرد على التاريخ لأنها تشعر بأنه مؤامرة عليها.[٥٤] تقوم المؤسسة هنا بممارسة «التطهير البصري عند دوبري؛ لتفسخ الأجسام شكلان: بالرطوبة والجفاف، وبالتمييع أو الإحراق. بيد أن أفظع شيء يمكن أن يراه الإنسان هو القذارة والأشياء الهلامية، أي تلك الكتلة المتعفنة المشوهة. إنها الدنس الذي لا يمكن إصلاحه. فالصورة المادية، باعتبارها النظير المضعف، تحميني من تلك الفظاعة ومن المشهد الصاعق للتعفن، يقوم الحجر بإخفاء المتعفن بالصلابة، ويتسامى عن الحقارة بالرخام

٥٢ المرجع السابق، ص ٣٧-٣٨.
٥٣ بشارة، عزمي، مرجع سابق، ص ٤٦.
٥٤ المرجع السابق، ص ٤٧.

والحجر الزجاجي. أما النصب، فانه يهذب الشر بحضوره المشهدي، إن هذا هو ما يعنيه مفهوم التطهير البصري.[٥٥]

السؤال الآن هل تحمل معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني مفاهيم مواطن الذاكرة والتطهير البصري؟ تبدأ الإجابة في القسم التالي من تفكيك بنية الخطاب الاستعماري وتجلياته في العمارة، داخل مشهد الجدران لعملية إعادة الإعمار بعد الانتفاضة الثانية.

إعادة إنتاج العلاقات السلطوية من خلال العمار، «خطاب العمارة الاستعمارية»:

تناولت العديد من الدراسات إنتاجات العمارة والعمران وتداخلها الاجتماعي المتغير والمختلف، ودلالاتها وتمثلاتها تبعاً لمحددات المعرفة والتقنية والسلطة، ومنها أن تناولت دراسة الخلاق محددات تاريخية، وبخاصة كولونيالية معمارية، أثرت على الهوية المعمارية المحلية، ومنها الطرز الأوروبية التي حملها المصممون الأوروبيون، والنظريات التصميمية التي أبرزت العلاقة الثابتة بين المجتمع والعمارة، والاهتمام الخاص بتوجهات المصممين العرب الذين أنتجوا -على حد تعبيرها- طرازاً معرّباً، لم يغب فيه هاجس الهوية، وارتباطها بجذرها الثقافي التراثي، ليخلقوا تواصلاً بين المعاصرة والتاريخ، في تتبع معماري وعمراني للمشرق والمغرب العربي الذي كان يخضع للاستعمار الفرنسي.[٥٦] وفي سياق فلسطيني، تشير دراسة حلس إلى الأبعاد السياسية للعمارة الفلسطينية في ظل السياسات الإسرائيلية التي تعمد إلى تشويه الذاكرة الفلسطينية وتزييفها وشطبها، وإبراز أهمية الموروث المعماري في الدفاع عن ترسيخ بنية ذاكرة المكان، ومنع تطاير الهوية، حيث أن ما تعمد إليه السياسات الإسرائيلية يكمن في إعادة صياغة المكان الفلسطيني، وتفريغه من رموزه الحضارية، واستبدالها برموز توراتية تهدف إلى تأكيد مزاعم العمق التاريخي المشرعن للدولة الإسرائيلية.[٥٧]

---

٥٥ دوبري، ريجيس، مرجع سابق، ص ٢٣.

٥٦ الخلاق، ندى. «الكولونيالي في الشخصية المحلية في العمارة والعمران»، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية، مجلد ٢٨، ع١، ٢٠١٢.

٥٧ حلس عاهد. الدور السياسي للعمارة في إطار الصراع الفلسطيني الإسرائيلي، غزة: جامعة الأقصى، ٢٠١٠.

ما يجري على الفضاء المعاش، والفضاء المعماري، والفضاء العام في فلسطين؛ هو محاولات الفرض لهندسة المكان سلطوياً، وإعادة إنتاج الهيمنة الاستعمارية، بحيث تتخلل التفاصيل التصميمية، من أجل فرض الرقابة على الإنسان الفلسطيني؛ سواء من قبل النظام الفلسطيني الأوسلوي، أو من قبل الاستعمار الصهيوني في الشوارع والحواجز والمستعمرات.

فحسب دراسة اليساندرو بيتي (Petti) لـ«كاستيلز» لرؤيته بأن المدن يجري وضع بنيتها وتفكيكها، في وقت واحد، بواسطة نوعين متنافسين من المنطق: من جهة، منطق فضاء التدفقات (الذي يصل بين الأماكن الفردية ضمن شبكة تربط الناس والأنشطة في مواقع جغرافية متباعدة)، ومن جهة أخرى منطق فضاء المكان (التجارب والأنشطة ضمن مجال المنطقة القريبة). ويرى كاستيلز أن فضاءات المكان تعتبر شيئاً فائضاً وزائداً في تنظيم فضاء التدفقات والسلطة.[٥٨] ويتم هذا البناء والتفكيك تبعاً لمبدأ الرقابة والتأديب الذي ينتج العلاقات السلطوية داخل العالم الاجتماعي الكامل. فالتأديب يمنح الفضاء شكلاً بنيوياً، ويعتبر التوزيع الهرمي والوظيفي للعناصر مشكلة جوهرية: وهنا يتبادر إلى ذهني كيفية توزع أبراج الحراسة والمعسكرات الإسرائيلية في تصميم مخطط سجن ما، فهي موزعة بحيث تسمح بالمراقبة، حتى لو لم يكن هناك من يراقب ويحرس في الأبراج، لأن كل ما هو مطلوب للتأثير في سلوك الأشخاص هو وجود الآلية.[٥٩] «حين تتغلب الأسلحة والأدوات التقنية على الذعر تدريجياً، وتغدو القدرات الإنسانية على التخفيف من الآلام، وتكييف مواد العالم، والتمكن من عمليات تصويرها، قادرة على تجاوز الذعر أمام الكون وقوته، آنذاك نمر من الصنم الديني إلى الصورة الفنية، أي إلى نقطة التوازن في المحدودية الإنسانية».[٦٠]

تحدث عمليات إعادة الإعمار للمقاطعات الفلسطينية بصورة تنقل نوعاً من الخطاب الدولاتي ممثلاً «للسيادة»، ولمفهوم السلطة، وذلك من خلال خصائص ضابطة للعمار ومنقولة للجسد المُبصر في الفضاء الاجتماعي

---

٥٨ بيتي، أليساندرو وآخرون. حالة الاستثناء والمقاومة في الوطن العربي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٠، ص ٥٣.

٥٩ المرجع السابق، ص ٧٤.

٦٠ دوبري، ريجيس، مرجع سابق، ص ٢٨.

للفلسطينيين، بحيث يولد العار خطاب تملك السيطرة والقوة لدى المستعمَرين، دون الوعي بأنها إعادة إنتاج لتصوراتنا للغالب، فيصبحون مقلدين وحسب، يتبعون عصرنة وحضارة، نقلت العقول إلى العيون،[٦١] وتنقل معها فكرة «السلطة الوهمية» التي يناقشها إدوارد سعيد في كتاب **الثقافة والمقاومة**؛ وهي تكمن في أن «هناك نوعاً من الخصيصة القابلة للتكرار في ذلك، وهي خصيصة تأتي من تاريخ الاستعمار في القرن التاسع عشر، على غرار ما فعله الفرنسيون بالجزائر حيث كانوا يجدون مناطق يمكن وضع السكان المحليين الراغبين في المعرفة في قراهم تحت إمرة رؤسائهم المحليين. وقد فعل البريطانيون ذلك في غرب أفريقيا فيما يسمى» الحكم غير المباشر»، حيث كانوا يعثرون على بعض الأهالي المحليين ليقوموا بدورهم بحكم مواطنيهم الجامحين وصعبي المراس، بينما تظل أنت بوصفك قوة احتلال محتفظاً بالسلطة الحقيقية. وفي جنوب أفريقيا كانت الفكرة أن يوضع السود في مخيمات، حيث يمكن لهم أن يحصلوا على خصائص السلطة، لكن دونما امتيازات سلطة حقيقية، فهم لم يكونوا يسيطرون على الأرض ولا على المياه، بينما يسيطر البيض على المداخل والمخارج، وهذا بالضبط هو النموذج الجاري تطبيقه هنا؛ فالمناطق الفلسطينية، التي هي صغيرة ومقسمة إلى مراكز للسكان الفلسطينيين، إنما تكافئ تلك المخيمات، حيث يجري توليد انطباع لدى شخص ما مثل عرفات، أو أنه يخلق لنفسه الانطباع بأنه هو القائد، لكن الخيوط الحقيقية يتم تحريكها من خلفية المشهد بأصابع المحتل الاستعماري».[٦٢] ما أجراه إدوارد سعيد على فكرة خطوط السلطة الوهمية، هو ذاته إحدى ركائز الصراع الفكري في البلاد المستعمرة عند مالك بن نبي، الخطاب الاستعماري الذي يتغلغل في فكر المستعمَرين في وهم من يتحكم ومن يضبط، ويشبهه مالك بن نبي بالألعاب الإسبانية؛ يهجم فيها الثور المستعمَر على الرداء الأحمر دون وعي بأن الرداء الأحمر لن يتواجد دون المصارع الذي يحمله، هنا تنتقل المعركة مع الاستعمار في خلو عن الوعي بمجريات خلفية المسرحية، فالاستعمار يبتدع أشكالاً مختلفة لمحي معركة الأفكار، ويسلط الضوء على

---

٦١ شريعتي، علي، العودة إلى الذات، ترجمة: إبراهيم الدسوقي، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٦، ص ١٤٢-١٤٣.

٦٢ سعيد، إدوارد. الثقافة والمقاومة، حاوره دايفيد بارساميان، ترجمة: علاء أبو زينة، بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٦، ص ٤٩.

ركن معين من المسرح، أي على النقطة التي يريد لها أن تظهر، من أجل امتصاصالقوى الواعية في البلاد المستعمرة حتى لا تتعلق بفكرة مجرّدة عن طريق تعبئتها لحساب فكرة متجسدة، يستطيع النيل منها سواء بالقوة أو الإغراء، وهو في الوقت نفسه يعمل على حربه ضد الفكرة المجردة عبر متخصصين استعماريين على دراية تامة لخارطة البلاد النفسية، وحول هذه الأفكار المجردة وطرق الاستعمار في مواجهتها وحربها، تدور كل فصول المسرحية.[٦٣]

ترسم المقاطعات مع أسوار عالية لا يستطيع المار أن يرى الداخل، ظاناً أنه غير مرئي، ولكن الخارج صورة تكون مكشوفةً للداخل، وتشرف على الفضاء الخارجي، لتتيح رقابة متكاملة ومفصلة، بحيث تبدأ بمراقبة الأفراد والسيطرة على سلوكهم، وتوصيل آثار السلطة إليهم، فالحجارة تستطيع أن تطوع وأن تعرف. حققت الهندسة المعمارية حرصاً لامتناهٍ على المراقبة، فيتأتى لنا منها وفيها إتاحة كاملة تسمح للجهاز الانضباطي بنظرة واحدة رؤية كل شيء باستمرار، كعين كاملة، لا يفوتها شيء ومركز نحوه تتجه الأنظار.[٦٤]

مما سبق، لا نستطيع التوقف عند تفكيك الخطاب الاستعماري وإعادة إنتاجه داخل العمار المعاد إعماره، دون نقاش البنية الاقتصادية التابعة لكل ذلك، التي تشكلت من التمويل والمنظمات الدولية التي تقدم المساعدات لإعادة الإعمار تحت اسم التنمية، والنهوض بأحد المجتمعات النامية كفلسطين. بالتالي، سيتم توضيح ما يحمله التمويل من سياسات، وما يخفيه من سياسات أضحت ترسم معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، كل ذلك سيناقشه هذا التنافذ النظري في الجزء القادم.

---

٦٣ بن نبي، مالك. الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٩، ص ١٤-٣٦.

٦٤ فوكو، ميشيل. المراقبة والمعاقبة، ولادة السجن، ترجمة: علي مقلد، بيروت: مركز الإنماء القومي، ١٩٩٠، ص ١٨٧-١٨٩.

مقاطعة طولكرم بعد إعادة الإعمار ٢٠١٤ [٦٥]

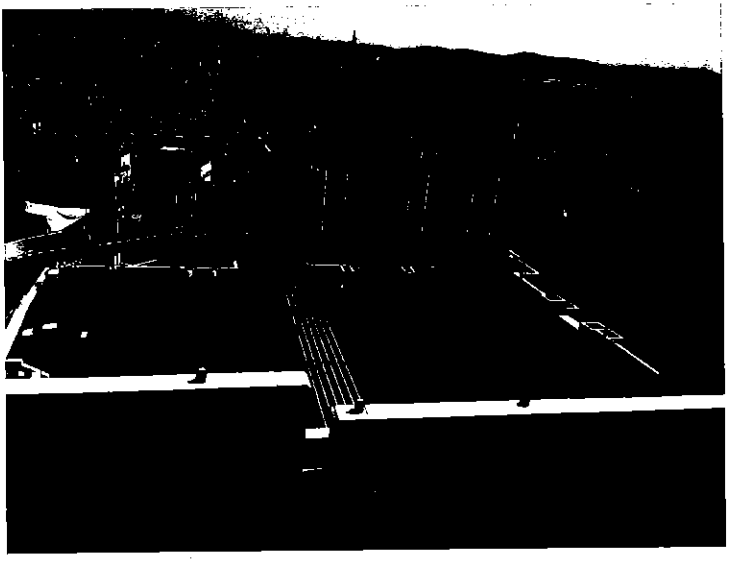

العولمة تضم العمار فلسطينياً في تمويل عابر للحدود:

بقيمة فاقت ١٩ مليون شيقل

د. اشتية يوقع اتفاقيتين مع شركتي مقاولات محليتين لإعادة بناء مقر مقاطعة نابلس

رام الله- الحياة الجديدة - وقع د. محمد اشتية رئيس الأشغال العامة والإسكان على اتفاقيتين لإنجاز المرحلة الثالثة من مشروع إنشاء مقر مقاطعة نابلس، بكلفة ١٩ مليون و ٣٧٣ ألف شيقل، وبتمويل من الاتحاد الأوروبي.

وتشمل المرحلة الثالثة من المشروع الذي من المتوقع أن ينتهي عام ٢٠١٢، تشييد مبانٍ، وما مبنى الشرطة و مبنى مراكز الإصلاح و التأديل.

وأكد اشتية على أهمية بناء المقاطعات التي شهد مبانيها سيطرة و تدمير، مؤكدا أن المشروع ضمن خطة الحكومة لإعادة بناء مقار هذه المقاطعات التي دمرها الاحتلال في مخالفات فاضحة، على اختيار قرنيا رمز من رموز الصمود والنضال. د. اشتية، مضمن الذكر إلى أن المشروع يأتي الأهمية كونه يسهم في التخفيف لأثقال الحواجز للمنطقة و مؤسساتها الأمنية، على حافظ النظام والقانون في ظل سلطة القانون، لما لها من أهمية في حياة المواطنين، و تأثير على الانتشار الأمني الوقائي و للطابرات العامة والشرطة و مراكز الإصلاح والتأهيل و عدد من المباني العامة الأخرى.

وتبلغ مساحة الأرض المقرر إقامة المشروع عليها ١٨,٩٦٦ م٢، بينما تبلغ المساحة الكلية للمباني ١١,٣٨١ م٢.

وكانت الوزارة وقعت أوائل الشهر الماضي الاتفاقية المتعلقة بالمرحلة الثانية من المشروع والتي شملت تشييد مبنى و وزارة الداخلية و المحافظة و الأمن الوطني ومبان عامة في المقاطعة بكلفة بلغت ٢٢ مليون و ٩٠٠ ألف شيقل.

كما أن المرحلة الأولى من المشروع شملت أعمال المغريات وإنشاء ٢٦ أسوار الشارع عبية و الممرات الاستنادية والبنى التحتية الأساسية في الموقع بكلفة ١,١ مليون دولار.

وعلمت وزارة الأشغال العامة و الإسكان قد طرحت عطاء تصميم وإعداد وثائق المناقصات لبرج مكاتب بالقرب من شارع الإكليريكية في نابلس، وهي مقاطعات جنين و طولكرم وأريحا و بيت لحم والخليل.

الأقصى».

وأكد أن تصميم المشروع يعكس تعدديته وتنوعه، وهي: النظام والقانون وضيافة والأمن و خدمة المواطنين، حيث تم تصميم المباني معمارياً بشكل يتناسب مع طبيعة المشروع، حيث صممت المباني بشكل حكوم لأعمال نظرا لأنها ديوان أمنية.

كما تم وضع نظام ميكانيكي حديث يعتمد على إنشاء الكهرباء بحيث الحديقة والطاقة الشمسية في البناء.

ويحتوي مبنى الشرطة على واجهات حجرية، وتبلغ مساحته الإجمالية ١٧٨١ م٢، ويتكون من طابق تحتي وثلاثة طوابق أخرى، بمساحة طابقية تبلغ ٤٢٠ م٢.

أما مبنى مركز الإصلاح والتأديل فيتكون من طابق تحتي وثلاثة طوابق بمساحة إجمالية تبلغ ٦٥٠٠ م٢.

وتشمل المباني التي أنشأتها ضمن مقاطعة نابلس، مبنى وزارة الداخلية و مقر المحافظة و مبنى الأمن الوطني و مبنى

٦٥ صورة من إحدى المهندسات المشاركات في العمل على إعادة إعمار مقاطعة طولكرم.

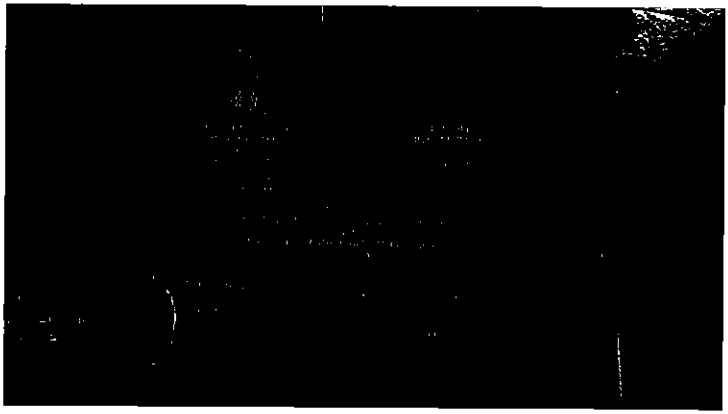

هـذا البحـث يأخـذ إضـاءة متركـزة مـن بـين كل المقاربـات النظريـة التـي تخص المجتمـع المـدني بمفهومـه، وتنوعـه، وعلاقتـه مـع المجتمـع والدولـة، وتقسـيماته، إلى الجـزء الخـاص المتعلـق بالتمويـل الـذي يـأتي مـن المنظـمات العابـرة للحـدود، وتشـبيكها مـع منظـمات غـير حكوميـة فلسـطينية، في إنتاجهـا لسـلطة جديـدة داخـل زوايـا الحالـة الاسـتعمارية. ومـا يرسـم عـلى وعـي الفلسـطيني في الفضـاء المعـماري في أجنـدة تمويـل إعـادة الإعـمار للمقاطعـات أو المخيـمات التـي كانـت باسـم منظـمات غـير حكوميـة عابـرة للـدول، وقامـت بإعـادة إعـمار بعـض النـماذج البحثيـة في هـذه الدراسـة «المقاطعـات، والمخيـمات». بالتـالي رسـم لدينـا محـوران؛ التمويـل المتبـوع بالاقتصـاد العالمـي وتأثـيره في عمليـة الضـم والانفصـال العالمـي، وهيمنـة ثقافـة اسـتبطانية تتجـلى مـن خـلال المحـور الأول السـابق الذكـر، عـلى الفلسـطيني في فضائـه الاجتماعـي.

بدايـة سـنلجأ لقـراءات عزمـي بشـارة عـن غرامـشي والمجتمـع المـدني، وبالتحديـد قراءاتـه عـن علاقـة المجتمـع المـدني الأولى بالاقتصـاد، ورسـم شروط الهيمنـة مـن خـلال تنقـل رأس المـال في السياسـات، وذلـك مـن تتبـع تسـاؤل غرامـشي «كيـف بالإمـكان تحقيـق هيمنـة ثقافيـة لأفـكار العدالـة الاجتماعيـة الجديـدة عـلى المجتمـع، مـن دون سـيطرة اقتصاديـة أو سياسـية عليـه بواسـطة رأس المـال أو بواسـطة الدولـة؟»، هنـا تـبرز أهميـة مفهـوم المجتمـع المـدني عنـد غرامـشي المرتبـط ارتباطاً مباشراً بمفهـوم الهيمنـة مقابـل السـيطرة. هنالـك حيـز اجتماعـي تطـور في ظـل الرأسـمالية هـو سـاحة الهيمنـة الثقافيـة عـلى المجتمـع.

وهـذا الحيـز ليـس حيـز الاقتصـاد. هـو جـزء مـن المبنـى الفوقـي، ولكنـه ليـس حيـز الدولـة.[٦٦] وفي خضـم المجتمـع المـدني تتـم الصراعـات السياسـية، وتتخـذ هنـاك شـكلاً ثقافيـاً. «ليـس المجتمـع المـدني هنـا تلـك القاعـدة الماديـة للدولـة التـي تحددهـا، ولا هـي حيـز السـوق الـذي تجـري فيـه التعاقـدات الاقتصاديـة المتبادلـة بـين المالكـين. المجتمـع المـدني هنـا هـو، بالمفاهيـم الماركسـية، مبنـى فوقـي، وهـو المبنـى الفوقـي الـذي لا تتـم فيـه مجـرد انعكاسـات للـصراع الاقتصـادي، بـل إنـه المجـال الحاسـم نحـو تأجيـج الـصراع الاقتصـادي وحسـمه. وبمعنـى مـا، فإنـه بالنسـبة إلى الوعـي الإنسـاني، المبنـى الفوقـي الـذي يشـكل المجـال الحقيقـي والحاسـم، واسـتغلال النـاس الاقتصـادي ليـس ذا قيمـة إذا لم يخـترق وعـي النـاس وثقافتهـم، وإذا لم يقتنـع النـاس بـضرورة مقاومتـه، وإذا لم يحركهـم البديـل للنظـام الاجتماعـي الرأسـمالي القائـم».[٦٧]

يوضـح بشـارة أن مـا يـراه غرامـشي في فكـرة المجتمـع المـدني هـو، كونـه وسـائل تتحـول فيهـا الفلسـفة إلى ثقافـة، أي إلى سياسـة، أي إلى ممارسـة.[٦٨] وكذلـك اعتقد غرامـشي أن الدولـة (السـيطرة) منفصلـة عـن المجتمـع المـدني (الهيمنـة) منطلقـاً مـن تحليـلات كروتـشي. وقـد تسـتخدم الدولـة هـذا القـدر أو ذاك مـن العنـف الـضروري دائـماً مـن حيـث الجوهـر، والخاطـئ دائـماً مـن حيـث المظهـر؛ والحكم عـلى أخلاقيـة العنـف هـو التاريـخ. ولكـن قـصر مهمـة الدولـة عـلى اسـتخدام العنـف يعمـي عـن رؤيـة مهماتهـا الأخـرى المسـتوردة باحتـكار العنـف، مثـل الحفـاظ عـلى حقـوق الأفـراد وحرياتهـم، ضـد تجـاوزات الآخريـن، أو لتنظيـم الحـوار والتنافـس السـياسي والـصراع بـين الأحـزاب والجماعـات والفئـات الاجتماعيـة المختلفـة. لم يـرَ غرامـشي كل ذلـك، أو رآه واعتـبره مظهـراً لسـيطرة البرجوازيـة؛ فقـد كانـت الديمقراطيـة البرلمانيـة تعيـش أعنـف أزمـة تعصـف بهـا.[٦٩] ربـط غرامـشي بـين المجتمـع المـدني والاقتصـاد، وفصـل بـين اقتصـاده واقتصـاد الدولـة. كـما ميـز بـين سـلطة الدولـة وهيمنـة المجتمـع المـدني، واعتـبر أن الجـزء المـادي في الثـاني سيشـكل ممارسـة لتشـكل الوعـي ضـد سـلطة الدولـة. واعتـبر بشـارة أن غرامـشي قـد خفـي عليـه «مهـمات الدولـة الأخـرى خـارج

٦٦ بشـارة، عزمـي. المجتمـع المـدني، دراسـة نقديـة، الدوحـة: المركـز العـربي للأبحـاث ودراسـة السياسـات، ط٦، ٢٠١٢، ص ٢٣٢.

٦٧ المرجع السابق، ص ٢٣٣.

٦٨ المرجع السابق، ص ٢٣٤.

٦٩ المرجع السابق، ص ٢٣٩.

احتكارها للعنف»، وما يبدو أن من خفي عليه السياسة الحيوية هو بشارة في مهام الدولة ودهاء «الديمقراطية» الذي يتجلى في قواعد لعبتها التي تخرج عن محافظتها على حقوق المواطنين وواجباتهم داخلها، والتنوع الحزبي بغض النظر عن تعليله بأن سبب ذلك هو الأزمة التي كانت تمر بها الديمقراطية البرلمانية في ذلك الوقت. لا يمكن تطبيق القانون الساري إلا من خلال استخدام عنف شرعن لأن الدولة هي حياته. سيحضر أغامبين هذه العلاقة بين العنف والقانون ليبرهن على أن السمة العنيفة لحالة الطبيعة لم تُمحَ من بنية المجتمع المدني، لأن القانون نفسه تحديداً هو الذي يستخدم عنفاً خاضعاً لسيطرة السلطة السياسية.[٧٠] لأن هناك صورة ممكنة باقية للقانون عقب قطع الصلة بينه وبين العنف والسلطة؛ بيد أن الأمر يتعلق بقانون دون قوة أو تطبيق.[٧١] من ذلك يتضح لنا أن المجتمع المدني مع كل نظريات انفصاله عن أدوات السلطة، إلا أنه، وكجزء من القانون، يمارس تحت خطابات العنف المبطنة سلطة سيادية على مجتمع فتح له بكونه مجتمع استثناء، ليحوله إلى القاعدة العامة.

فلسطينياً، سيتم توضيح كيف ظهرت مجموعة من خطابات الهيمنة المتواطئة مع الاستعمار في ظل نظام معولم ذي قاعدة مادية اضطرارية داخل مؤسسات المجتمع المدني المنتشرة في جميع المناطق الفلسطينية. يبين أولريش بيك ما وضح آنفاً في السلطة والسلطة المضادة أن «من وجهة نظر النظام الكوسموبوليتي، فهم هذه النقطة هو أساسي: الخسارة الشكلية للحكم الذاتي والربح الفعلي للسيادة بإمكانهما السير متلازمين. تتضمن العولمة هذين المظهرين: زيادة السيادة لبعض الفاعلين التي تعود مثلاً كون هؤلاء يصبحون قادرين على التصرف في ما وراء المسافات، ويستخرجون كذلك هوامش جديدة للمناورة، بينما مقابل ذلك فيما يختص بهذا التطور تخسر بلاد بأكملها حكمها الذاتي. تنمو السيادة الفعلية للفاعلين (مشتركين أم فرادى) بمقدار ما ينقص استقلالهم الذاتي. بتعابير أخرى: تؤدي العولمة السياسية إلى الانتقال من الاستقلال الذاتي المبني على الإقصاء القومي إلى السيادة المبنية على التضمين العابر للدول. ليس الوجود البسيط لشبكة التداخلات المتعلقة بعدة دول هو

---

٧٠ أغامبين، جورجيو. حالة الاستثناء، الإنسان الحرام، ترجمة: ناصر إسماعيل، القاهرة: مدارات، ٢٠١٥، ص ١٨.

٧١ المرجع السابق، ص ١٤٩.

المحدد ولا واقع كونه مكثفاً أكثر فأكثر، بل الطريقة التي يرى ويحكم عليه وينظم. يدرك التعاون وشبكات الدول، من وجهة النظر القومية، كإضرار شاق، كلعبة بحامل متعادل بين المستوى القومي، والمستوى العالمي: هل نقوض كثيراً من الكفاءات؟ هل لهم الحق بفعل ذلك؟ هل لنا الحق بفعل ذلك؟ بقدر ما لهم لنا أقل. والعكس في المنظور الكوسموبوليتي، حيث تدرك التفاعلات كلعبة بحاصل إيجابي: لنا بقدر ما لهم».[٧٢]

تبعاً لحنفي وطبر، فالعولمة تتشابك تشابكاً عميقاً مع مرحلة جديدة من «الحداثة» الغربية، إذا لم تكن تجسدها، وذلك وبالمقارنة مع النظرة العامة التي تصف الليبرالية الجديدة في بعض الأوساط بأنها عقلانية سياسية جديدة للحكم تقابل تعظيم النظام الرأسمالي. وفي هذه المقولة يبدو أن الليبرالية الجديدة تمثل تجريداً للدولة من الحكومة، لكنها ليست بالضرورة «تجريداً للحكومة من الحكومة»، وثمة مجموعة من الأساليب المنتشرة ضمن نموذج الليبرالية الجديدة الذي ينتج كيانات، حكومية/ انضباطية ضمن الحقل الاجتماعي. وفي حين أن هذه الأساليب منفصلة ومتميزة عن الدولة، فإنها مقيدة بالدولة وتتم صياغتها من خلال النموذج الاقتصادي للعمل.[٧٣] وبالتالي، يمكن النظر إلى الليبرالية الجديدة على أنها طريقة حديثة لتنظيم القوة التي تحكم بصياغة احتمالات العمل، ولا تعد بناءً فوقياً يشكل الوعي بالمعنى الماركسي الذي حاول إيصاله غرامشي.

العولمة متبوعة دائماً بشروط السيطرة الاستعمارية، وبالتالي يركّب النظام الدولي فوق النظام الاستعماري. وكما يوضح برابنن، ابتكرت جهود جديدة لبناء السلام لا تقتضي أنماطاً منتظمة قائمة لحفظ السلام بالطرق الدبلوماسية والعسكرية، وإنما أيضاً مجموعة من الأهداف الاجتماعية والاقتصادية والوسائل، مربوطة بالتزامات كبيرة لحظة تقديم الدعم المالي.[٧٤] ولعل من أشد ما يميز المأساة الفلسطينية كونها جزءاً مشتقاً، وإن كان بشكل غير مباشر، من النظام الرأسمالي. هذا مما يحتم على هذه

---

٧٢ بيك، أولريش. السلطة والسلطة المضادة، في عصر العولمة، ترجمة: جورج كتورة وآخرون، بيروت: المكتبة الشرقية، ٢٠١٠، ص ٢٤١.

٧٣ حنفي، ساري، طبر، لينا. «النخبة الفلسطينية الجديدة»، مجلة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مجلد ١٧، ع٦٧، ٢٠٠٦، ٧٣، ص ٨٤.

٧٤ المرجع السابق، ص ٧٩.

المأساة التشكل في كل مرة من جديد، جزئياً، بحسب التحولات في بنية النظام العامة. ومن العادة أن يتم التربيط بين المأساة الفلسطينية والنظام الاستعماري على أن كونها جزءاً منه، ما يشكل، بدوره، امتداداً للنظام الاستعماري العالمي.[٧٥]

يربط خليل نخلة في كتابه **فلسطين وطن للبيع** تتبعاً لظهور وتنصيف بعض مؤسسات المجتمع المدني، وبخاصة منظمات غير حكومية عابرة للحدود. وربط بين وجود المنظمات غير الحكومية الغربية العابرة للحدود في المناطق الفلسطينية المحتلة، والخطط السياسية الغربية الإسرائيلية المفروضة على الفلسطينيين بصورة مباشرة. فبعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد في العام ١٩٧٨ بين مصر وإسرائيل، بواسطة أمريكية، قررت وزارة الخارجية الأمريكية تخصيص أموال أمريكية لإنفاقها في المناطق المحتلة، تحت قناع «تحسين مستوى المعيشة» للفلسطينيين. هدفت آلية تنفيذ هذا القرار إلى توجيه أموال الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية بواسطة خمس منظمات أمريكية طوعية خاصة. أنشأت هذه الوكالات الأمريكية مكاتب لها في الضفة الغربية وقطاع غزة، وبدأت تنسيق تخصيص هذا التمويل مع سلطات الاحتلال الإسرائيلي. وفي أعقاب الهجوم الإسرائيلي على منظمة التحرير الفلسطينية في لبنان العام ١٩٨٢، تصاعدت لهجة الدعم الغربية للفلسطينيين الرازحين تحت الاحتلال، وذلك لأن وكلاء هذا الدعم هم الوكالات والجمعيات الغربية. فمثلاً، الدعم من المصادر الرسمية الأوروبية جاء من خلال المفوضية الأوروبية التي هي الذراع التنفيذية للاتحاد الأوروبي، وعدد من المنظمات غير الحكومية الأوروبية.[٧٦]

ما يبدو اليوم أنه ثمة تحول واضح في نمط التمويل الغربي، ودور التمويل الغربي ودور المنظمات غير الحكومية العابرة (TNGOs) حتى في تحديد على ما يصرف هذا التمويل. فقبل بدء «عملية أوسلو»، كانت المنظمات غير الحكومية الأوروبية والأمريكية العابرة للحدود والمنظمات الطوعية الخاصة (PVOs)، هي التي تقوم، إلى حد كبير، بتوجيه الأموال المخصصة من المصادر الرسمية الأمريكية والأوروبية بالنيابة

---

٧٥ الناشف، إسماعيل، مرجع سابق، ص ٣٨٢.

٧٦ نخلة، خليل. فلسطين وطن للبيع، رام الله: روزا لوكسمبورغ وخليل نخلة، ٢٠١١، ص ١٨٧.

عن حكوماتها وبالإشراف عليها. فقد كانت هذه المنظمات غير الحكومية الامتداد الطرفي لحكوماتها أو أحزابها أو شركاتها المركزية، ... الخ، في الميدان: أي مثلاً كالمناطق الفلسطينية المحتلة من دول العالم الثالث، وبغض النظر عما إذا كانت تلك الأجزاء محتلة مباشرة من قبل القوات الأجنبية أو مستعمرة عن بعد أو مضطهدة من قبل نخبها الاقتصادية والسياسية والحكومية. كانت هذه المنظمات العابرة للحدود ترفع التقارير مباشرة إلى حكوماتها -مصدر أموالها- في عواصمها. وتماماً كما فعل قادتها العسكريون في الماضي، وكما فعلت بعثاتها الدبلوماسية ماضياً وحاضراً، رفعت هذه المنظمات العابرة للحدود التقارير والتحليلات والملاحظات إلى عواصمها، فهي عُدِّت، وما تزال تُعد، مصدراً قيماً للمعلومات الاستخباراتية المفيدة حول ما يحدث على أرض الواقع.[٧٧]

يعد نهج هذا التمويل عاملاً للضعف ومصدراً للصراع داخل المجتمع الفلسطيني في الوقت ذاته، حيث أصبح بوسع بعض هذه المنظمات أن تطرح موضوعات ومفاهيم كانت غائبة أو غير قائمة على الأجندة الفلسطينية قبل نشوء السلطة الوطنية الفلسطينية، مثل موضوعة «الحكم الصالح». وكان طرح مثل هذه الموضوعة مصدر قوة وجذب لصالح هذه المنظمات، إلا أنه كان في الوقت نفسه مصدراً لنوع من الخلاف والصراع مع بعض القوى الوطنية السياسية الفلسطينية، التي ترى في طرح مثل هذه المواضيع أمراً سابقاً لأوانه. وقد كان للتمويل والمنح الخارجية أن تعطي الفرصة للمنظمات المدنية لكي تشق طريقها على الساحة الفلسطينية من ناحية، لكن من ناحية أخرى فإن كثيراً من الجهات المانحة وخططها، وبغض النظر عن رؤية هذه المنظمات الحقيقية وأهدافها الخاصة، تسعى، بشكل أو باخر، إلى تحقيق أهداف خاصة معينة، منها السياسي المباشر، كما في حال المؤسسات الأمريكية وبعض مؤسسات الاتحاد الأوروبي، وتقدم بعض الدول المنح وفق أجندة خاصة تتعلق بالسعي إلى تحقيق بعض الأهداف ذات الصبغة المدنية المباشرة والصبغة السياسية غير المباشرة مثل السويد، بينما تحاول دول الاتحاد الأوروبي، مثلاً، ربط مساعداتها ومنحها مباشرةً بمزيج من الأهداف المدنية المتساوقة مع توجهات سياسية واضحة مثل الالتزام

---

٧٧ نخلة، خليل، مرجع سابق، ص ١٨٩.

بمسيرة السلام، وما يتبعها من توجهات سياسية تنسجم مع الرؤية الخاصة لمفاهيم سياسية محددة.[٧٨] يشير حنفي وطبر إلى أنه لا يمكن فصل هذه الملاحظات عن التحول الشامل للمنظمات غير الحكومية الذي بدا في أوائل التسعينيات، بالترافق مع دخولها في ما أطلقوا عليه «صناعة المعونة». كما أن عملية أوسلو التي سمحت بإنشاء السلطة الوطنية الفلسطينية، وبدء «بناء الدولة» مدعوماً بتدخل البلدان المانحة ومبادراتها لبناء السلام، عززت أيضاً المجال لنمو المنظمات غير الحكومية الفلسطينية والمؤسسات المدنية. غير أن من المحير أن تعزيز المجال لنمو المنظمات غير الحكومية والمؤسسات المدنية ترافق مع اقتلاع المنظمات المحلية من داخل المجتمع ومن قاعدتها في الحركات الشعبية، إضافة إلى ذلك، فقد شاب هذا التعزيز المستمر تصدعات وانفصالات، إذ أعيد وضع تصور الأجندة «الوطنية» وخلطها «بالسياسي»، وبالتالي أعادت المنظمات غير الحكومية المحلية والدولية على السواء تحديدها باعتبارها مفرطة التسييس بالنسبة للمنظمات المدنية.[٧٩]

بعد أن تصب هذه المنظمات أعمدتها داخل الأطراف؛ يبدأ تشكل التحولات الجديدة على المجتمع المحلي، تبعاً لاتصالها مع الرأسمالية والتمويل المشروط، كما يفككها ديلوز وغاتاري بأن توسع الرأسمالية يتم من خلال حركة مزدوجة من حل رموز المؤسسات المحلية فضلاً عن الأنظمة الثقافية والقانونية وكل أنواع «الإقليميات المترسبة والاصطناعية والوهمية أو الرمزية» واجتثاثها من المكان عنها. وحدث ذلك مع بداية اختفاء بعض منظمات المجتمع الفلسطيني المدني، التي تخرج عن قواعد اللعبة. وتشمل حركة اجتثاث تلك المنظمات إعادة إضفائها، وهي التي نلاحظها في قطاع المنظمات غير الحكومية الفلسطينية. وفي هذا الخصوص، من المهم أن نعرف، كما يقترح عالم الاجتماع الفرنسي آلان تورين، أن إحدى مزايا الحداثة الرأسمالية المتأخرة هي «فك الارتباط»، ويشير ذلك إلى حالة لا تكون فيها البنى الاجتماعية والسياسية والاقتصادية متماسكة بل متصدعة بأشكال من الانقطاع، إذ أن أشكال الحياة القديمة تعطلت، ولكن لا بد من استبدال مؤسسات ومعايير اجتماعية جديدة

---

٧٨ علي، ناصر. دور منظمات المجتمع المدني في تعزيز المشاركة السياسية في فلسطين، بيت ساحور: المركز الفلسطيني للدراسات وحوار الحضارات، ٢٠١٠، ص ٨٢-٨٣.

٧٩ حنفي، ساري، طبر، ليندا، مرجع سابق، ص ٧٨.

بها. ولا يعرقل «فك الارتباط» التماسك الاجتماعي فحسب، وإنما يحث على الشرذمة».[٨٠] في هذا السياق، ثمة نزعة ملحوظة باتجاه «إضفاء طابع الثقافة المحلية»، ولكن بالاسم فقط، على بعض المشاريع الجديدة الكبيرة (المشار إليها باسم «البرامج»)، لاسيما في مجال التنمية المؤسسية والرعاية الصحية والقضاء، التي تمولها أساساً الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، والاتحاد الأوروبي، والبنك الدولي. أعطيت هذه المشاريع أسماء عامية محلية، مثل «تمكين» و«حنان» و«نظام»، و«سيادة». تم استخدام هذه الأسماء لإظهار واجهة من الاهتمام الفعلي لهذه الجهات المانحة الغربية بالخصوصيات الثقافية للسكان المحليين، كما تعبر عنها اللغة لمحاولة إخفاف حركة الاجتثاثات التي وضحها دولوز وغاراتي في البداية. يحدث هذا محاولةً لإظهار مدى اهتمام المانحين الغربيين بثقافة الناس. وهذه النزعة هي مجرد نهج آخر لإضفاء الطابع الخرافي وإعطاء معنى تضليلي لمصفوفة السيطرة بأكملها المفروضة من خلال توفير الدعم السياسي.[٨١]

تدخل مشاريع إعادة الإعمار ضمن التدرج النظري على أنها أحد البرامج التي مُولت من منظمات دولية، وبالذات التمويل العالي الذي حازت عليه مشاريع إعادة الإعمار في مقاطعات الضفة الغربية بالذات من منظمات دولية عابرة للحدود، وفي هذا البحث سيتم تتبع أثر التمويل على صناعة العمار الجديد بعد الانتفاضة الثانية، ومواراة الموت داخل الفضاء المعماري المقدم للفلسطيني اجتماعياً تبعاً لـ«صناعة المعونة» كما طرحها حنفي وطبر.

٨٠ حنفي، ساري، طبر، ليندا، مرجع سابق، ص ٨٥

٨١ نخلة، خليل، مرجع سابق، ص ١٩٢.

مواراة الموت في معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني

٢

الفصل الثاني

١ , ٢ مواراة الموت في موت العمارة لـ«النموذج الأمني»

مقاطعة رام الله أثناء اجتياح الضفة الغربية ٢٠٠٣ [٨٢]

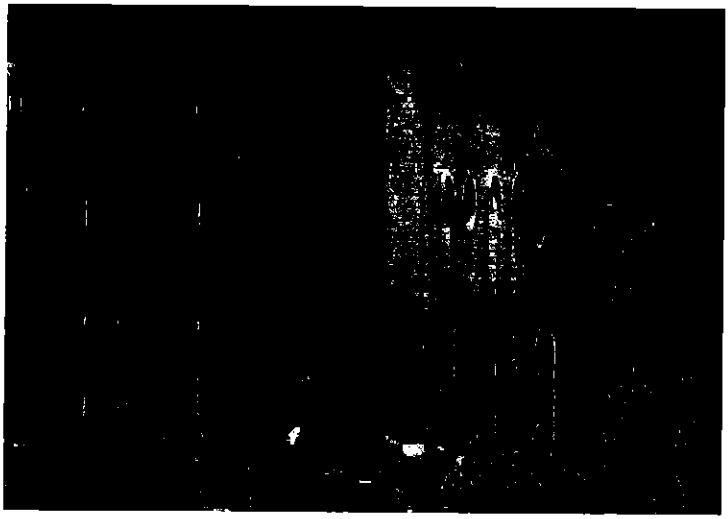

٨٢ أخذت الصورة من موقع http://www.dw.de/، حقوق الطبع محفوظة للموقع، وتمت زيارته بتاريخ: ٣٠/ ٦/ ٢٠١٣.

مقاطعة رام الله ٢٠٠٢ [٨٣]

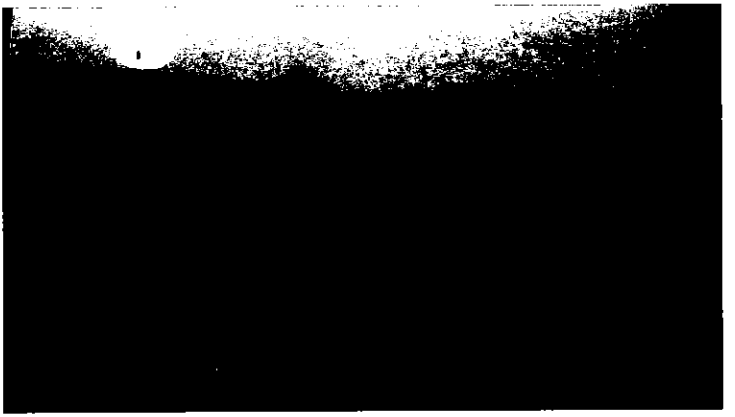

مقاطعة رام الله بعد إعادة الإعمار

٨٣ صورة للمصور جمال العاروري، ٢٤/ ٩/ ٢٠٠٢، من كتابه الذي يؤرشف فيه فترة الحصار الذي تعرض له ياسر عرفات في مقاطعة رام الله، العاروري، جمال، حكاية حصار. رام الله: جمال العاروري، ٢٠٠٨، ص ٧٦، حقوق الطبع محفوظة للمصور.

مقاطعة نابلس أثناء اجتياح الضفة الغربية ٢٠٠٣ [٨٤]

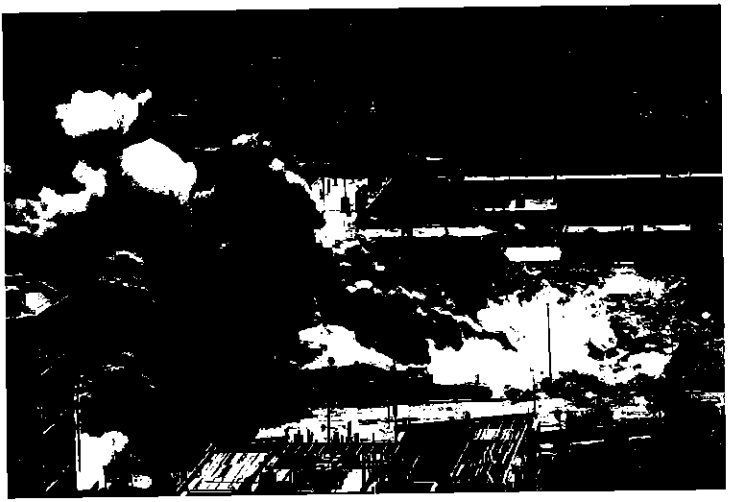

مقاطعة نابلس بعد إعادة الإعمار [٨٥]

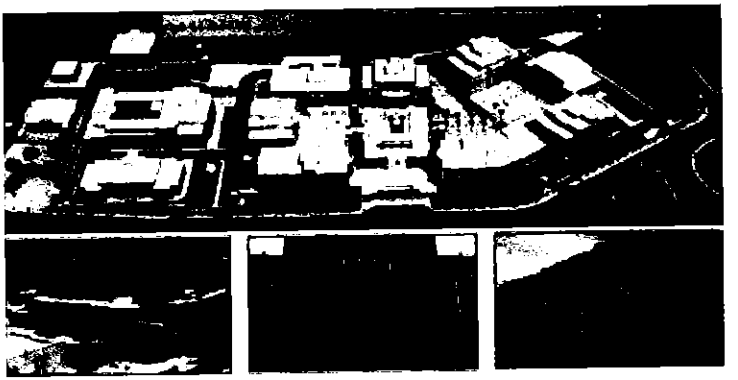

٨٤ صورة للمصور الفلسطيني عبد الرحمن القوصيني لحظة تعرض المقاطعة في نابلس للقصف الإسرائيلي ٢٠٠٣.

٨٥ أخذت صورة من موقع: http://www.tmfm.net، تمت زيارة الموقع ٣٠/ ٦/ ٢٠١٤.

مقاطعة طولكرم أثناء اجتياح الضفة الغربية ٢٠٠٣ [٨٦]

مقاطعة طولكرم بعد إعادة الإعمار ٢٠١٤ [٨٧]

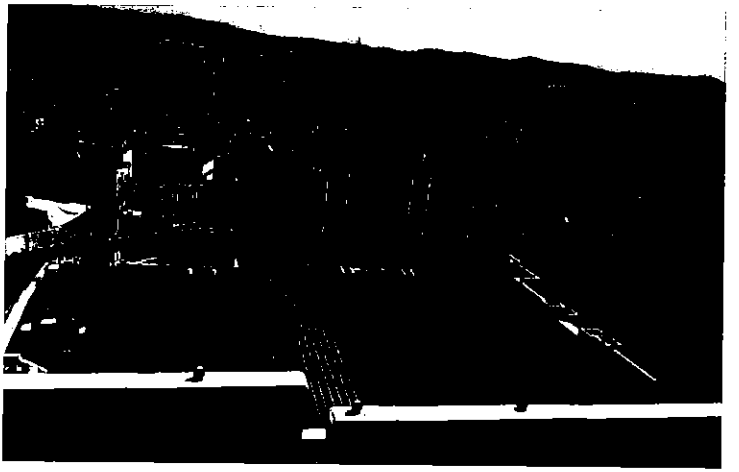

٨٦ أخذت الصورة من موقع: http://www.palestineremembered.com، تمت زيارة الموقع ٢٠١٤/٦/٣٠.

٨٧ أخذت الصورة من أحد المهندسين المدنيين الذين عملوا في مشروع إعادة إعمار مقاطعة طولكرم، ٢٠١٤.

تعرض لنا مجموعة المقارنات البصرية السابقة؛ دلالات البصري للصورة الفاقدة لمحيط المعنى، فالصورة المقدمة أولاً هي لصور تضامن المعمار مع حرب الجسد، التي تنقل ما كان من أثر للحرب الإسرائيلية على الفلسطيني المنتهك لفضائه الاجتماعي بمعماريته. أما الصورة التي تتبعها، فهي صورة تنسحب من دلالات كل ما سبق، وتنفصل من الأثر الذي رسم الألم فلسطينياً في لحظة تاريخية ما. «إن للصورة مداخلها ومخارجها؛ لها أنماط للوجود وأنماط للتدليل. إنها نص، وككل النصوص تتحدد باعتبارها تنظيماً خاصاً لوحدات دلالية متجلية من خلال أشياء أو سلوكيات أو كائنات في أوضاع متنوعة. إن التفاعل بين هذه العناصر وأشكال حضورها في الفضاء وفي الزمان، يحدد العوالم الدلالية التي تحبل بها الصورة»،[٨٨] حيث تمثل العمارة صورةً من الصور البصرية في الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، فهي جزء من الإنتاجات الاجتماعية للفاعل، وجزء منعكس من هويته وتمثيله عن ذاته. «فعلم العمارة، كعلم الموسيقى، وعلم الرسم، يجب أولاً إقامة موضوعاتها المتتالية بوصفها منظومات اتصال قبل أن تتوصل إلى دراسة مقبولة لهذه التنوعات من الائتلافات الدلالية أو التحويلات الثانوية التي تكونها تشكيلات البلاغة. إذا استطاعت بلاغة العمارة رجاء أن تستقي من البلاغة «صوراً» متقدمة عليها، فهي ستجبر تلك البلاغة بالمقابل على أن تعرف بطريقة أكمل «الرسائل المرئية».[٨٩]

على سبيل المثال يرى ماجد عواد[٩٠] عن تصميم المقاطعة في رام الله: «هذه يسموها في العمارة فلسفة التصميم، وأيضاً لدينا فكرة التصميم، فلسفة التصميم هي الرسالة التي تريد توجيهها للعالم، أما الفكرة فهي بكيفية توصيل هذه الرسالة. البعض يقول أن المجتمع الفلسطيني اتسم بالقوة بعد الكارثة، وبالتالي أريد لهذا التصميم أن يعكس هذه القوة.

فالرسالة التي نريد توصيلها للناس، كيف سنجردها ونقدمها لهم. الآن إذا أعطيت المقاطعة، ما هي الرسالة التي أريد إيصالها، أريد إيصال أني أعيش في مجتمع قوي؛ هذه تحتاج إلى تفكير عميق، يعني ما بدور «عالهيبة»، ولكن أريد شيئاً يعكس المستقبل، والأمل، صورة فيها إشراقة أكبر، يمكن أن لا أرى الدمار الذي حصل أبداً، ولكن كل هذا يتبع لمقدار الحرية التي يحصل عليها المهندس».

---

٨٨ بنكراد، سعيد. سيميائيات الصورة الإشهارية، الإشهار والتمثلات الثقافية، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٦، ص٣١-٣٢.

٨٩ مجموعة مو، مرجع سابق، ص ٥٣٣.

٩٠ ماجد عواد، مهندس معماري يعمل في رام الله، وتمت مقابلته من أجل البحث، ٢٠١٤.

ما يحدث اليوم فلسطينياً كما تنقل لنا الصورة، وجود خطاب «سلمي»، أي لا يرى في محيط معماره علاقة مع معركة الاستعمار، وذلك عكس ما حدث تماماً في بدايات الانتفاضة الثانية، وعملية الاجتياح الكاملة للضفة الغربية، التي تظهرها الصور المستبقة لعمارة المقاطعات المهدمة، أما الصور التابعة هي مجموعة لأجزاء متشابهة من المقاطعات الجديدة التي تنقل اللاأثر في عملية إعادة الإعمار التي حدثت على المقاطعات بعد العام ٢٠٠٧.

عند سؤالنا شكوكاني[٩١] عن آليات الإخفاء البصري التي لم تبقِ للحرب أي أثر أو أي رصاصة، أجاب المبحوث: «نرجع لعام ٦٧، حدث دمار وحرب، فمن غير المعقول أن نتركها، فقاموا بترميمها ولم يتركوا أي أثر، وكنا نمشي على الطرق ونرى آثار الجنازير، وفي النهاية يجب أن يرمم، وأن يرجع جديداً، ولكن ليست مهمتنا أن نوثق. يوجد مؤسسات خاصة توثق هذا الأثر وليس نحن».

يمكننا تفسير أن ما يحدث فلسطينياً، هو بعكس ما يطرحه أسمن عن تذكر الموت في بناء الحضارة، «إن ظاهرة تذكر الموتى تنقسم في واقع الأمر إلى نوعين من الذكرى: ذكرى موجهة إلى الماضي، وأخرى تتجه نحو المستقبل. فتذكر الموتى الموجه إلى الماضي هو الصورة الأكثر طبيعية، الأكثر أصالة، وهو النمط الأكثر عالمية في هذا النوع من التذكر. إنه الصورة التي تعيش فيها مجموعة ما مع موتاها، والتي تجعل بها هؤلاء الموتى حاضرين وموجودين دائماً في الزمن الحاضر والمتجدد باستمرار».[٩٢] لا نرى هنا أن المشروع الفلسطيني هو مشروع لبناء حضارة، وإنما محاولة لعدم ترك الفلسطيني لموتاه وأحيائه، منسحباً للمؤسساتية والخطاب الدولاتي الذي سيناقش في الجزء الثاني من هذا القسم.

وفي هذا السياق يرى دوبري أن المجتمعات، إلى يومنا هذا، كانت واقعياً مكونة من الأموات أكثر من الأحياء. فخلال آلاف السنين، ظل الماضي والغور في الزمن طافحاً ومهدداً الحقل البصري، وظل المختفي يمنح للظاهر قيمته. فقد كان القريب والمرئي في نظر أسلافنا أرخبيلاً من

---

٩١ هشام شكوكاني، يحمل شهادة الدكتوراه في الهندسة المعمارية، مؤسسة بيج دار، تمت مقابلته من أجل البحث، ٢٠١٤.

٩٢ أسمن، ايان، مرجع سابق، ص ١٠٥.

بحر اللامرئي الذي له كاشفوه وتكهناته التي تصلح لتمثيله؛ ذلك أن اللامرئي، أو ما بعد الطبيعة، كان مجالاً للخارق (فهو المكان الذي تأتي منه الأشياء وإليه تعود). لذا، كان من مصلحة الإنسان التصالح مع اللامرئي، ما يجعله مرئياً. والتفاوض معه وتمثيله وتشخيصه، أما الصورة فإنها لا تشكل هنا الرهان، وإنما تشكل عماد التبادل والمقايضة في هذا التعامل الدائم بين الرائي واللامرئي.[٩٣] ولكن؛ كما يقول الرائد صوالحة[٩٤]: «يجب أن نزيل أي أثر للهدم ليشعر الفلسطيني بأنه في دولة توفر له الأمان والسلام، فكيف يشعر بذلك إذا كان يرى الدمار من حوله، وفي مؤسسات دولته». يحدث ذلك تبعاً لفوكو في كتابة **يجب الدفاع عن المجتمع**، بأن الخطاب الفلسفي - القانوني الذي ينتظم حول مسألة السيادة والقانون، يقوم بإخفاء الهزائم أو الانتصارات أو دم المعارك الذي جف داخل هذا القانون. وبالتالي، يأتي الخطاب المقابل لذلك الذي يستخدم التأويل التاريخي، ليظهر الحقيقة والماضي المنسي، داخل المؤسسات والتشريعات، ليعلن دوام الحرب واستمراريتها في المجتمع، وانتصار الحقيقة.[٩٥]

وتبعاً لما سبق، يتضح أن الولع الفلسطيني بإنتاج الدولة ومؤسساتها جاء يعقلن مواراة الموت، وإخفاء القصة، تحت مسميات إعلاء هذا الخطاب الدولاتي أمام الفلسطينيين، ليروا أن «غير العادي» هو أن تبقي آثاراً للموت أو الدمار داخل مباني المقاطعات، ويتم إرسال الإشارات للفلسطينيين من داخل العمار بأن يعدوا أنفسهم لدولة بمؤسسات ضخمة بصرياً و«غير مخترقة»، نحو وظيفتها المستقبلية. فبعد المواراة، تبني السلطة الفلسطينية مهبطاً للطائرات، بعد أن تُسور محيطها وتوشمه بكاميرات المراقبة والأبراج «إن هذه الدلالات التي تختفي في ثوب «الوظيفي» و«العادي» و«المباشر»، تعد في واقع الأمر مادة خصبة تستقي منها الاستراتيجية الإشهارية مجمل عناصرها في البناء وفي توجيه سلوكيات المستهلك»،[٩٦] ومنطق الخطاب الدولاتي الذي يدعيه الخطاب الرسمي الفلسطيني.

---

٩٣ دوبري، ريجيس، مرجع سابق، ص ٢٥.

٩٤ الرائد ياسر صوالحة، يعمل في أمن المقاطعات في مناطق شمال الضفة الغربية (جنين- نابلس- طولكرم)، تم إجراء المقابلة في شهر أيلول ٢٠١٤.

٩٥ بغورة، الزواوي. مدخل إلى فلسفة ميشيل فوكو، بيروت : دار الطليعة، ٢٠١٣، ص ٥١.

٩٦ بنكراد، سعيد، مرجع سابق، ص٥٨.

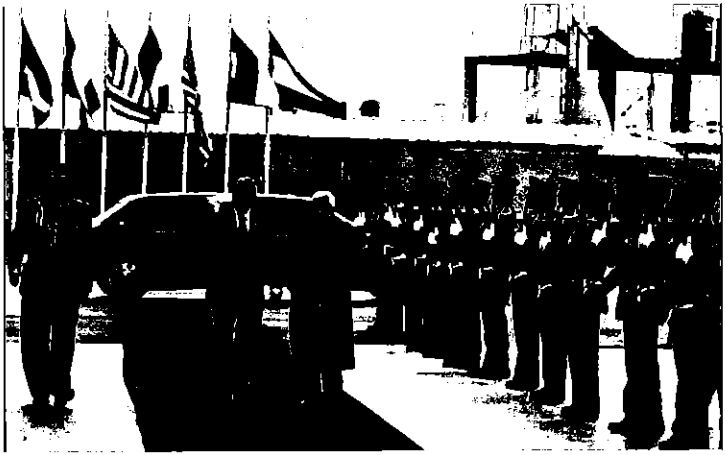

ما يمكن قراءته عن الصورة السابقة هو اختفاء التحفيزات الإيحائية ضد المستعمر الإسرائيلي داخل المقاطعات، حيث أصبحت مراكزَ تدعي هيئة مصطنعة للدولة، وذلك بعكس ما يقدمه بنكراد عن الصورة؛ فكما لا وجود للحاجة المعزولة، ولا وجود للرغبة المعزولة، كذلك لا وجود للفرد المعزول، أو الشيء المعزول. فكل فرد وكل شيء يجب أن يتنازل عن هويته الخاصة، وعن تفرده، ليتحول إلى مثير إيحائي يقود إلى معانقة النموذج المجرد والإحالة على ممكنات التدليل داخله. أما المنتوج، فسيظل وحده متفرداً ومعزولاً وخاصاً؛ فهو يتمتع باسم وتاريخ واستعمال نفعي أو حضاري.[٩٧]

ويشابه هذا ما يطرحه بودريار في المصطنع والاصطناع، عن فوق-الواقع، إن فوق- الواقع هو المجتمع المشهدي الذي لا يعي ذاته كمجتمع مشهدي، هو عالم لا معنى فيه لعبارة «المشهد» وعبارة «الواقع». عالم نعيش فيه تبعاً لشيفرات مشهدية اندرجت في بنيتنا الإدراكية. فالرمز هو الواقع، ما يعني أن فوق - الواقع امتص كل شيء وصار مشبعاً، فالصورة أو المشهد المكتفي بذاته هو الذي يحدد بنية المجتمع، بإلغاء أي مسافة بين الدال والمدلول، إلغاء أي مرجعية، ومن هنا إلغاء كل قدرة نقدية. من قول أورويل الشهير» الحرب هي السلم»، وما في ذلك من تدمير لمبدأ التناقض، هذا المتطلب الضروري لأبسط منطق.[٩٨]

---

٩٧ بنكراد، سعيد، مرجع سابق، ص ٦٣.

٩٨ بودريار، جان. المصطنع والاصطناع، ترجمة: جوزيف عبد الله، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٨، ص٣٠-٣١.

«فوق - الواقع عالم يجري العمل لإقناع الناس، مثلاً، بأن الحرب هي السلم. والناس تعتقد بذلك، أو لا تفكر به أصلاً. هذا ما يبدو كأمر عادي: نشاهده على الشاشات. إنه العمل لتخريب النظرة السوية إلى الواقع، بقوة الإعلام. فيكون الواقع في الميديا/ الإعلام، لا الحدث. وعلى سبيل المثال، الغزو الأمريكي للعراق، والتلاعب الإعلامي بالوقائع والمعطيات وبراعة الإخراج باختلاق الروايات ... تجعل المشاهد يرى كأن الحرب هي السلم. هنا تعمل الميديا/ الإعلام على إلغاء واقعية الواقع: بحيث نرى مشاهد الجنود الأمريكيين يتصرفون في العراق وكأنهم في فيلم القيامة الآن، وتبدو الحرب كأنها لعبة إلكترونية، حيث يموت الناس كما يموتون في مشاهد لعبة لا أكثر».[٩٩] ويظهر بعض تصور المبحوثين المتلقين للبصري المعماري للمقاطعات، بأنها تحمل القوة والسيادة، ويستشعرون منها الأمل في الحصول على الحرية من خلال دولتهم الحديثة.

يشير المهندس يزيد الرفاعي[١٠٠] والمهندس ماجد عواد إلى أن المهندس المعماري يجب أن يمتلك الوعي الكافي لملء الفراغ، برمزية معمارية منسجمة مع طبيعة المجتمع الذي يقدم له هذا الشكل المعماري، فالإنتاج الذي يقدمه يعيد تصور الفرد عن هويته وعن المكان الذي يعيش فيه، فهو قد يبعث أماكن متخيلة في بعض الأحيان، كأن يبعث في الفلسطيني المتلقي، مجموعة من آليات فرض السلطة من خلال مؤسسات أمنية كالمقاطعات، التي يعتبرها يزيد الرفاعي أنها متبوعة لرأس المال وشروطه التي يأتي بها.

«إن إنتاج الأفكار والتصورات والوعي مرتبط أولاً بصورة مباشرة وصميمية بنشاط البشر المادي وبصلاتهم المادية، إنه لغة الحياة الواقعية ... وذلك الحال في ما يتعلق بالإنتاج الفكري كما يتبدى في لغة السياسة والقوانين والأخلاق والدين والميتافيزيقيا (...) إن الأخلاق والدين والميتافيزيقيا وسائر أشكال العقيدة، وكذلك أشكال الوعي التي تتجاوب معها، بل المسألة بالمعكوس، فالبشر بتطويرهم إنتاجهم المادي وعلاقاتهم المادية، هم الذين

---

٩٩ المرجع السابق، ص٣١.

١٠٠ يزيد الرفاعي، يحمل شهادة الدكتوراه في الهندسة المعمارية، ويعمل أستاذاً في دائرة الهندسة المعمارية في جامعة بيرزيت-فلسطين، أجريت المقابلة العام ٢٠١٥.

يحولون هذا الواقع الذي هو خاص بهم، ويحولون فكرهم ومنتجات فكرهم (...) إن نقطة الانطلاق هي الأفراد الواقعيون والأحياء أنفسهم، ولا ينظر إلى الوعي إلا على أنه وعيهم هم (...) وإنه حيث يتوقف التأمل النظري المجرد، يبدأ إذاً في الحياة الواقعية العلم الواقعي، الوضعي، أي تصور النشاط العلمي، صيرورة تطور البشر العملي. إن العبارات الجوفاء عن الوعي تتوقف، ويتوجب إحلال معرفة واقعية محلها».[١٠١]

إن أحد مظاهر الخطاب الدولاتي الذي يتم تبنيه فلسطينياً هو مجموعة من الأبنية التي تمثل رموزاً للدولة باعتبارها مؤسسات تمتلك الوظيفة والأداة لممارسة هذا الخطاب، وبالتالي تقوم على امتلاك مجموعة من الخصائص، ومجموعة من الدلائل السلطوية، وهو ما سيتم توضيحه في سياقه الفلسطيني من خلال تتبع التحليل في الجزء القادم.

٢,٢ تمثلات السلطة في عمارة «النموذج الأمني»

إعادة إنتاج العلاقة السلطوية من خلال العمارة الكولونيالية في عملية إعادة الإعمار «المقاطعات .. نموذجاً أمنياً»

إن ما يقدمه هذا الجزء هو تحليل لما يُحمَّل به العمار في الفضاء الاجتماعي من علاقات السلطة، وخطاب دولاتي، في «مشروع دولة» مستعمَرة كفلسطين، وفي محاولة جعل الفلسطيني «مواطناً» عن طريق تعرضه للضبط والمراقبة من طرفين؛ الفلسطيني ذو السلطة الوهمية المنتجة استعمارياً، والإسرائيلي ذو السلطة الاستعمارية. وبالتالي، سنقوم هنا بتحليل دلالات المعنى التي حملتها أبنية المقاطعات الجديدة، كمواراة مكان موت عمار المقاطعة السابق الذي هدم في بدايات الانتفاضة الثانية، ولكنه يحافظ على علاقة مع هذا المكان السلطوي الذي حمل سلطة استعمارية بريطانية من لحظة تأسيسه. ما تطرحه هندسة العمار الجديد للمقاطعات بصفتها الأمنية، هو خاصية اجتماعية أولى على أنها جزء من مؤسسة الدولة. وتلي ذلك التصورات الأدائية للمراقبة والضبط الذي ينقل من خلال العمار لإعادة إنتاج سلطة تلك المؤسسة وخطابها. كل دلالات المعاني والتصورات الأدائية للمراقبة ستبرز في تحليل الخطاب الذي تبعثه صور الفضاء المعماري، والمقابلات الميدانية.

---

١٠١ ماركس، كارل، وإنجلز، فريدريك. الأيديولوجيا الألمانية، ترجمة: جورج طرابيشي، دمشق: دار دمشق للطباعة والنشر، ١٩٦٥، ص١٩-٢١.

صورة لمقاطعة نابلس القديمة[١٠٢]

تتم مناقشة المقاطعات في هذا الفصل على أنها تقدم نفسها كمؤسسة دولاتية للفلسطينيين، والمحاولة هي بتفكيك أساس البنية المعمارية والخطابية التي جعلتها متموضعة في الفضاء العام الفلسطيني، ومشاهدة ومميزة بصرياً من خلال هندسة معمارية تنقل نماذج أمنية، وآلية فرض في أثرها ومضمونها داخل المجتمع الفلسطيني. نقلاً عن الكتاب السنوي للجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني عن تاريخ مبنى مقاطعة نابلس، أنه مع قدوم الاحتلال البريطاني لفلسطين، وتحوله فيما بعد إلى انتداب في عشرينيات القرن الماضي، حرص على إيجاد مؤسسات له تمتد داخل المجتمع في ترسيخ وجوده. فقام بترسيخ البنية التحتية من تعبيد للطرق وبناء المستشفيات ومراكز الاعتقال، ومقرات القوات التابعة له. وأكثر ما تميز به الانتداب في تلك الفترة أن جعل المدن الفلسطينية الكبرى (نابلس- رام الله- جنين- أريحا- طولكرم- بيت لحم- غزة) مقراً أساسياً لقواته، ليشمل مكاتب القيادة العليا في المدينة، ومعتقلاً للثوار الذين كانوا يقاومون الانتداب البريطاني في تلك الفترة، وبات يعرف هذا المقر بـ«المقاطعة». وقد بنيت المقاطعة على يد البريطانيين أوائل القرن الماضي، وتم اختيارها لتكون على أنقاض قلعة نابلس الشهيرة في عهد المماليك، ويرجع البعض أن الهدف الذي بنيت من أجله جعل المشرفين عليها يهتمون بقوة البناء وتقويته، وقد استخدمت كمقر عسكري بريطاني، ومقر

١٠٢ مقاطعة نابلس القديمة: تصوير عبد الرحمن القوصيني.

للحكم التنفيذي، واستقبال المندوب السامي، وكسجن للمقاومين.[١٠٣] تُفسر سيطرة المستعمر على المكان عند اليساندرو بيتي من منظور السيطرة على تدفقات شبكة البني التحتية، تمثل تلك الأساليب، إلى جانب دورها في تقوية الارتباطات، أداة تجري بواسطتها السيطرة على أجزاء كاملة من السكان والمناطق، وتصفيتها وعزلها. ففضاء الحركية والتدفقات، بالنسبة إلى بعضهم، ينطوي دائماً على وجود حواجز أمام آخرين. وإيجاد شبكة من البنى التحية يقتضي ضمناً وجود أيديولوجيا للتصورات الفضائية والاجتماعية، واعية إلى حد ما، لأسباب الاستخدامات ودواعيها.[١٠٤] ما حدث بُعيد أوسلو وقدوم السلطة لفلسطينية، هو إعادة استملاك لمكان السلطة الاستعمارية التي كانت؛ ليس باعتباره مكاناً فلسطينياً، وإنما باعتباره مكاناً ينتج ويعيد إنتاج السلطة والرقابة بالمفهوم والممارسة.

إن إشكالية التماهي مع صورة الدولة الأوروبية الحديثة، تكمن في أن الحركات المناهضة للكولونيالية غالباً ما عبرت عن نفسها من خلال الاستحواذ على أشكال تستعيرها من مؤسسات المستعمِر، وتردها عليه. فغالباً ما صيغ الصراع في سياق خطاب» القومية» المناهضة للكولونيالية الذي اقتبس فيه شكل الدولة الأوروبية الحديثة، ووصف كعلامةٍ للمقاومة، حيث أصبحت هياكل المؤسسات الإدارية العامة أو مجالس التمثيل النيابي السياسي المحلي، هي نفسها الفضاءات التي تمركز بداخلها خطاب القومية المناهضة للكولونيالية، وتشكلت فيها حركات المطالبة بدولة قومية مستقلة في عصر ما بعد الكولونيالية.[١٠٥]

---

١٠٣ الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، محافظة نابلس، الكتاب السنوي (٣)، رام الله، ٢٠١١، ٣٢.

١٠٤ بيتي، اليساندرو وآخرون. حالة الاستثناء والمقاومة في الوطن العربي، تحرير: ساري حنفي، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٠، ٥٤.

١٠٥ بيل اشكروفت وآخرون. دراسات ما بعد الكولونيالية، القاهرة: المركز القومي للترجمة، ٢٠١٠، ٦٣.

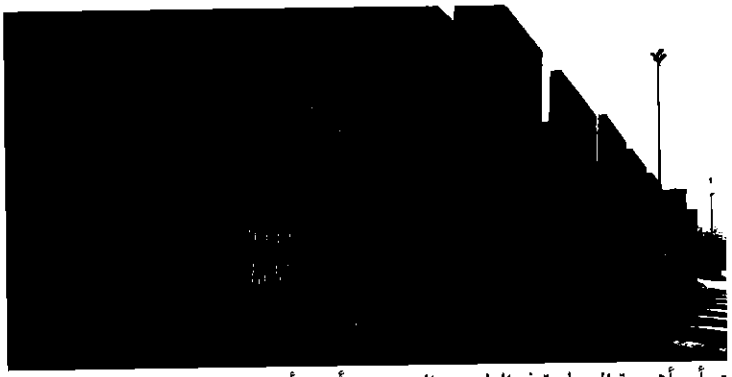

تأتي أهمية الدولة في الطرح الغربي، بأنها أداة لترسيخ الهيمنة والقمع، وإحلال خطاب القوة المشرعنة، بالتالي فهي تعيد تشكيل الفضاء الاجتماعي من نقطتي «القوة»، و«الموافقة»، عن طريق مؤسسة القمع كالشرطة أو الجيش، أو عن طريق مؤسسات أيديولوجية أخرى كالأسرة والإعلام، فعلى حد تعبير غرامشي «الأفكار يمكنها أن تصوغ الواقع المادي»، وبالتالي تتم إعادة إنتاج النظام المسيطر عن طريق خلق أفراد مكيفين أيديولوجياً لقبول قيم النظام. إن حداثية الدولة، تبعاً لفوكو، تكمن في أن سلطتها تبتعد عن العقاب الجسدي والتعذيب، وإنما على الجسد الإنساني، بصورة غير مباشرة، من خلال السجن أو المصح، تخالفه في هذه ميجان فون بأن الدولة الاستعمارية لم تكن لها ثنائية فوكو «المنتجة» وما يقابلها من السلطة «القمعية» داخل السياسة الحيوية،[١٠٦] وإنما نادراً ما كانت تكون حديثة بالمعنى الأوروبي، واعتمدت على قدرٍ كبير من السلطة القمعية. فبينما يكون في الدولة الحديثة رعايا معياريون ورعايا شاذون، يكون في المقابل كل شخص استعماري هو «آخر»، ولم يكونوا رعايا أبداً، وإن كان باطنياً في بعض النماذج. ولكن، وبالعودة إلى الأفكار الغرامشية عن الهيمنة، وكما تطرح آنيا لومبا، فإن الحكومات الاستعمارية حاولت أن تكسب «موافقة» بعض المجموعات على الرغم من استخدامها للإكراه العنيف مع مجموعات أخرى. ويكمن تأثر المجموعات الموافقة بآليات الدمج والأفكار الأيديولوجية عند المهيمن عليهم أنفسهم، وتصبح بالتالي إحدى مركزيات الحكم الاستعماري.[١٠٧]

---

١٠٦ أسوار مقاطعة نابلس، تصوير الباحثة، في شهر أيار ٢٠١٤.

١٠٧ لومبا، آنيا. في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة: محمد عبد الغني غنوم، دمشق: دار الحوار، ٢٠٠٧، ص ٤٣ - ٤٦.

عند سؤالنا للرائد صوالحة ما إذا كان هناك معرفة مسبقة بأن أصل المقاطعة بريطاني، فلماذا تمت إعادة بناء المقاطعة الجديدة عليها؟ أجاب: «لأنها أراضٍ حكومية، أي تتعاقب عليها الحكومات، وهي تتبع لمناطق (A)، فالسلطة الفلسطينية تمتلك سيادة تامة عليها، كما أنها تقع في منتصف المدن». ثم سئل هل يمنع ذلك أي جيب صهيوني من أن يدخل المقاطعة؟ أجاب: «الدولة الفلسطينية القادمة تخطط لحلول جذرية في مناطق فلسطين ٦٧». فسألته الباحثة: وبخصوص المستعمرات الإسرائيلية في الضفة الغربية؟ أجاب: «طبعاً سيكونون تحت خيارين؛ إما أن يخرجوا «مواطنيهم» من مناطق فلسطين ٦٧، وإما أن يصبحوا تحت السلطة الفلسطينية، فالسلطة الفلسطينية تحاول توفير الأمن من خلال بناء مؤسساتها الكاملة».

يبدو أن الخطاب الجديد في المؤسسة السياسية الفلسطينية أخذ بالترسخ نحو دولة منفصلة على حدود ٦٧، ومحاولة لرسم السيادة الدولاتية في تناسي للحركة الاستعمارية الصهيونية الموجودة. ونعيد لنكرر فكرة إدوارد سعيد عن السلطة الوهمية في الحالة الفلسطينية، التي ينتجها المستعمِر عند المستعمَر لدرجة تجليه الكامل بلعبة مشروع الدولة القادم «إن هناك نوعاً من الخصيصة القابلة للتكرار في ذلك، وهي خصيصة تأتي من تاريخ الاستعمار في القرن التاسع عشر. على غرار ما فعله الفرنسيون بالجزائر، حيث كانوا يجدون مناطق يمكن وضع السكان المحليين الراغبين في المعرفة في قراهم تحت إمرة رؤسائهم المحليين. وقد فعل البريطانيون ذلك في غرب أفريقيا فيما يسمى «الحكم غير المباشر»، حيث كانوا يعثرون على بعض الأهالي المحليين ليقوموا بدورهم بحكم مواطنيهم الجامحين وصعبي المراس، بينما تظل أنت بوصفك قوة احتلال محتفظاً بالسلطة الحقيقية. وفي جنوب أفريقيا، كانت الفكرة أن يوضع السود في مخيمات حيث يمكن لهم أن يحصلوا على خصائص السلطة، لكن دونما امتيازات سلطة حقيقية، فهم لم يكونوا يسيطرون على الأرض ولا على المياه، بينما يسيطر البيض على المداخل والمخارج، وهذا بالضبط هو النموذج الجاري تطبيقه هنا؛ فالمناطق الفلسطينية، التي هي صغيرة ومقسمة إلى مراكز للسكان الفلسطينيين، إنما تكافئ تلك المخيمات حيث يجري توليد انطباع لدى شخص ما مثل عرفات، أو أنه يخلق لنفسه الانطباع بأنه هو القائد، لكن الخيوط الحقيقية يتم تحريكها من خلفية المشهد بأصابع المحتل الاستعماري».[١٠٨]

---

١٠٨ سعيد، إدوارد، مرجع سابق، (الاقتباس نفسه)، ٤٩

عن تصميم بناء مقاطعة رام الله يجيب المهندس هشام شكوكاني: «المقاطعة في الأصل بنيت على نموذج بريطاني، برتوتايب معين، أو حتى هو كان سجن بني على أيام بريطانيا، ثم بنيت مقاطعات لاحقاً، وصممت هكذا حتى تعيد فكرة السيادة عند رؤية الناس لها. ولكن ما هي خلفيته السياسية لا أستطيع أن أقدم إجابة لذلك!». لا يفصل الفلسطيني سلطة المستعمر عن سلطة مؤسساته فحسب، بل يعتبرها امتداداً حكوماتياً متوالياً بالأدوات الفيزيائية وحتى الخطابية نفسها.

وعليه، فإن عملية استهلاك هذا الشكل السياسي لا تعيد إنتاج هيمنة استعمارية بريطانية قديمة على فلسطين فحسب، وإنما يحبس فلسطين والفلسطينيين بمتاهة الاستهلاك الحدائي، كما يحدث على مجمل الصعد الاجتماعية الفلسطينية، سواء كان باللباس أو العمارة، وتغلغل السياسات الليبرالية والنيوليبرالية في فلسطين. إن ما يقدمه إيليا زريق في مقالته «بناء الدولة في فلسطين من خلال أدوات المراقبة»، يكمن في طرح إشكاليات استهلاك هذا النمط على الفلسطينيين وقدرتهم التحررية التي تختفي في تقنيات الإدارة والضبط والمراقبة التي تعد مؤسساتياً غير جاهزة لها، فممارسات المراقبة تعتبر إشكالية معاصرة في حقول علم الاجتماع داخل الإطار الأيديولوجي الجمعي لبناء الدولة القومية.[١٠٩] يطرح ذلك أيضاً علي شريعتي في كتابه **العودة إلى الذات**، تحت فصل المتشبهين بالاستعمار، ويذكر أن هؤلاء مجرد متشبهين استهلاكيين، ووجودهم عبارة عن مأساة مضحكة أكثر مما هي مؤلمة. هم يستهلكون فقط، فهم شبه بشر وليست لهم القدرة على التمييز والحسم والاختيار وتحليل الأمور. إنهم مقلدون فحسب، يتبعون عصرنة وحضارة، نقلت العقول إلى العيون.[١١٠]

---

١٠٩ زريق، إيليا. «بناء الدولة من خلال أدوات المراقبة»، المجلة البريطانية للدراسات الشرقية، ٢٠٠١، ٢٠٥-٢٢٧.

١١٠ شريعتي علي. العودة إلى الذات، ترجمة: إبراهيم الدسوقي، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٦، ١٤٢-١٤٣.

أسوار مقاطعة نابلس

يُظهر المقطع الجانبي للمقاطعة سوراً مرتفعاً عن الشارع الفلسطيني، وصولاً لارتفاعه عن وعي الفرد الفلسطيني؛ في لعبة مشروع الدولاتية، حيث تعكس استخدام «السلطة» الفلسطينية أدوات المراقبة والضبط داخل الفضاء العام. تنحت الدولة هيمنتها في وعي الإفراد من خلال هندسة فضائهم العام، وبالذات بصرياً، كنقطة تلاقٍ أولى مع رموز «السيادة»، التي تحاول رفع أعمدتها في عمار أبنية مؤسساتها. ففي مقابلة د. محمد اشتية،[١١١] لـ«معاً»[١١٢] في سؤالهم عن إعادة إعمار المقاطعات الجديدة: «يأتي هذا المشروع ضمن خطة الحكومة الفلسطينية لإعادة بناء مقر المقاطعات التي هدمها الاحتلال في محافظات الضفة الغربية، على اعتبار أنها رمز من رموز السيادة، كما أننا ننظر إلى هذا المشروع بكل الأهمية، كونه يسهم في التحضير لإقامة الدولة المستقلة، ومؤسساتها القادرة على حفظ النظام، وفرض سلطة القانون، لما للأمن من أهمية في حياة المواطنين، وتأثير على الانتعاش الاقتصادي».[١١٣]

وكما عبر الرائد ياسر صوالحة عن بناء مقاطعة نابلس «الجديد» بأنها هي الهندسة المعمارية المطلوبة، لأنها تمثل رمزاً لسيادة لدولة فلسطين، وأضاف

---

١١١ د. محمد اشتية، وزير الأشغال العامة والاسكان.

١١٢ معاً: وكالة إخبارية فلسطينية، تمت زيارة الموقع في تاريخ: ١٥/ ١٠/ ٢٠١٤.

١١٣ www.maannews.net خبر بعنوان» اشتية يصادق على إحالة عطاءين لإعادة بناء مقر المقاطعة في نابلس، ١٥/ ١٢/ ٢٠٠٩.

«ألا ترين ضخامة الأبنية ومساحتها الكبيرة التي ترمز إلى أنها مؤسسات دولة فلسطين وتشير إلى سيادتها»، فالسيادة تضفي شرعيةً لصورة الدولة أمام أفرادها، وذلك النظام القانوني، والحقل القضائي اللذان يشكلان الأرضية الداعمة لعلاقات الهيمنة وتقنيات الإخضاع المتعدد الأشكال. فيجب عدم النظر إلى القانون من جانب تثبيت الشرعية، ولكن من جانب إجراءات الإخضاع التي يقيمها،[١١٤] إلا أنه في الجهة المقابلة توجد انضباطات مظلمة وصامتة وبكماء تعمل في الأعماق في الظلام وتشكل الأرضية التحتية الصامتة للآلة الكبيرة للسلطة، لتصبح اللحظة المادية للإخضاع هي اللحظة المشكلة للذوات.[١١٥]

وما سبق يشير إليه المهندس غسان نينو[١١٦] في إجابته عن آلية وضع التصميم المعماري للمقاطعات الجديدة في الضفة الغربية «في تصميماتنا أخذنا أول شيء أنها مبانٍ أمنية، والمفروض أن تأتي بضخامتها لتعكس صورة السلطة الفلسطينية، فمن المنطلق هذا استعملنا الفخامة والقوة وفتحات الشبابيك والجدران المسلحة، واختبرنا أن هذه الحيط لن يدخلها قذيفة دبابة، وشبابيك صغيرة من ناحية أمنية، ولكن في الوقت نفسه هي مبانٍ حضرية، صحيح أنها أمنية، ولكن مش «بعبع» لا تخيف الناس، فتعكس المبنى الأمني ولكن تخدم الأمن وفي الوقت نفسه يعطي راحة للمواطن، لأنها سلطتنا «ومنا وفينا»، فهي للشعب الفلسطيني وتعكس الصورة الحضرية لسلطتنا، وهناك مبانٍ استعملنا فيها جزءاً من التراث الفلسطيني كالأقواس».

---

١١٤ فوكو، ميشيل. نجب الدفاع عن المجتمع، ترجمة: الزواوي بغوره، بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٣، ص ٥٢.

١١٥ المصدر السابق، ص ٥٣.

١١٦ غسان نينو، مدير مكتب نينو للاستشارات الهندسية، وهو المكتب الذي قام بتصميم المقاطعات في الضفة الغربية ما عدا مقاطعة رام الله.

يلخص ميشيل فوكو نظريته عن السيادة على اعتبارها دائرة من الذات إلى الذات، ويجب أن تصبح ذاتاً، على أنها عنصر إخضاع في علاقات السلطة. فالسيادة تقيم علاقة سياسية من الذات إلى الذات أولاً. أما ثانياً، فهذه النظرية تقدم في البداية تعدد السلطات، ولكنها ليست سلطات بالمعنى السياسي للكلمة إلا بشرط يجعلها تقيم بين الإمكانيات والسلطات وحدة أساسية، هي وحدة السلطة. أما وأن هذه الوحدة تأخذ صورة العاهل أو صورة الدولة، ومن صورة الدولة مثلاً سيتم اشتقاق مختلف ملامح السلطة وآلياتها ومؤسساتها.[١١٧]

تعكس إجابات المبحوثين سواء أكانوا من منتجي صورة العمار، أم من مستقبليها، مجموعة من تخيلهم عن ذاتهم في إطار تحقيق صناعة «الدولة» بشكلها الفلسطيني، وأن العمارة المقدمة في المقاطعات، بنموذجها الأمني، هي أساس من قوة التخيل وضرورة تحقيقه جمعياً. فإذا افترضنا أنها واقع مصطنع على حد تعبير بودريار أو «فوق-الواقع»، وقوتها تكمن في القدرة على تعميم الاصطناع في مصلحة الجموع، والجمهور، والجماهير، والطبقات، والأفراد، وإنتاجات للوعي تحفظ به وجودها على أنها البديل الوحيد والممكن للمجتمع،[١١٨] فتصبح التشريعات، والخطابات، والقانون متمفصلة حول مبدأ السيادة للحد الاجتماعي، وتفويض كل

١١٧ فوكو، ميشيل. يجب الدفاع عن المجتمع، مصدر سابق، ص ٦١.
١١٨ بوردبار، جان. المصطنع والاصطناع، مصدر سابق، ص ٣٧.

واحد بهذه السيادة، وفي الوقت ذاته تأخير للإكراهات الانضباطية التي تضمن وتؤمن فعلياً انسجام ذلك الجسد الاجتماعي.[١١٩]

أسوار وأبراج مقاطعة نابلس من الداخل

وأبراج مراقبة مقاطعة طولكرم

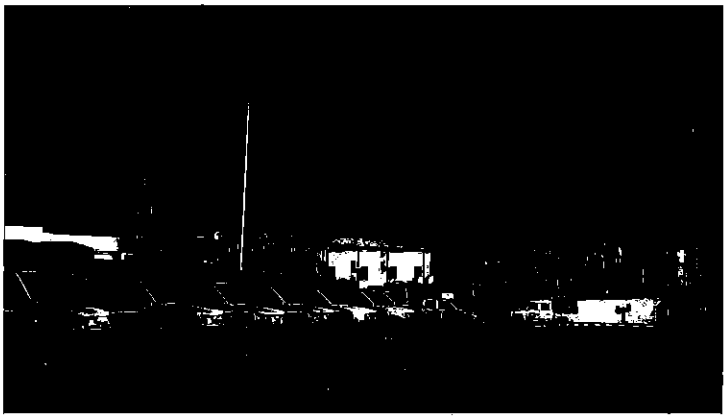

١١٩ فوكو، ميشيل. يجب الدفاع عن المجتمع، مصدر سابق، ص ٦١.

السجن في مقاطعة نابلس

الصور التي تم عرضها هي لأبراج المراقبة والأسوار، ويتخللها الشكل الفيزيائي للأجساد التي تقوم بتنفيذ الأمر القانوني داخل الفضاءات العامة، تنقل خطابات التشكل السلطوي في التوجه الفلسطيني الجديد، نحو شكل الدولاتية التي استهلينا به هذا الجزء، تشكل أحد عناصرها كما يطرح فوكو بأن السيادة ليس فقط أداة لربط الجميع في وحدة كوحدة المدينة أو الأمة أو الدولة، بل أصبحت لها وظيفة خاصة وهي الإخضاع.[١٢٠] تتم عملية الإخضاع هذه مع مجموعة من الأساليب العقابية التي تضمن لها البقاء والاستمرارية من قبل الأفراد الخاضعين «فالسلطة تنتقل بواسطة الأفراد ولا تنطبق عليهم»،[١٢١] فالفرد هو أثر من آثار السلطة أو نتيجة من نتائجها، إلا أنه يوصلها، فالسلطة تنتقل بواسطة من تشكل،[١٢٢] وكون هذه السيادة هي المنظمة للقانون التشريعي الذي يسمح بتركيب آليات الانضباط من خلال نظام من القوانين يقنع ويغطي الإجراءات التي تخفي ما يمكن أن يكون هيمنة وتقنيات الهيمنة، وتضمن لكل الذين يمارسونها حقوقهم من خلال سيادة الدولة.[١٢٣]

---

١٢٠ المصدر السابق، ص ١٩.
١٢١ المصدر السابق، ص ٥٤.
١٢٢ المصدر السابق، ص ٥٥.
١٢٣ المصدر السابق، ص ٦١.

مهبط طائرات في مقاطعة جنين (لحظة التقاط الصورة كان قيد التجهيز)

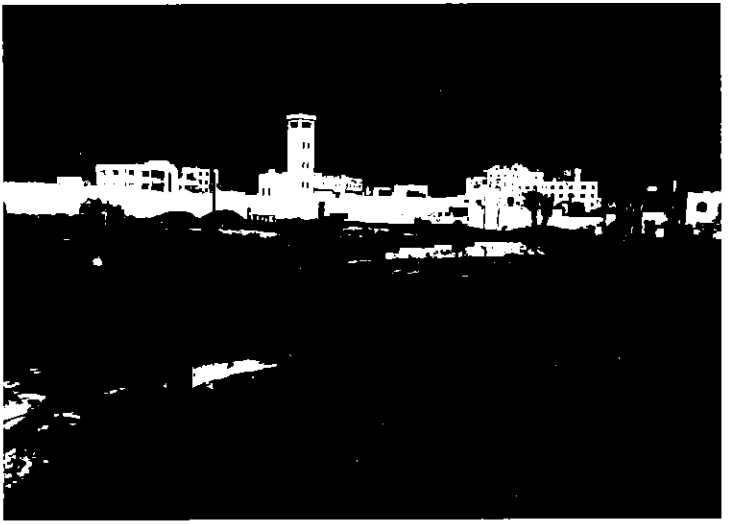

مهبط الطائرات في مقاطعة رام الله[١٢٤]

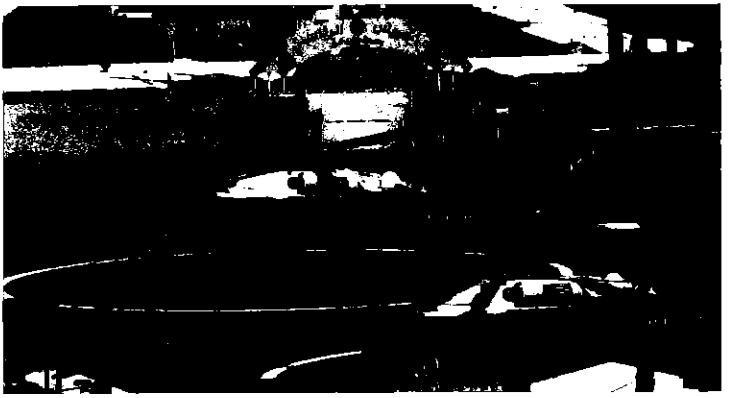

فما نلاحظه من إشكاليات الطرح المعماري الجديد للمقاطعات، ما يكمن في كمية أدوات التحصين الأمني مقابل «المواطن الفلسطيني»؛ كيف تخلق

١٢٤ أخذت الصورة من موقع: http://paltoday.ps/

السلطة بؤراً بصرية دفاعية يقابلها الفاعلون داخل مجتمعهم المستعمَر، لم يعرف طريق حريته من جدار الفصل العنصري، ليتداخل فضاؤه العام بنوعين من الانضباطات؛ الانضباطات الاستعمارية الإسرائيلية، والانضباطات السلطوية الفلسطينية المعاد إنتاجها من المستعمر على البصري والجسدي الفلسطيني في آن واحد. يتجسد كل ذلك في كمية أبراج المراقبة التي تحيط البناء الجديد للمقاطعات في كل الضفة الغربية، وعلو الأسوار الحصينة بـ«الباطون المسلح» التي لا يرى منها الفلسطيني ما في داخل إحدى مؤسسات «دولته» الجديدة. سيلاحظ ذلك التشابه في الصور المدرجة لبرج مراقبة إسرائيلي، وبرج مراقبة آخر في مقاطعة رام الله. كل ذلك يرتبط بإعادة إنتاجات علاقات السلطة حتى في المجتمع المستعمر، من خلال مفهوم الدولة المجتر، كما تم توضيحه في بداية هذا القسم، بحيث يربط زريق بين الحقوق والمراقبة من خلال مفهوم «جدلية السيطرة» فمفهوم المواطنة تم اعتناقه من قبل الدولة من أجل تقديم جميع الخدمات كدور تعزيزي للمراقبة.١٢٥ يقول هنا يزيد الرفاعي «فكرة المقاطعة هي السيطرة على الفراغ، فهي نموذج سيطرة ووجد للسيطرة على الفضاء العام، وبرمزيته التاريخية هي رمز لمعاناة الناس، لأنها كانت تمثل مركز الحكم الأردني، وثم مركز الحكم الإسرائيلي. هناك وجهتا نظر، لا بد من التعامل مع المقاطعات كشواهد إنسانية مهمة كانت عاملاً في تشكيل المدينة، وارتبطت بتفكير الناس، وعملت على تغيير هوية المكان حتى لو كانت سلبية، ولكنها أيضاً تعكس جانب المقاومة ضد الفعل الإسرائيلي الذي صار فيها، والاضطهاد الذي حصل فيها، وبالتالي أنا تماماً ضد إزالة أي شواهد ترجع الذاكرة لأحداث الاجتياح. ولكن أنا عندي مشكلة في تبني الوظيفة نفسها التي كانت في المقاطعة، وتعود لتصبح مركزاً للسلطة أو تملك أي طبيعة أمنية أو عسكرية، وظيفياً ممتازة جداً، إنها تكون سجناً لأنها بنيت لتكون سجناً، وإذا كانت مركزاً لفرض الرقابة على الناس فهي أيضاً ممتازة جداً، ولكن لو أنا مستشار، ولحسن حظي أنا لست مستشاراً عن ذلك، فبرأيي يجب عليهم أن يقطعوا أي صلة بين وظيفتها سابقاً أيام الحكم الإسرائيلي واليوم، ولكنها بهذا الشكل تعيد فكرة فايتسمان «بأنك تسكن بيت عدوك»، وبالتالي تصبح مرئياً على أنك العدو نفسه».[١٢٦]

---

١٢٥ زريق، إيليا. «بناء الدولة من خلال أدوات المراقبة»، مصدر سابق ص ٢٠٥-٢٢٧.

١٢٦

أبراج مراقبة إسرائيلية[١٢٧]

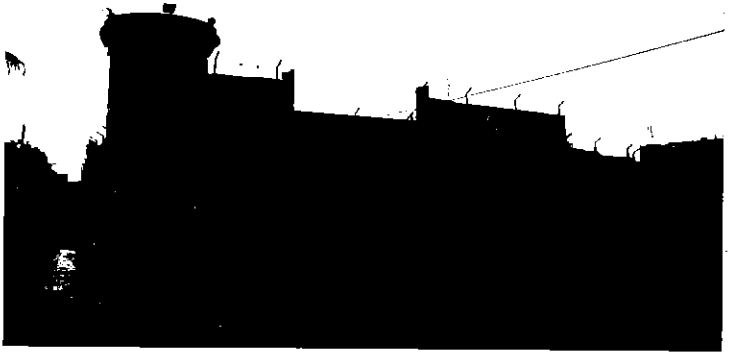

أبراج مراقبة فلسطينية[١٢٨]

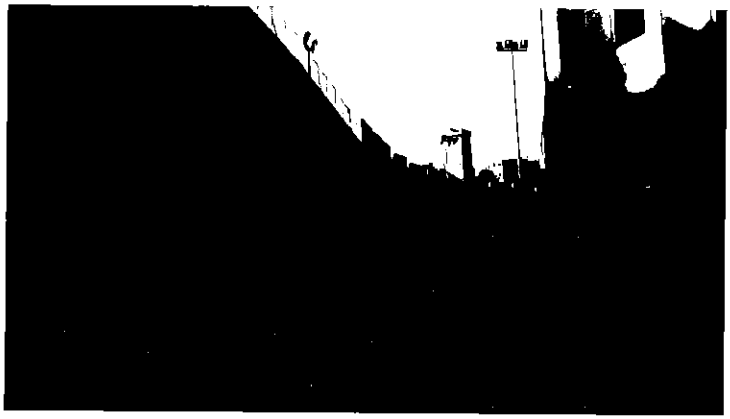

٣, ٢ فصل العمارة فصلاً تخصصياً في المؤسسة الدولاتية:

تظهر المقاطعات الجديدة شكلاً جديداً من التخصص المعماري، بفصل البناء مع التخصص الأمني للأجهزة، وذلك بعكس المقاطعات القديمة التي كانت بناءً واحداً يضم داخله كل الأجهزة الأمنية، حيث تضم

١٢٧ أخذت الصورة من موقع: http://www.almatareed.org/

١٢٨ أبراج المراقبة داخل مقاطعة نابلس المعاد إعمارها، الصورة من تصوير الباحثة.

المقاطعة مباني منفصلة لجهاز الأمن الوطني، والشرطة، والأمن الوقائي، والمخابرات العامة، وقائد المنطقة العسكرية، والمحافظة، والسجون، ومبنى الأركان، والمنامات. يعطي نينو عن ذلك تفصيلاً في تصميمه المعماري للمقاطعات الجديدة: «اليوم المقاطعة فيها جميع الأجهزة الفلسطينية داخلها، وكل جهاز يعرف اختصاصه واستقلاليته، مبنى المحافظة له استقلاليته عن مبنى الأمن الوطني، وعن السجن، وعن المستشفى، فكانت الفكرة بنايات مرتبة ومنفصلة، وبينها مساحات (landscape)، فعندما يدخل عليه المواطن أيام الإنجليز كانت تخيف المواطن، لأنها كانت تمثل حكم الإنجليز، وكانت الفكرة أن نزيل الرعب من قلب المواطن اتجاه المقاطعة، ولكن أن تبقى تعكس صورة السلطة الفلسطينية الموقرة، فإحنا بدنا نرجع مقاطعة فلسطينية بنموذج فلسطيني داخل الأرض التي شكلت رعباً للفلسطينيين من قبل».

يذكر د. اشتية في مقابلته عن مقاطعة نابلس: «إن فلسفة المشروع تقوم على أن يعكس التصميم أهمية ووظيفة المشروع، وهي: النظام والقانون والسيادة، والأمن وخدمة المواطنين، حيث تم تصميم المباني معمارياً بشكل يتناسب مع طبيعة المشروع، ويكون متجانساً مع النسيج العمراني الفلسطيني، ومعبراً عن الهوية الفلسطينية».[١٢٩] ويتناقض ذلك بما جاء به المهندس يزيد عناني في محاضرة له عن العمارة وتغيراتها فلسطينياً، حيث أبدى قلقه اتجاه ملامح عمارة اليوم، هذا الملمح الذي يتصل بإعادة إنتاج المبنى -الثكنة. ويطرح، على سبيل المثال، «المقر الرئيسي للسلطة الفلسطينية في المقاطعة» في مدينة رام الله، بحيث يشكل حالة خاصة بطبيعة الحال، لكن خصوصيته عممت على مجمل فلسطين. هذه العمارة تقترح علينا الظن أن أهل السياسية يخافون من شعبهم. قد يندهش المرء حين يرى السلطة تستخدم عناصر دفاعية في عمارتها، كما لو أنهم يخشون العابرين من مواطنيهم.[١٣٠]

تمتلك المؤسسة نظاماً داخلياً يعكس للخارجي آليات الضبط والدمج الاجتماعي، فنظرية السيدة تحاول أن تبين كيف يمكن للسلطة أن لا تقوم

---

١٢٩ مقابلة «معاً» مع وزير الأشغال العامة والإسكان، مرجع سابق.

١٣٠ عناني، يزيد، (Ramallah DCE)، محاضرة ألقاها عن العمارة بتاريخ ٢٢/ ٧/ ٢٠١١، من موقع: http://www.artterritories.net/

تحديداً على القانون، وإنما تقوم على نوعية من شرعية المؤسسة، مؤسسة أكثر من القانون، لأنها نوع من القانون العام لجميع القوانين.[١٣١]

فالمقاربة النسقية للمؤسسة تكمن في أنها تتشكل ضمن أربعة أنساق فرعية؛ وهي نسق الأهداف والاستراتيجيات، نسق الهيكل التنظيمي والبنية التنظيمية، نسق التقنيات والوسائل التكنولوجية، وأخيراً النسق الثقافي، وينظر للمؤسسة بأنها تعيش حالة تفاعل دائم بين هذه الأنساق الفرعية من جهة، وبينها وبين النسق الكلي من جهة أخرى، فمهمة النسق الثقافي يسطر في وظيفتين، الأولى هي تحقيق الضبط الاجتماعي، والثانية الدمج الاجتماعي. فآليات الدمج والتأقلم هي كفاءة جماعية، وليست فردية، كما أنها ضرورية من أجل بقاء الجماعة واستمرارها.[١٣٢]

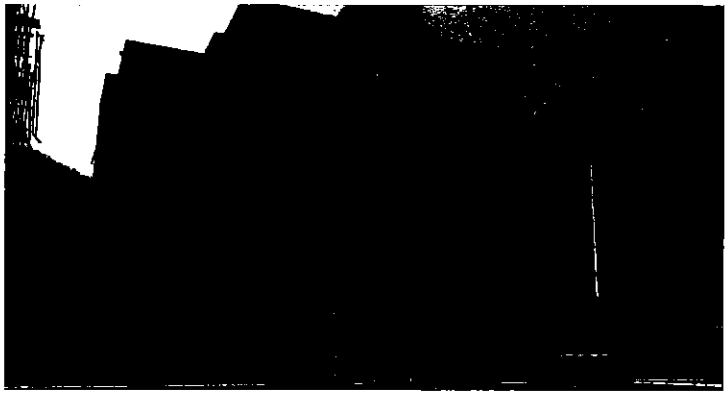

١٣١ فوكو، ميشيل. يجب الدفاع عن المجتمع، مصدر سابق، ص ٦٢.

١٣٢ المهدي، بن عيسى. «ثقافة المؤسسة كموجه للسلوكيات والأفعال في المنظمة الاقتصادية الحديثة»، مجلة الباحث، الجزائر: جامعة ورقلة، عدد ٠٣/ ٢٠١٤، ١٤٧-١٥٨.

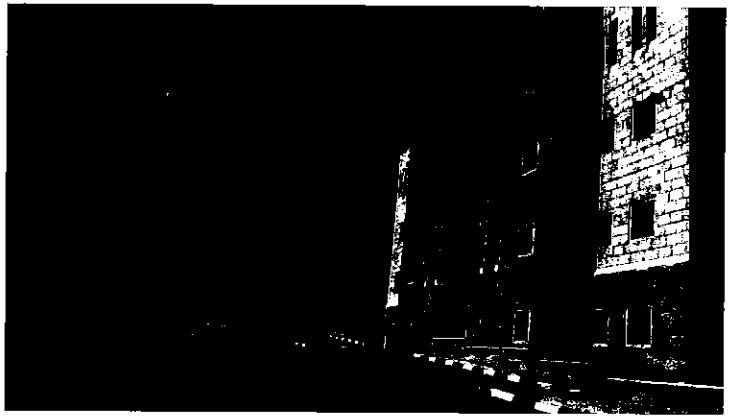

٤ , ٢ سوسيولوجيا الاستقبال «تلقي النموذج الأمني من الفلسطينيين»

يقدم هذا الجزء وصفاً لعملية التلقي لمنتج العمارة الأمنية المتمثلة في نموذج المقاطعات عند الفلسطينيين، ومن خلال ذلك رؤية تصوراتهم عن ذاتهم ضمن المؤسسة «الدولاتية الفلسطينية» وخطابها، واستدخال هذا الخطاب من خلال صورة العمارة المتلقاة وتداخلها مع تشكيل ذاكرة الأفراد. وعلى حد تعبير هالبواكس، فنحن نعايش الأشياء بالنظر إلى الآخرين قبل كل شيء وبالتقابل معهم، نعايشها في سياق أطر اجتماعية أخرى معطاة وموجودة سلفاً، تحدد لنا أهمية الأشياء ومغزاها؛ فلا توجد ذكرى بدون إدراك حسي.[١٣٣] والأساس في التوجه لرؤية المبحوثين المستقبلين هو بمحاولة إيجاد تحليل سوسيولوجي يخرج من دراسة إنتاج الهيمنة ورؤية الثقافة الأخرى وتصوراتها، ومدى تأثير الثقافة المهيمنة عليها، حتى يتوفر للسوسيولوجيا قدرة النقض الفعال الخارج عن اعتباط بنية الخطاب السلطوي في الإنتاج.

يأتي التلقي في هذا الجزء بارتباطه مع التفكيك؛ إن التلقي والتفكيك يلتقيان في إلغاء قصدية المنتج، أو يمكن القول إن التفكيك يندرج تحت

---

١٣٣ اسمن ايان، مرجع سابق، ص ٦٣.

نظريته الكبرى؛ نظرية التلقي، كما اعتمدها جاك دريدا؛ الذي جعل من نظرية التلقي ركيزةً في التفكيك، ويصبح المحور الرئيسي في العمل التحليلي هو المتلقي؛ على الرغم من أن المنتج تتحدد معالمه بالاعتماد على المحددات التالية؛ النسق، والنظام، والعلامة واللغة، والمنتِج، فإن التفكيك يقصر تحديد المعنى على المتلقي وحسب، إذ هو الوحيد الذي يُحدث ويحدد المعنى دون سائر العناصر، فأي مناقشة للتفكيك، لا بد أن تبدأ بالمتلقي وقبل التلقي لا يوجد شيء. وبهذا، فإن التداخل والتقارب بين التلقي والتفكيك قد أوجد بينهما لحمة ووحدة من الانصهار.[١٣٤]

إن حقل التلقي يمتلك مفهوم الوساطة، وهو ما يتوسط بين العمل المنتج واكتمال عملية التلقي عن الأفراد، وتأتي بين المؤسسات والوسطاء الثقافيين والنقاد وإعادة النظر في هذه التقسيمات ومن يتملكها، وظهور تقسيمات جديدة في الوساطة كالكلمات والأشياء، حتى وإن كانت كلها منظومة متداخلة من العلاقات.[١٣٥] تقوم عملية التلقي على إدراك المظاهر الحسية كحقيقة معقولة تدرك بالعقل، وتبرز المنظور الذاتي في تشكيل المعنى للأشياء المنتجة، ومنها أن يصبح معنى الظاهرة مرتبط بعمليات «الفهم»؛ أي أن المعنى هو خلاصة الفهم الفردي الخالص، والمهم في ذلك هو تأكيد «موضوعية المعنى» الذي يعتمد في فلسفته على الشعور الخالص، وتأكيد دور الذات في إدراك المادة وإحساسها.[١٣٦] فإن التلقي البصري و«العين المشاهدة» عند الفرد، تقوم على قدرته على تقديم ما يراه باعتباره «حقيقياً» بمعنى ما.[١٣٧] وعن إدراك المادة وخلق المعنى حولها، تم، في هذا البحث، اختيار المعمارية كمادة محسوسة ومنقولة في المشهد البصري عند المتلقين الفلسطينيين، يناقش إسماعيل الناشف في كتابه **العتبة في فتح الابستيم** أنه «لا وجود للمادة إلا إدخال الوعي فيها،

---

١٣٤ دريدا جاك. ما الآن؟ ماذا عن غد؟ الحدث، التفكيك، الخطاب، الجزائر: دار الفارابي، ٢٠١١، ص ٢٦- ٢٨.

١٣٥ اينيك، نتالي. سوسيولوجيا الفن، ترجمة: حسين فيسي، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠١١، ص ١١١.

١٣٦ خضر، عودة. الأصول المعرفية لنظرية التلقي، عمان: دار الشروق، ١٩٩٧، ص ٢٣- ٧٥.

١٣٧ هارفي، درفيد. حالة ما بعد الحداثة، بحث في أصول التغيير الثقافي، ترجمة: محمد شيا، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٥، ص ٢٨٦.

أو تغليفها وعياً».[١٣٨] ويضيف على ذلك أن المادة تحمل أشكالاً معرفية بسبب من تاريخ علاقاتها بالوعي؛ فالوعي هو جزء متحرك محرك للنسيج الاجتماعي التاريخي، يجري تكراراً إقصاء وإمكانية أن تحمل المادة أشكالاً معرفية ناتجة عن انشباكات علاقاتها الداخلية المستقلة عن الوعي من جانب، ويجري احتواء المادة مع انشباكها مع الوعي كحالة وعي معرفية من جانب آخر.[١٣٩]

ومع مفاهيم خلق المعنى والوعي والفهم بترابطها وانفصالها مع المادة والتلقي، لدينا في معمارية الفضاء الاجتماعي المنتِج والمنتوج والتلقي، وهو في هذا الجزء يمثل تصميم المقاطعات «النموذج الأمني» الموجودة في الضفة الغربية، وتشملها عمليات التسويق التي تقدم للفلسطيني بتعزيز أهمية بناء «الدولة الفلسطينية ومؤسساتها»، سواء في الإعلام، أو في مجموعة الرموز الدولاتية التي أخذت زخماً كبيراً داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، سواء بإعادة تسمية الأماكن، كدوّار الساعة الذي أصبح دوّار الشهيد ياسر عرفات، أو أسماء الشوارع، أو تفعيل سياسات محاسبة الفساد والتكنوقراط داخل المؤسسة الرسمية الفلسطينية، أو حتى بالتركيز المنهجي على إعادة إعمار البنى التحتية وتقديم الخدمات، وفيما يلي ستربط علاقة المادة المعمارية مع خلق المعاني ودراسة مدى تحقيق فعل الفهم عند الفلسطينيين المتلقين.

يجيب بعض المبحوثين عن رأيهم بالتصميم المعماري للمقاطعة كما يأتي:

محمد:[١٤٠] «نرى أن السلطة الفلسطينية بدأت بصنع ثكنات عسكرية، ومؤسسات أمنية ضخمة، وهذا ليس من الخطأ، فما المشكلة بأن تقوم لنا مؤسساتنا الضخمة بهذه الصورة».

ديما:[١٤١] «أنا أستغرب عندما أرى مقاطعة نابلس الجديدة، وأتذكر أيام المقاطعة القديمة التي كانت صورتها لا تعكس بأن ممكن لفلسطينيين أن يتملكوا دولة، أو يكونوا أقوياء حتى لو كان بالشكل».

---

١٣٨ الناشف، إسماعيل، العتبة في فتح الابستيم، رام الله: المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية - مواطن، ٢٠١٠، ص ١٧١.

١٣٩ المرجع السابق، ص ١٧٢.

١٤٠ محمد (٢٧ عاماً)، سكان مدينة رام الله.

١٤١ ديما (٢٩ عاماً)، درست وسكنت في نابلس، تسكن رام الله حالياً.

أبو علي:[١٤٢] «ومالو، الفلسطينيين بحاولوا يصنعوا دولة، والمقاطعات بتمثل رمز، خاصة وإنها كانت رمز للمقاومة في الانتفاضة الثانية، ويجب أن يعلم الإسرائيليين إنا لا نموت ونعيد بناء مؤسساتنا».

مؤمن:[١٤٣] «أنا لا أعلم ما الذي تريده السلطة فعلياً، ماذا سيأتي للفلسطينيين من كل الأبنية الضخمة التي نراها سواء في المقاطعات أو المؤسسات الرسمية الأخرى، صحيح أنه لا يمكن أن أنكر بأنها تشكل ضخامة وتعكس قوة سياسية أمام الإسرائيليين».

حنان:[١٤٤] «أكثر شيء بلفت انتباهي التركيز على أسوار المقاطعات، أشعر بأنه لا داعي لها، ولا أفهم لما يتم تسوير المقاطعة بها».

أبو أحمد:[١٤٥] «أنا لا أرى شيء من المقاطعة إلا أسوارها فكيف سأحكم على التصميم!».

كبها:[١٤٦] «يجب أن تمتلك السلطة الفلسطينية أبنية كهذه لتعكس قوتها».

محمد عيسى:[١٤٧] «يا الله، يمكن الشخص فينا مستحيل أن يتذكر أو عن يحاول التذكر كيف كانت المقاطعة من قبل، اليوم نراها بعظمة دون ذكريات الحصار والقصف الذي تعرضت له في الانتفاضة الثانية، يمكن هذا ما يميز الفلسطينيين، نتجاوز ما حدث وما يهمنا هو اليوم، وكيف سنعيش، وأظن أن الشخص يشعر بارتياح أكبر عندما لا يرى الهدم أو القصف، صعب نتخيل حالتنا مثل حالة أهل غزة، وكل ما نراه حولنا هو الدمار، يعني أظن أنه إنجاز للسلطة الفلسطينية وللشعب الفلسطيني».

---

١٤٢ أبو علي (٤٢ عاماً)، سكان مدينة طولكرم.
١٤٣ مؤمن (٣٠ عاماً)، من سكان مدينة رام الله.
١٤٤ حنان (٢٦ عاماً)، من سكان مدينة طولكرم، وعملت في مشروع مقاطعة طولكرم.
١٤٥ أبو أحمد (٤٥ عاماً)، سكان مدينة طولكرم.
١٤٦ كبها (٣٢ عاماً)، من جنين ويسكن رام الله.
١٤٧ محمد عيسى (٤٢ عاماً)، من سكان مدينة نابلس.

شاب فلسطيني يرسم على كتلة مهدومة من المقاطعة في رام الله ٢٠٠٢ [١٤٨]

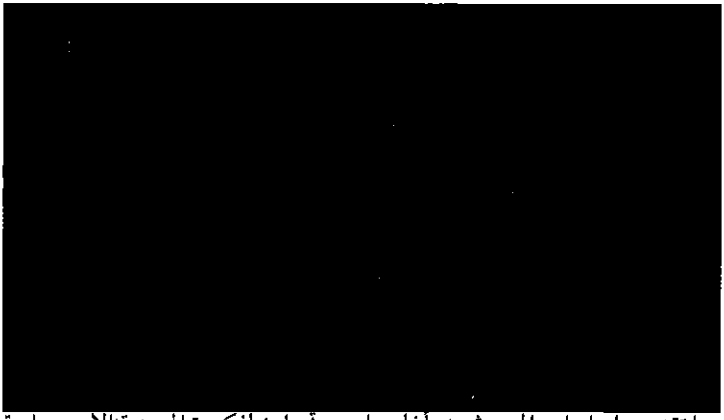

ما تقدمه إجابات المبحوثين بأغلبها هو تجاوز لفكرة الهيمنة الاستعمارية والواقع الاستعماري المتواجدين فيه إلى التركيز على أهمية وجود لمؤسسات الدولة، وإظهار هيمنة وقوة الفلسطيني بدولته، وهذا يظهر الاستبطان الكامل للخطاب الذي تريد ترسيخه المؤسسة الرسمية الفلسطينية؛ «فجدران المؤسسات بالذات «تسوّر» النظر والسمع بعدما كانت هي نفسها مسوَّرة بكثرة من العوائق والضغوط التقنية والإدارية والاقتصادية والفنية التي حكمت إنشاءها».[١٤٩] ويصف دوبري تلقي الصورة التي أزالت ذعر الحرب وأثر الموت بالتقنيات الجديدة، بأنها قد وصلت لمرحلة تقديس البعد عن الموت حتى لو كانت هذه الصورة تمثل مرحلة من إنكار الواقع بألمه الذي تمت مواراته، «يوجد المقدس في نظرنا، حيثما تنتج الصورة باتجاه شيء آخر غير نفسها. أما الصورة باعتبارها إنكاراً للآخر، بل وحتى للواقع، فقد ظهرت بقوة في عصر «البصري»، هذا الذي نزع عن الصورة طابعها المقدس متظاهراً بأنه يكرسها»،[١٥٠] ويحاول منها الفلسطينيون خلق حالة من التميز والخصوصية في تصورهم عن ذاتهم، أو مشروعهم ضمن الحلول المقدمة؛ سواء أكانت صوراً بصرية تعكس خطاب المؤسسة، أم خطابات تنفي وجود حلول قادمة تخرج عن الإيمان بفكرة «الدولة» وبنائها حتى مع بقاء الواقع الاستعماري.

---

١٤٨ صورة التقطت من المصور جمال العاروري، ٢٠٠٢، حقوق الطبع محفوظة للمصور.

١٤٩ اينيك نتالي، مرجع سابق، ص ١٢٠.

١٥٠ دوبري، ريجيس، مرجع سابق، ص ٤٧.

خلقت المؤسسة الرسمية الفلسطينية، بخطاب الدولة وبنائها، فاعلية لعملها من خلال المتلقين، وبهذا شكلت لها من خلال عمارة «النموذج الأمني» سلطةً رمزية؛ وهذه السلطة لا تعمل إلا من خلال الاعتراف بها، وتتحدد بفضل علاقة معينة تربط من يمارس السلطة بمن يخضع لها؛ أي أنها تتحدد الذي يؤكد فيها الاعتقاد ويعاد إنتاجه. وتمتلك بذلك القدرة على الإخفاء والقلب التي تحقق تحولاً جوهرياً لعلاقات القوة والتغلب، عاملةً على تجاهل ما تنطوي عليه من عنف، وعلى الاعتراف به في الوقت نفسه، محولةً إياها إلى سلطة رمزية قادرة على التأثير الفعلي دون بذلٍ للطاقة.[١٥١] وبورديو يطرح أن «البنى المكانية تعيد بناء ليس صورة الجماعة عن العالم فحسب، بل والجماعة نفسها أيضاً، بحيث تنظم نفسها وفقاً لهذه الصورة».[١٥٢]

ومن أثر السلطة الرمزية التي خلقتها المؤسسة الرمزية من خلال العمارة، أنها نقلت عقلانية تواجد هذا النوع من المعمارية داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، واعتباره تمثيلاً للذات الفلسطينية المتلقية والمنتجة، ومنها أن يقوم مجموعة من الشباب الفلسطيني برسم وجوه ضاحكة على جميع إشارات المرور في رام الله، ما عدا إشارة المرور عند المقاطعة طبعاً مربوطة بتصميمها الأمني المنفصل عن حركات تخفيف حدتها.

ومن كل ما سبق، إذا كان جورجيو أغامبين قد تحدث عن مفهوم الاستثناء الذي تخلقه الدولة، فقد قام الفلسطينيون بخلق مفهوم «استثناء الاستثناء»، وفرض الممارسات الدولاتية عليهم حتى من قبل وجود الدولة الحر أو الفعلي، وإن كان هذا فخاً لفرض قواعد واستثناءات جديدة للقواعد المفروضة ضمن واقع استعماري مسبقاً يمارس الاستثناءات والإقصاء للفلسطيني، ويحبس الفلسطيني بحلول السلطة الوهمية التي قد تساعدهم على غلبة الاستعمار.

---

١٥١ بورديو، بيير. السلطة والرمز، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ٢٠٠٧، ص ٥٥-٥٦.

١٥٢ هارفي، ديفيد، مرجع سابق، ص ٢٥٤.

يمكن اتخاذ الحالة التي يمر بها الفلسطينيون، كما يطلق عليها السقا،[١٥٣] مفهوم الاختيار الاجتماعي، وحالة تشوه الواقع الاستعماري التي تظهر في الواقع الفلسطيني المعاصر؛ والتي من خلالها يتم استحضار مجموعة من الخطابات التي تعمل على وسائل الإقناع مختلفة التأثير على تمثلات الناس وتخيلاتهم الجمعية عن حياتهم تحت الاستعمار، ووضع مشاريع «التحرر» على جنب، ومنها الخطابات القانونية والحقوقية المربوطة بتحقيق الدولة، وجعل المجتمع في حالة انتظار للحل الذي قد يأتي معها.

١٥٣ السقا، أباهر. «قراءة في الاختيار الاجتماعي»، موقع فلسطين: ٢٠١٢. http://palestine-assafir.com/

٣

الفصل الثالث

مكان الذاكرة يَلُفُ البلدات القديمة الفلسطينية

«البلدة القديمة في نابلس والبلدة القديمة في رام الله .. نموذجاً»

يقدم هذا الجزء من الدراسة قراءة بصرية سوسيولوجية لمعمارية البلدة القديمة في نابلس، والبلدة القديمة في رام الله، وبالتحديد يقدم هذا الجزء كلتا البلديتين في صورتهما بعد تعرضهما لحرب الاستعمار أثناء اجتياحات الضفة الغربية في الانتفاضة الثانية. ما ستتم مناقشته في هذا الجزء عبارة عن إعادة قراءة مشهدية تاريخية/ اجتماعية لما شهدته البلدتان من معركة تداخل بها العمار مع المقاومة أثناء استخدامه كدرع للمقاومة الفلسطينية، وكذلك مجموعة الاستراتيجيات العسكرية التي تم استخدامها من قبل الاستعمار الإسرائيلي في التدمير الحضري أثناء الحرب. كما سنرى كيف يتم تجسيد أو مواراة «أسطورة» العمار للمقاومة والمقاومين الذين سقطوا داخل هذه الفضاءات.

صورة للبلدة القديمة في نابلس[١٥٤]

١ , ٣. التدمير الحضري ممارسة استعمارية تُضيع هوية المكان

البلدة القديمة في نابلس فترة الاجتياح في الانتفاضة الثانية ٢٠٠٢ [١٥٥]

١٥٤ أخذت الصورة من موقع بلدية نابلس: www.nablus.org

١٥٥ الصور للمصور الفوتوغرافي عبد الرحمن القوصيني.

يكمن التحليل في هذا السياق عبر دراسة آلية تدمير العمار قبل الوصول لتحليل إعادة إعماره؛ وبخاصة الممارسات الاستعمارية التي حاولت القضاء على المكان/ الهوية في هذا الفضاء الاجتماعي، الذي يتميز بمعمارية تاريخية أثرية، تستحضر «أسطورة» المقاومة. تقبع آثار المقاومة في زوايا وحجارة أركان البلدات القديمة الفلسطينية، وتتميز بكونها مخططة بشكل متاهة لعدوها، ولا يعرف قلبها إلا أهلها تبعاً لهندسة معمارية تاريخية صُممت فيها.

يقوم مفهوم التدمير الحضري تبعاً لستيفين غراهام على ثلاثة محاور؛ الأول بتدمير المدن باعتباره سياسة ضد المدينة، والثاني باعتباره جزءاً من عمليات الإقصاء، أما الثالث فهو أحد مبررات الحرب على «الإرهاب». إن التدمير الحضري يقوم على إنهاء مجموعة من البنايات المعروفة والمتشاركة في الفضاء العام بقصد تدمير الجمعية المجتمعية، والتنوع، لتحقيق نوع من التجانس الفوقي العنصري، مثل جدار الفصل العنصري بين العرب الفلسطينيين واليهود، نحو خلق دولة يهودية متجانسة، ومنفصلة عما بجانبها. تضم جميع محاور التدمير الحضري منظومة من الاستراتيجيات والأغراض العسكرية.[١٥٦] سنذكر استراتيجيتين يتخذهما المستعمر الإسرائيلي في فلسطين، وكلتا الاستراتيجيتين تقومان على مفهوم أيديولوجي مطبق من دولة سياستها الأساسية «إنكار الآخر»، عبر ممارستها الاستعمارية بكل الأشكال. فالاستراتيجية الأولى تقوم على تدمير الحضري من خلال البناء، وذلك عن طريق فرض الرقابة والضبط المتمثلة في بناء المستعمرات وشبكات الطرق المتقاطعة داخل المناطق الحضرية الفلسطينية، والمصانع بإفرازاتها الكيمائية والاستعمارية الاقتصادية. يحلل أليساندو بيتي هذه الاستراتيجية في دراسته لشبكة الطرق في الفضاء الفلسطيني، ويرى أن «فضاء التدفقات الملموسة واللاملموسة، هو الفضاء المفضل للسلطة لممارسة سيطرتها. فاحتلال هذه الأماكن هو ما يوفر للنخبة الاستعمارية موقع السيادة. وإذا كانت النخبة من جهتها، قادرة على تبادل المعلومات وعلى التنقل بسرعة أكبر، فإن الغالبية، من جهة أخرى، محرومة من حق الحركة والإقامة المعترف بها عالمياً».[١٥٧]

---

١٥٦ Abujidi, Nurhan and Verchure, Han, Military occupation as Urbicide by construction and destruction the case of Nablus, Palestine, Katholieke University Leuven, Belgium,2006, 198-199.

١٥٧ حنفي، ساري، وآخرون، مرجع سابق، ص ٥٢.

أما الاستراتيجية الثانية التي تتقاطع تحديداً مع البحث، فهي تدمير المدن من خلال الهدم؛ وهي استراتيجية استعمارية تقوم على إزالة مظاهر حضرية من مدن، وقرى، ومساكن بأكملها أو جزء منها خلال فترة زمنية قصيرة كما حدث على المجتمع الفلسطيني العام ١٩٤٨، والعام ١٩٦٧.[١٥٨]

الاستراتيجية الثانية المعنونة بالهدم، وبخاصة للبلدات القديمة، يقوم خلدون بشارة[١٥٩] بالإشارة إليها كما يأتي: «إسرائيل لما احتلت فلسطين دمرت المئات من القرى، على استمرار سنين الاستعمار، وهذا ليس ادّعاء، وإنما تاريخياً قاموا بتهديم هذه القرى، وذلك أدى إلى خسارة كل الناس للفضاء الذي يملكونه، وبخاصة المرأة، فعندما كانت في القرية كانت «تصول وتجول»، أما في المخيم فلم يعد لها هذا الفضاء التي تمتلكه وتفرض بعضاً من سلطتها عليه، وحصل في العام ٦٧ عندما دمرت أحياء كاملة في القدس، وهذا حصل في الـ ٢٠٠٢ في البلدة القديمة في نابلس، عندما دمرت مجموعة من المصابن، ولكن إسرائيل لا يوجد لها أي سبب عسكري للقيام بالتدمير، لأن أهدافهم كان يمكن تحقيقها بدون تدمير، فالإسرائيليون دمروا ما دمروه، وما لم يقوموا بتدميره تم أخذه وترميمه وصناعته على أنه هويتهم، في بيوت في فلسطين ٤٨ لم يقتنعوا أنها بيوت فلسطينية عثمانية!! قالوا أنها أكيد هي بيوت من الزمن الصليبي، بحيث لا يمكن أن يكون الفلسطينيون قد وصلوا لهذه التقنيات في العمارة، وبالتالي ما تم أخذه تم اعتباره جزءاً من هويتهم، وما بقي لنا نحن الفلسطينيين اعتبروه شيئاً بدائياً، وليس مهماً، وأصبحنا أنفسنا نعتبر ذلك، بنوع من تأثرنا بسلطتهم. ولا يمكن إنكار أن العمارة تم استخدامها من قبل السلطة الاستعمارية للمراقبة كالحواجز، فثلاثة حواجز تفصل الضفة الغربية عن بعضها، ووضعوا أبراج المراقبة وأسواراً عالية للفصل. وهم استخدموا العمارة بعكس المعنى الإيجابي لها، المعنى الإنساني الذي يقوم بعكس الهدم».

---

١٥٨ Abujidi, Nurhan, previous reference,202.

١٥٩ خلدون بشارة، مهندس معماري فلسطيني يعمل مديراً لمركز المعمار الشعبي – رواق المختص بترميم العمار وإعادة إحيائه.

مقطع من الدمار الذي حل بالبلدة القديمة في الـ٢٠٠٢ [١٦٠]

قام مركز المعلومات الوطني الفلسطيني «وفا»[١٦١] بتسجيل مجموعة من ممارسات التدمير الحضري الذي قام بها المستعمِر الإسرائيلي في البلدة القديمة في نابلس، بحيث تم تدمير العديد من المراكز الحضرية والمساكن في البلدة القديمة في نابلس، مثل دور العبادة كجامع الخضراء، والجامع الصلاحي الكبير، ومسجد النصر، ومسجد البيك، وجامع الحنبلي، وجامع الأنبياء، وجامع الساطون، ومقام الشيخ مسلم، وكنيسة القديس ماريميتروس، وكنيسة القديس فيلبس الأسقفي، وسرايا الحكم العثماني، وقصر عبد الهادي، وقصر النمر، وقصر طوقان، وحمام الشفاء، ومجموعة من المصابن، إضافة إلى تدمير المدارس كالمدرسة الفاطمية، وأيضاً تدمير الأسواق والمحلات التجارية. كما طالت عمليات الهدم والقصف ما يقارب ٤٠٪ من منازل البلدة القديمة.

يتم تدمير مجموعة كبيرة من المباني الأثرية تحت مفهوم التدمير الحضري للمدن، الذي لا يقوم على مجرد تدمير بناء ما أو تدمير المكان؛ بل يكمن فيما تعنيه الشواهد الحضرية لهوية مجتمع ما، وما يمثله هذا العمار

---

١٦٠ أخذت الصورة من موقع: http://www.alwatanvoice.com/

١٦١ مركز المعلومات الوطني الفلسطيني-وفا، الاحتلال يدمر التراث الحضاري والثقافي للبلدة القديمة في نابلس، الهيئة العامة للاستعلامات، نابلس: ٢٠٠٤، www.wafainfo.ps

لساكنيه، وما التاريخ الذي يعيد إنتاجه في فضاءاتهم اليومية برمزيته التي تجذرهم معه في معركتهم ضد المستعمِر. يربط خلدون بشارة الممارسات الاستعمارية المستهدفة للمعمارية الفلسطينية، على أنها جزء من القضاء على هوية حضارة وشعب ما، حتى تنتهي مرحلة المقاومة فيه: «نحن لا نملك التجربة الكبيرة عن إعادة الإعمار بعد القصف، المفروض أنو المستعمِر ما يقصف هذه المناطق، ولكن بنفس الوقت على كل دولة مستعمَرة أن تحدد هذه المناطق ذات الأهمية وتشير إليها حتى لا يتم استهدافها، ولكن تاريخياً لم يحترم أحد هذا الأمر، هتلر بعد ما مات كانت بريطانيا تستمر في تدمير فرانكفورت، وكانوا يقومون بضرب مباني لا يوجد فيها مقاومة، وكان الهدف واضح، وهو تدمير ثقافة النازية، والمباني التاريخية هي جزء منها، بحيث عندما تريد أن تضعف علاقة الناس بحيزهم بمنطقتهم، فيجب أن تضرب رموزهم، مثل مبانيهم، وقصورهم، وسجونهم، ومقرات السلطة لديهم، كان هناك دائماً علاقة جدلية بين التراث والهوية، وأغلب الأحيان لا يوجد أهداف عسكرية عند التدمير، ولكن هذا جزء من إنهاء حضارة ما».

يوافق ساري حنفي أن التدمير الذي حل ليس تدميراً مكانياً فحسب، بل تدمير حضري بمعنى أنه تدمير ينتج القليل من الموت أحياناً. إن التدمير الذي حصل في الحرب الإسرائيلية لا يشمل فقط الأبنية، بل ذاكرة السكان من خلال دمار الأبنية. إن ذلك يشكل الرابط بين هوية المكان الحضرية والحرب التي تخصص تقنيات جديدة لتدمير المدينة. يستعمل المستعمر الإسرائيلي مجموع التقنيات هذه لأنه يعد الفلسطينيين حالات استثنائية من خلال السياسة الحيوية التي تجيز لهم فرض مبرراتهم لتدمير الفضاء المعاش الذي يعيشه الفلسطينيون، من أجل تسهيل إخراجهم من الأرض وتدمير الهوية الباقية لهم.[١٦٢]

إن تدمير إسرائيل للمصابن النابلسية، هو جزء من القضاء على تاريخ وهوية مدينة نابلس، التي تتميز بصناعة الصابون النابلسي الشهير، الذي شكل قطاعاً صناعياً كبيراً في نابلس مع كثرة المصابن التي كانت موجودة فيها، ولكنه أصبح معرضاً لعمليات الإمحاء من داخل معمارية البلدة

---

١٦٢ حنفي، ساري. «التطهير المكاني، محاولة جديدة لفهم استراتيجيات المشروع الكولونيالي الإسرائيلي»، مجلة المستقبل العربي، العدد ٣٦٠، ٢٠٠٩، ص ٢-٦.

القديمة، من خلال استراتيجيات التدمير الحضري الذي تمارسه إسرائيل. إن المصبنة لا تعد مورداً اقتصادياً لأهل نابلس فحسب، وإنما جزء من رمزية المكان «فالأماكن نفسها ترتقي وترتفع لتصل إلى مرتبة «الإشارة أو الرمز، أي بتعبير آخر تتم سمطقة هذه الأماكن»،[١٦٣] ولكن العلامات آخذة بالزوال من المشهد المعماري البصري للبلدة القديمة في نابلس، مع التدمير المسبوق الذكر. يرى لطفي[١٦٤] أحد ساكني البلدة القديمة في نابلس: «أن البلدة القديمة غريبة بدون الصبانة، يمكن لأنها كانت جزءاً من النابلسية ليس فقط في المكان، بل في كل شيء».

يسرد خلدون بشارة ما حدث بعد واقعة تدمير المصابن، وتدمير هذا المشهد البصري عند سؤاله عن محاولات إعادة إعمار المصابن التي تم هدمها فترة اجتياح نابلس: «عندما تم تدمير المصابن في نابلس، اتصلنا على نابلس، وقلنا صحيح أن نابلس قد تعرضت لمصيبة كبيرة، ولكن علينا أن نقلل من الخسائر، بالتالي نعلم أنه يجب إزالة الركام، وهم كانوا يهمون بإزالة الركام في حال إذا كان تحت الركام أي جثث لدفنهم. ولكن قلت لهم أنه يجب أن نزيل الحجارة بشكل منظم، بحيث تتم إزالة الركام بشكل شبكة، وبالتالي ستتوفر المعرفة إذا أردنا إعادة بناء البلدة القديمة من أين كان الركام وأن تكون المواد موجودة كما كان محلها أصلاً قبل الهدم، ولكن قامت البلدية بجرف كل الركام وكبه في الوادي. ولكن يوجد العديد من الطرق في التعامل مع أبنية هدمت، وهناك مبررات عديدة مقبولة لإعادة البناء، أما في رواق فنحن ضد إعادة البناء المهدوم إلا إذا كان جزء الهدم وظائفياً. نعم صحيح أن المصبنة هدمت بطريقة استعمارية، وهناك أكثر من طريقة لإعادة إحيائها، مثل أن تبنى بطريقة متحفية، ويوضع أساسها مثلاً والخط الأول لها؛ كأن تمشي فيها على أنها آثار، أو تعمل تصوير «بروجيكتر» في الهواء، هذه طرق لإعادة الرمزيات، إلا أن هناك أشياء تمس حياة الناس اليومية، ولكن المصابن لم تكن كذلك، لأن أصحاب المصابن التي هدمت قاموا باستئجار محلات خارج البلدة القديمة لتصنيع الصابون فيها. في البندقية عندما هدم برج سان ماركو، قرروا إعادة بنائه لأن أهل البندقية لم يستطيعوا أن يروها بدون هذا البرج،

١٦٣ أسمن، ايان، مرجع سابق، ١٠٢

١٦٤ لطفي (٣٢ عاماً)، أحد ساكني البلدة القديمة في نابلس.

فالمشهد البصري تدمر، وأكثر ما أتذكره من إفساد للمشهد البصري، هو ما قامت به إسرائيل في الـ٢٠٠٢ من تدمير أبراج الإرسال، ولم يكن لأهداف عسكرية، ولا أستطيع تخيل رام الله بدونه، وهو كان يحمل التحويل الإذاعي، الآن لو قالوا لي ماذا تفعل، أقول لنعيد بناءه مرة أخرى حتى لو كان وظائفياً لم يعد له هذه الأهمية، ولكن رام الله ليست كما هي بدونه. كما سأشعر نفس الشيء لو ذهبت قبة الصخرة من المشهد».

من حيث أهمية المشهد البصري وآلية استقباله، يصف دوبري الصورة وتعلق الفاعلين بأجزاء المشهد؛ بأن الصورة ذات فضائل، فهي رمزية، أي أنها تعيد لحم وتكوين المشتت. لكن تمثيلاً على فضائلها السابقة، ولكي يجسد الرمز أو يعاد التجسيد عليه، على الرغم من الآلية المنطقية للاكتمال، وأن يحتسب في العتبة حضور ووجود شريك خفي. من يرى هو الذي يربط الصورة بالمعنى؛ فمن يوحد يكون قد أحسن فعلاً. لكن وحدها الإحالة على البعيد أي على طرف ثالث ترميز تمكن صورة ما من إقامة علاقة معينة مع رائيها وبطريقة غير مباشرة بين الرائين أنفسهم».[١٦٥] فهل بالإمكان جعل هذا التحويل عند من يستقبل المشهد البصري من زائري البلدات القديمة أو ساكنيها سهلاً دون المعرفة، أو الوعي بالإحالة والترميز إذا كان العمار قد أزيل وجرف لينتهي تراباً في أحد مكبات المدينة!

ويضيف خلدون بشارة على موضوع تدمير المصابن: «لما تم تدمير المصابن في نابلس بعض الأشخاص قالوا الآن حصلنا على «بحبوحة» في البلدة القديمة، الآن كلمة بحبوحة نتجت عن حاجة الناس للساحات، للفضاء العام، أو أن الخاص سيصبح عاماً، بحيث أن أرض أصحاب المصابن ستصبح عامة، وهذا كله كذب طبعاً فالملكية الخاصة لها قداسة في بلادنا. وفي رواق ما كان في أيدينا أي شيء، لأن هذا كان قرار البلدية». إن التمثيل البصري للأشياء مستند في بنائه إلى مجمل دلالاته الاستقبالية، وإلى معرفة سابقة مودعة في الكائنات وعلاقاتها، ومودعة أيضاً في الأشياء وما يرافقها من استعمال وظيفي نفعي، أو استعاري.[١٦٦]

لم تكن المصابن وحدها التي تعرضت للتدمير داخل البلدة القديمة في

---

١٦٥ دوبري، ريجيس، مرجع سابق، ص ٤٧.

١٦٦ بنكراد، سعيد، مرجع سابق، ص ٥٦.

نابلس، بل احتوت البلدة القديمة على مجموعة كبيرة من شواهد التدمير الذي مُنيت بها معماريتها، سواء لفضاءاتها الخاصة بمنازل ساكنيها، أو قصور عائلاتها، أو حتى مساجدها، وشوارعها، وساحاتها، وستتم الإشارة إلى العديد منها وإعادة قراءة مشهدها اليوم، مثل قصر طوقان، أو قصر عبد الهادي، أو قصر خماش، ومختلف المساجد والمنازل التي تعرضت لعمليات التدمير نفسها أثناء المعارك مع الاستعمار، ولم يستهدف بعضها لإعادة إحيائه في المشهد البصري للمعمارية الفلسطينية، ولم يقصى البعض الآخر عن البصري والإحيائي وحتى الوعي به. يطلق اسمن على مجموعة العلاقات المزدوجة بين مفاهيم الأشياء وصور إدراكها ما يدعى باسم «شخوص الذاكرة»، الذين يمكن تحديدهم من خلال ثلاث سمات هي علاقتهم المحددة بالمكان، والزمان، ومجموعة من البشر، حتى تتم إعادة تركيبها، أو إنتاجها كمنهج مستقل بها.[١٦٧]

قصر طوقان ٢٠١٤ [١٦٨]

١٦٧ أُسمن، ايان، مرجع سابق، ص ٦٧.
١٦٨ تصوير الباحثة، ٢٠١٤.

إحدى الغرف في قصر طوقان في نابلس ٢٠١٤، التي تظهر آثاراً للرصاص، من فترة الانتفاضة الثانية[١٦٩]

وعن «أسطورة» المقاومة التي تشكلت كأحد تمثُّلات النابلسيين عن البلدة القديمة في نابلس، يستعيض البحث ببعض الإشارات من أدب الرواية، التي حاولت سرد يوميات بعض مما حدث في البلدة القديمة في نابلس، حيث قامت الكاتبة الفلسطينية عفاف خلف بتصوير ذلك في روايتها **لغة الماء**،[١٧٠] التي تقوم بها بسرد يوميات معركة البلدة القديمة في نابلس بصورة أدبية، وتقول «في اقتباس نهج بيروت وتبني خطة الدفاع نفسها، حيث أن المقاومة تمركزت وسط بيروت الغربية في حي الفاكهاني، وبعض الأحياء الغربية، ومن هناك كانت تنطلق المجموعات العسكرية لأداء مهامها في عالية وجبل الباروك، وغيرها من الأحياء التي تحتلها القوات الإسرائيلية، حيث كان وسط بيروت القلب النابض الذي يحتضن المقاومة ويضخها في باقي الأحياء؛ بمعنى أن المدينة كلها ستكون مكشوفة لنيران العدو وسيدخلونها آمنين دون مقاومة تذكر، والبلدة القديمة ستشكل القلب الذي يفرز المقاومة.[١٧١] وتعيد بلدية نابلس إنتاج الصفة نفسها السابقة عن البلدة القديمة على موقعها الإلكتروني أيضاً باسم «البلدة القديمة .. قلب نابلس النابض»، بحيث

---

١٦٩ تصوير الباحثة، ٢٠١٤.

١٧٠ Abujidi, Nurhan, previous reference, 203.

١٧١ خلف، عفاف. لغة الماء، رام الله: مركز أوغاريت الثقافي، ٢٠٠٧، ص ٤٣

تعيد إنتاج رمزية المكان «المركز» والمقاوم المخفي بين التاريخ والآثار.

لم تقتصر مشاركة البلدة القديمة في نابلس على منح أجساد النابلسيين الفيزيائية للمقاومة، وإنما أيضاً شكلت مقاومةً معمارية صُقلت بشكل الدرع لتحمي الفلسطينيين الذين اعتبروها ملجأ تحتمي فيه خططهم العسكرية البسيطة، التي جعلت المستعمر الإسرائيلي يغرق المدينة بأمطار من المتفجرات والقنابل وقصف الطائرات بحججه العسكرية، وكذلك اجتياح البلدة بكاملها في الدبابات والبلدوزر عبر الطرق الضيقة والمنازل تحت ما سماه وايزمان «السير من خلال الجدران».[١٧٢] يجب الإشارة إلى أن الخرائط التي كانت بيد المستعمر كانت توضح الأماكن التي تتواجد بها الطرق الضيقة، والتي لا تستطيع الدبابات الدخول إليها،[١٧٣] وعلى الرغم من ذلك، كانت تحث على إحداث أكبر الضرر في المباني والمنازل، وهذا لا يتوافق مع المنطق العسكري، ولكنه يندرج تحت المسعى الأيديولوجي المذكور سابقاً لتهديم المكان بهويته وليس بناسه فحسب.

ونجد هذه الحالة للممارسة الاستعمارية في إحدى مؤلفات الكاتبة عفاف خلف في روايتها عن يوميات المعركة داخل البلدة القديمة في نابلس في حوارٍ بين المقاومين، كما توضح الأسطر القصيرة القادمة:

- في أي منطقة الاشتباكات؟

- بقرب مدرسة الروضة.

- سنبدأ بالعبور واحداً إثر الآخر.

- المنطقة مكشوفة كثيراً، وكشفوها أكثر عندما دمروا منزل آل الشعبي.

- سنلتصق بالحائط وستؤمن لنا البنايات الحماية، لن يستطيعوا رؤيتنا.[١٧٤]

يشير النص الأدبي الذي ذكر آنفاً إلى حدث تداخل العمار بالحرب، وتجسيد الطاقات العسكرية الاستعمارية لتفكيك حماية العمار للمقاومين داخل البلدة القديمة في نابلس. وفي الوقت نفسه تشير إلى عدم توقع

---

١٧٢ Abujidi, Nurhan, previous reference, 204

١٧٣ Abujidi, Nurhan, previous reference, 206

١٧٤ خلف، عفاف، مرجع سابق، ص ١٦٩.

من قبل ساكني البلدة القديمة لكم الدمار الذي لحق بالبلدة القديمة بعد الاجتياح، وعن ذلك هناك إشارة خاصة لهدم منزل آل الشعبي، حيث شكل الهدم صورة المجزرة لعائلة الشعبي التي خسرت ثمانية من أفرادها تحت ركام المعركة، والتي كانت بفعل تصدي المنزل ومنعه القوة الاستعمارية العسكرية من كشف المقاومين المحتمين داخل زوايا البلدة القديمة.[١٧٥]

مشروع مؤسسة التعاون لإعادة إعمار منزل آل الشعبي[١٧٦]

١٧٥ منزل آل الشعبي في حارة القريون تعرض لعمليات التجريف والهدم من قبل قوات الاحتلال فوق رؤوس سكانه، ففي نيسان ٢٠٠٢، تقدمت إحدى جرافات الاحتلال الإسرائيلي إلى بيت الشعبي في حارة القريون، وبدأت بهدم المنزل بهدف الدخول إلى الحارة دون سابق إنذار للسكان، أو وجود أي أعمال مقاومة في المكان، فانهار المنزل على من بداخله، وعبرت جرافة الاحتلال من فوق الركام، وكان يتواجد تحته أفراد عائلة الشعبي الثمانية الذين استشهدوا وانتشلت جثامينهم بعد ثمانية أيام من الحادثة، وهم: عمر الشعبي (٨٠ عاماً)، وأبناؤه سمير، وفاطمة، وعبير، في الأربعينيات من العمر، ونبيلة عانم زوجة سمير الحامل في الشهر السابع، والأطفال عبد الله، وعزام، وأنس الشعبي، كما تم انتشال اثنين من عائلة الشعبي أحياء بعد ثماني أيام وهم تحت الأنقاض، وهما: عبد الله أحمد الشعبي وزوجته المقعدة شمس الطحان، وذلك بعد أن سمحت قوات الاحتلال بوصول بعض فرق الإنقاذ إلى المنطقة: www.wafainfo.ps.

١٧٦ أخذت الصورة من موقع: www.alwalanvoice.com

منزل آل الشعبي بعد إعماره ٢٠١٤[١٧٧]

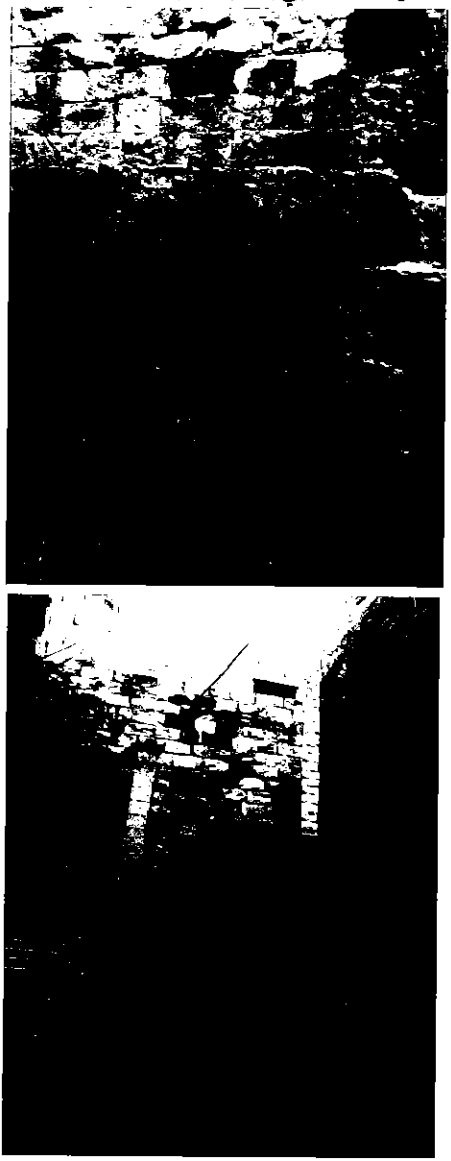

١٧٧ تصوير الباحثة، ٢٠١٤.

تقوم البلدة القديمة في نابلس على مجموعة ضخمة من ركام الحجارة الأثرية المهملة والمتروكة بعيداً عن البصري، لذا فإن محاولة استطلاعك لمكان محطم في البلدة القديمة في نابلس كقصر «خماش»، لا تحمل إلا الغرابة عندما تدخل إليه من فتحة في أحد المنازل لا يتجاوز قطرها ٥٠ سم، مجارياً فيها للفئران، والزواحف اللامعروفة، بحيث خلقت حياةً لها في مكان تركه الموت قبل الحياة. يحس أهل البلدة القديمة بثقل هذه الحجارة، وبخاصة عندما ترى غرفة مأهولة في أحد هذه القصور كقصر «عبد الهادي»، القصر الذي تسكنه أشباح ماضٍ ممتلئ بآثار الشقوق والدمار التي لا تفسر إلا بعين الذكرى. إن الأثر الشبحي[١٧٨] يأبى التناهي ويرفض الإمحاء مثل الندوب، أو الكدمات، أو حتى التجاعيد التي تشير إلى تقدم السن، ولكن يحضر الأثر على الرغم من الغياب، إنه حطامٌ يكافح للبقاء، فهو ما يُرى أو ما لا يُرى من كل شيء. اقتفاء الأثر بين الحطام هو لعب مع اللامرئي واستدعاء للمحجوب، واستذكار للفاني.[١٧٩]

قصر خماش داخل البلدة القديمة نابلس ٢٠١٤ [١٨٠]

١٧٨ راجع عن دريدا: ينتقل دريدا في اشتغاله بفكرة الشبح وأثره باعتبارها مقولة فلسفية تشير إلى المجهول ذي البنية الشبحية، ويُعري من خلال التفكيك لعبة الصمت، فوراء الشبح هناك واقع ملموس يعكس الشبح فيها صورة أو علامات من الأصل.

١٧٩ دريدا، جاك، ما الآن؟ ماذا عن غد؟، مرجع سابق، ص ١٣٤.

١٨٠ تصوير الباحثة، ٢٠١٤.

قصر خماش ٢٠١٤[١٨١]

من الملاحظ أن جميع هذه الآثار للدمار، قد تُركت كما هي، بل أصابها التلف بفعل الإهمال، أي أنها لم تحصل على منحة لإعادة الإعمار فقط، وإنما لإتلاف بفعل النفايات وآثار الطبيعة على الحجر، وبالتالي لا تختفي تحت معالمها المعركة، وإنما تختفي مجموعة من الرموز التاريخية والهوياتية التي تتغنى بها نابلس، بصورة لا محسوسة تدمر المشهد الحضاري- الأثري، وعن ذلك يذكر استيتية:[١٨٢] «إن الدمار الذي لحق بالبلدة القديمة كان كبيراً جداً، وبخاصة على المنازل والمحلات التجارية، ولكن الذي حدث هو بالمجمل إعادة إعمار وصيانة للمحلات التجارية، لأنها «أبواب رزق»، وبالتالي لا يمكن أن تبقى مدمرة، كيف سيدخل لها الناس ليشتروا إذا كانت مدمرة، أما المنازل فبعض السكان رموها بأنفسهم، والبعض الآخر حصل على تعويضات بسيطة من البلدية، أما القصور التاريخية الكبيرة، فلم يسأل عنها أحد، ومن الطبيعي ذلك، لأنها تحتاج لأموال طائلة، والدمار الذي لحق بها هائل، وبعضها ملكيات خاصة، ولكن لا البلدية تستطيع تمويل إعادة إعمارها، ولا أصحابها يستطيعون، فترك مع ذلك كله للنفايات». أما حازم مرعي[١٨٣] صاحب حمام الهناء في البلدة القديمة في نابلس فيقول:

---

١٨١ تصوير الباحثة، ٢٠١٤.

١٨٢ استيتية، رجل يناهز الـ ٦٥ عاماً وهو يسكن البلدة القديمة في نابلس.

١٨٣ حازم مرعي، يملك حمام الهناء في البلدة القديمة في نابلس، وكان من سكانها، ثم انتقل للسكن خارجها بعد الانتفاضة الثانية.

«أنا صلحت الحمام على حسابي الخاص، ولم أترك أي أثر، فلا ينفع في حمام تاريخي أن نترك أي أثر للهدم، لا أستطيع أن أدخل السياح عليه وفيه أي أثر للهدم، وبالتالي انتهى شغلي إذا لم يأتِ سياح على الحمام».

وفي مشهد مشابه مما مر على نابلس، يحدث تكرار للمشهد في البلدة القديمة في رام الله يتضمن مجموعة من الممارسات الاستعمارية المشابهة، التي يشير إليها رئيس بلدية رام الله المهندس موسى حديد:[١٨٤] «آثار العدوان مش شيء معيب أو منظر معيب ليبقى موجوداً، بالعكس هذا أثر للعدوان الإسرائيلي، ولكن تمت إزالتها بشكل عام، إذا تصفح أي شخص صور لرام الله من ٢٠٠٠ حتى الآن على الإنترنت، فلن يرى أي أثر لأنه تمت إعادة تأهيل كل البنى التحتية، والشوارع وآثار الهدم، فلا نستطيع أن نعيش في بلاد مدمرة». تنظر مجموعة المبحوثين السابقين إلى أن عملية إعادة الترميم وإزالة آثار الهدم على أنها جزء من إعادة الوظائفية للمكان وساكنيه، وبالتالي تعطى هذه المبررات لأسباب العيش كالرزق أو البنى التحتية على أنها الأساس في التعامل مع معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني بشكل أشكالها.

مؤسسة رواق، وهي إحدى المؤسسات التي أخذت على عاتقها مشروع إعادة ترميم ما حل بعمار البلدة القديمة في نابلس أو رام الله وفي كل فلسطين، لا تتعامل مع مشاريع إعادة الترميم على أنها مشروع لاستعادة الوظائفية فحسب، بل تعتبر هذا المشروع عبارة عن خطوة لإنتاج المعرفة كما يعرفه خلدون بشارة: «أي مشروع ترميم في رواق هو عبارة عن مشروع لإنتاج المعرفة، لكيف نرمم؟ وكيف كان الاشي زمان؟ وكيف كانت طبيعة العلاقات زمان من خلال عمارة من هذا النوع؟ ما طبيعة المجتمع في تلك الفترة؟ وما هو النظام الاقتصادي الذي سمح بإنتاج عمارة من هذا النوع؟ ومن قام بعملية البناء ودق الحجر مثلاً؟ من هؤلاء الأشخاص الذين أنتجوا عمارة من هذا النوع؟ لأن هذه الفضاءات كان إلها معاني ورمزيات مختلفة عما يحصل الآن من شقة تبقى شقة».

---

١٨٤ مقابلة أجرتها الباحثة مع المهندس موسى حديد، رئيس بلدية رام الله في شهر نيسان ٢٠١٥.

أما رئيس بلدية نابلس غسان الشكعة[١٨٥] فيرى أن «تمويل إعادة الإعمار هي العائق الوحيد أما ترميم جميع القصور والعمار المتهدم في البلدة القديمة في نابلس، وأن البلدية تسعى إلى إنجاز أكبر قدر ممكن من الترميمات التي لا تغير شكل المكان، وتعيد بناءه بصورته المعمارية الحجرية، التي تتميز بها نابلس من العهد العثماني وما سبقه».

يمكن تفهم العائق المادي الذي تفتقر له البلدية في قدرتها على إعادة الإعمار، فهي دائمة البحث عن مصادر للتمويل الخارجي، ليغطي نسبة عالية إن لم تكن كاملة من مشاريع إعادة الإعمار، ولكن؛ السؤال هو كيف يتم تحديد ما تتم إعادة إعماره من البلدة القديمة في نابلس وما لا يتم حتى الالتفات إليه، ومن الملاحظ أن مجموعة من ممارسات الإقصاء اللاواعية -إن أمكن القول- تتم في البلدة القديمة في نابلس عندما يتم بذل الجهد لإخفاء الدمار الذي حدث من الأسواق التجارية المشهورة، ومن بعض مداخل البلدة القديمة التي تلتقي مع المدينة النابلسية المعاصرة، بحيث يشاهد المتلقي جمال الإرث المعماري التاريخي، والانتعاش الحضري والاقتصادي أثناء دخول غير الساكنين للبلدة القديمة إليها، تقول علا:[١٨٦] «لا يوجد أجمل من أسواق نابلس، وأستغرب عندما نتحدث عن الدمار والهدم، لأني لا أرى منها شيئاً وأنا أتسوق في البلدة القديمة». علا لا ترى الدمار لأنها لا تستكشف مناطق داخلية من البلدة القديمة، بل تبقي البصري متبوعاً بأسواق تجارية تجانب المدينة المعاصرة في نابلس.

---

١٨٥ مقابلة أجرتها الباحثة مع رئيس بلدية نابلس المحامي غسان الشكعة في شهر نيسان ٢٠١٥.

١٨٦ علا (٢٢ عاماً)، مبحوثة من سكان رام الله.

أسواق البلدة القديمة نابلس ٢٠٠٢ [١٨٧]

أسواق البلدة القديمة نابلس ٢٠١٤ [١٨٨]

وهل يمكن أن يكون مبرر نقص التمويل هو المبرر الكافي في المؤسسة الرسمية عند التخلف عن الإضاءة على الأبنية التي ما زلت مهدمة، وتتملك آثار القصف أو التغيير الزمني على جدرانها، عن هذا يقول خلدون بشارة إن عملية الترميم بتكاليفها هي عملية مبالغ فيها بأرقام

١٨٧ أخذت الصورة من موقع: http://www.alwatanvoice.com/

١٨٨ اخذت الصورة من موقع: https://alestqlal.com

خيالية: «الترميم يكلف ثلث بناء جديد، دائماً نريد أن نقنع العالم بأن الترميم يكلف أقل، الترميم في فلسطين مشكلته أنه كان يتم بناءً على الطريقة الاستعمارية الإسرائيلية، لذا كان يكلف أكثر، في إسرائيل متر الترميم يكلف ٣٠٠٠ دولار، أما فلسطينياً فمتر الترميم بكلف من ٢٥٠-٣٠٠ دولاراً. قصر القاسم مثلاً ٤٤ غرفة ١٢٠٠ متر مربع، وساحات ٥٠٠ متر مربع، كلفنا ٥٣ ألف دولار، لما تحكي لحدا اشتري شقتين سعرهم ٢٥٠ ألف دولار، بينما تحكي لشخص اشتري قصر من ٤٤ غرفة، ومجهز حتى لمكان التدفئة. أنا برأيي المشكلة انو في محل بتنسرق المصاري، كل ما كنا نروح على محل مثل قصر الكايد في سبسطية أكثر من ٣٠ غرفة وفندق يتسع لأكثر من ٢٥ سريراً، ترميمه كلف ٢٣٠ ألف دولار، هلأ لو برام الله بتحكيله بعطيك فندق بـ ٢٥ سرير بدفعلك اكتر من ربع مليون دولار إذا ما دفع مليون دولار، نفس الناس لما أجت السياحة والآثار حكولهم هذا بكلف مليون دولار، وراس كركر نفس الإشي، كلها أرقام بالملايين، كلمة ملايين أنا برأيي مسروق منهم مئات الألوف، هلأ كيف بضيعوا هذه المئات من الألوف، إما لأنك بتختار المواد الخطأ لأنك بدك تعمل معروف مع حدا، أو لأنك بتختار المهندس الخطأ إلّي بأخذ نسبة عالية، أو لأنو بتم إعادة ترميم الشيء أكثر من ثلاث مرات، أنا برأيي هذا هو السبب».

يشير الجدول التالي إلى مدى تكلفة إعادة ترميم العمار التاريخي تبعاً لبعض مشاريع مؤسسة رواق[١٨٩]

السنة	اسم المشروع	مكان المشروع	عدد الغرف	التكلفة
٢٠٠٢	بلدية بيرزيت	بيرزيت-رام الله	٢	٦٨,٦٠٦$
٢٠٠٤	مركز نساء سلواد	سواد- رام الله	١٣	٦٥,٩٨٥$
٢٠٠٩	الكمنجاتي	رام الله التحتا-رام الله	١٣	١٤٣,٢٢٥$
٢٠٠٩	مؤسسة تامر للتعليم المجتمعي	رام الله التحتا-رام الله	١٠	١٢٩,٩٥٢$
٢٠١١	قصر الكايد	سبسطية- نابلس	٧	١٣٠,٥٩٠$
٢٠١١	إنتاج وإعداد الورش	بديا- سلفيت	٦	٨١,٠٧٢$

يصنف خلدون بشارة مجموعة من الممارسات التي أصبحت تبرر استغلال هذه الفضاءات، إما باستغلال الأموال وتحييد إعادة الإعمار عن صورة الإمكانية، أو من خلال خصخصتها وجعلها سوقاً في رام الله مثلاً، بحيث تقدر ثمناً وتاريخاً، وتفتح كأماكن للجذب بفعل تصاميمها البعيدة عن أجواء معاصرة المدينة وطبيعتها الآيلة للتشكل، وهو ما يشير إليه خلدون بشارة عندما سئل عن سبب ذكره لرام الله كمثال في تقدير العمارات المرممة «لان هناك سوق من العرض والطلب، أو حتى لا يوجد عرض كفاية، لأن هناك أشخاص يستطيعون مادياً أن يتكلفوا سعر فنجان القهوة ١٥ شيكل، وهذا قطاع رأسمالي بامتياز ويحدد نوعية الأشخاص الذين يريد منهم أن يدخلوا مطعمه مثل fuego، وهو الذي رممه صاحبه الّي من دار المصري على ما أعتقد على حسابه الخاص».[١٩٠]

١٨٩ بشارة، خلدون، مرجع سابق، ص ٥٣.

١٩٠ إضافة مرجع عن القطاع الخاص في فلسطين.

مطعم fuego من الخارج في رام الله التحتا بعد إعادة ترميمه[١٩١]

صمم مطعم (fuego) الذي يقع في البلدة القديمة لرام الله بجانب المحكمة العثمانية، بشكل جاذب بصورته الأثرية التي حملت معها رموزاً معاصرة، وحتى معولمة، ينعكس كل ذلك من خلال رمزيات ودلالات مختلفة، تبدأ من اسم المطعم الذي يعد مصطلحاً في الإسبانية ارتبط بمعنى النار بدلالة اجتماعية ظهرت مع الكوميديا الساخرة على الإنترنت، وتعني أن الشيء جاذب بشدة،[١٩٢] أما الرمزيات الأخرى، فتكمن في مجموعة اللوحات باللغة الإنجليزية، التي تصف الحياة والسعادة، كوجود الزبائن في هذا المطعم. وإضافة إلى ذلك، فإن قائمة الطعام والمشروبات للمطعم لا تمت للتراث الفلسطيني، أو الهوية الفلسطينية أو حتى العربية بصلة؛ بل يقدم المطعم مجموعة من الأكلات المكسيكية والغربية، ويتبع معها أسعارها المرتفعة جداً التي تبرز اختيار صاحب المطعم لأشخاص يتبعون لطبقة اقتصادية ذات دخل مرتفع في رام الله، أو حتى للأجانب الزوار الذين يأتون لزيارة مدينة رام الله، بعد

١٩١ أخذت الصورة من موقع: http://www.triposo.com/ وهو موقع يشكل دليلاً سياحياً للمواقع والزيارات في مناطق مختلفة.

١٩٢ أخذت من معجم http://www.urbandictionary.com/urband dictionary,

الترويج الضخم الذي أصبحت تحظى به بعد تمركز للسلطة الفلسطينية فيها. ازدواجية كبيرة يحملها معنى المطعم الذي يضيفه موقع بلدية رام الله، على أنه أحد المواقع الذي يمثل مدينة رام الله، تحت المعمارية التراثية التي يحملها دون الالتفات لما تحمل هذه الحجارة ما بداخلها من بعد عن التراث الفلسطيني بأكمله.

صورة مأخوذة من صفحة المطعم على فيسبوك، التي تشير إلى مجموعة من الرموز الثقافية المكسيكية ٢٠١٥ [١٩٣]

مطعم fuego من الداخل[١٩٤]

الفكرة التي تقوم على إعادة الاستخدام المختلف للموروث المعماري للبلدات القديمة، لا تلغي الفكرة القائمة في البحث على تتبع أنواع إزالة الدلائل التي تشير إلى تداخل العمار هذا أثناء مقاومة الفلسطينيين بين جدرانه، فالإشارات جميعها أصبحت تتلاشى مع فكرة طغيان التاريخ على الذاكرة، وهنا تزال آثار المعارك الفلسطينية مع المستعمِر بمبرر المحافظة على رموز التراث المعماري، الذي يعطي العمار قيمة مع أصل التكوين له.

يطرح خلدون بشارة أحد مشاريع الترميم وهو قصر القاسم في نابلس، وعلاقته بفكرة المعركة أثناء المقاومة الفلسطينية؛ «قصر القاسم حدثت فيه ثقوب فترة الانتفاضة الأولى كان الشبان يصنعون ثقوب في الجدران للهرب من الإسرائيليين، رجعنا رممناه وعملنا إعادة بناء بالكامل واختفت الثقوب مع بعض علامات التصليح الباقية، ولكن، بشكل عام، عمل الشباب هذه الثقوب أثناء ملاحقة الإسرائيليين لهم، ولم نرد لهذه القصة أن تستمر في التكرار، لأن ما نريده هو أن نحافظ على موروثنا وتراثنا، فيجب أن يشعر كل شعب أن هناك مباني بحاجة للحماية، ويجب تعليمها لحمايتها، يجب أن نكون صريحين، السؤال هو: «إحنا بدنا نضل نقاوم في البلدة القديمة في نابلس؟»».

أنا برأيي أن الفلسطيني قادر على أن يحدد المكان الذي يستطيع أو يجب أن يقاوم فيه. إسرائيل همجية بطريقة لا تطاق، ولكن أتمنى أنه في يوم

---

١٩٤ أخذت الصورة من موقع http://www.triposo.com/

من الأيام سيظهر أمل، سواء كان من طرفنا أو طرفهم، أن نصحى على أنفسنا ونحاول التعايش مع بعضنا، يجب أن تكون هناك طريقة. المشكلة الدائمة هي أن إسرائيل دائماً تجرنا للعبة التي تلعبها، فيدعون امتلاك الحمص، بنصير نقاتل عالفلافل، فكلها ردود فعل، وما فيها استراتيجيات ولا وعي.

للأسف في رواق لا يوجد قانون يحمي التراث، كيف سنطلب من إسرائيل أن تحميه!! عندنا الجرافات في أول لحظة الهدم، تأتي وتجرف كل شيء، والقانون الذي نستخدمه هو قانون بريطاني حقير، بالتالي يجب أن تحمي مبانيك التراثية قبل أن تطلب من المستعمر أن يحميها، فإسرائيل حشرتنا في مناطق (A)، مع إنو الأرض الباقية تشكل ما يقارب الـ٧٠٪، ولكن يقرروا أن تكون الأماكن السكنية مقر للمعارك، بتحشرنا في غزة وكلها مباني وبتحكيلنا قاتلوا».

قصر القاسم في نابلس بعد ترميمه[١٩٥]

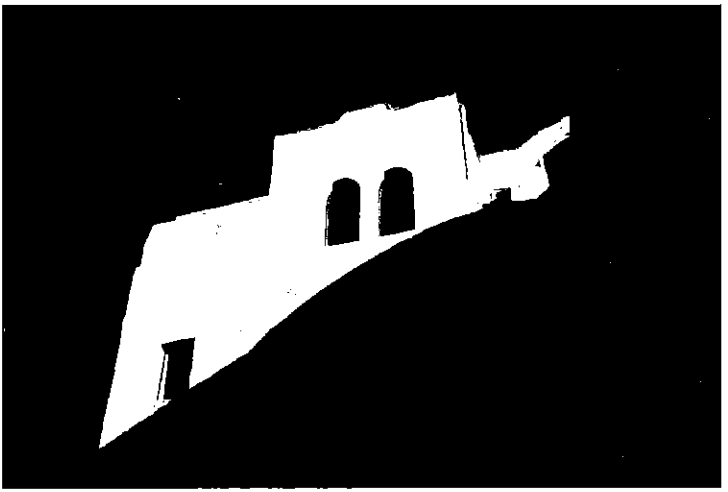

١٩٥ أخذت الصورة من موقع: http://www.raya.ps/

قصر القاسم من إنجاز مؤسسة رواق في مشاريع إعادة الترميم[١٩٦]

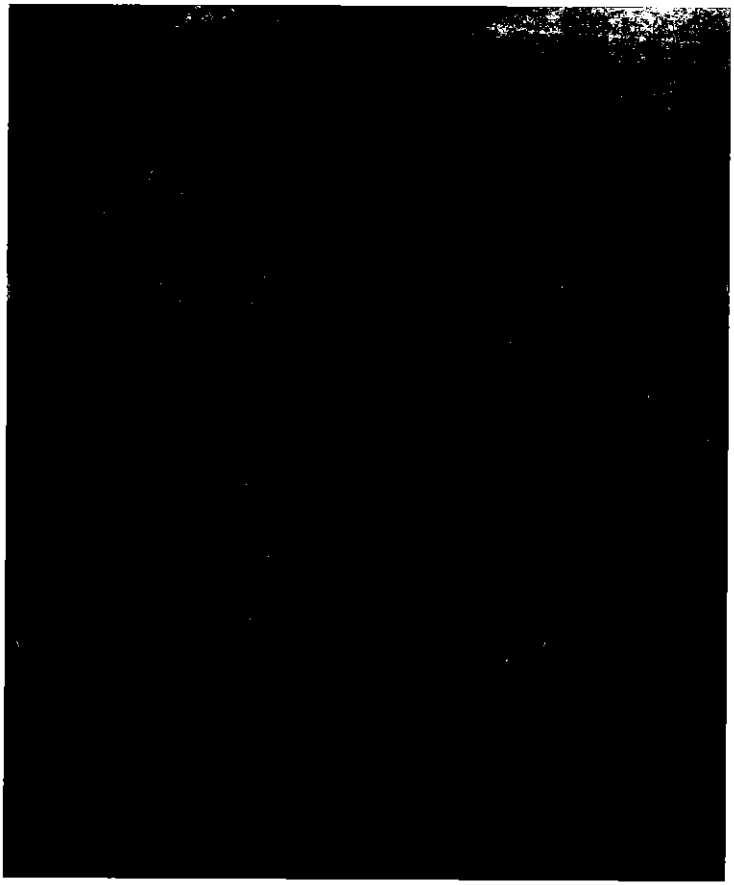

بعد طرح مجموعة نماذج مختلفة لصور معمارية من البلدات القديمة في نابلس ورام الله، يبدو أن هناك اختلافاً تطرحه البنية ثقافياً واقتصادياً واجتماعياً، من حيث التعامل مع العمار التاريخي التراثي، الذي تعرض لعمليات التدمير الحضري، أو حتى الإتلاف والإهمال، بعد مجموع من

١٩٦ بشارة، خلدون. تشغيل مشاريع رواق الترميمية ٢٠٠١-٢٠١١، رام الله: مركز المعمار الشعبي - رواق، ٢٠١١، ص ٧٢.

السنين، والمعارك؛ وذلك بإعلاء قيمة العمار من حيث أصله التاريخي، على تداخله الذاكراتي في الفضاء الاجتماعي، فبصرياً يبقى هذا العمار جزءاً من تاريخه إنتاجه، وارتباطه بالتراث يجعل من المحافظة عليه دون رصاص المقاومة، هو أساساً جزء من ربط الوطني بالتاريخي، والبحث عن قطع الأصل لإثبات هوية الحق في الوجود على أرض الصراع مقابل رواية الآخر المستعمِر.

مداخل البلدة القديمة على اليمين تجاور الفضاءات العامة المعاصرة ٢٠١٤ [١٩٧]

يظهر في الصورة الأخيرة انقسام في المكان والهوية المعمارية، بين مباني البلدة القديمة وأسواقها، وبين دوار نابلس ومبنى البنك العربي الضخم الذي يجاور الدوار، ليخلق في الفضاء العام تنوعاً أخفى في وقته المعاصر حرب المعركة التي خاضتها قوات المستعمِر ضد الفلسطينيين بين أركنة المكان. ليقدم الجزء التالي من هذا الفصل مجموعة من محاولات استنطاق المكان برموزه بحثاً عن ذكرى تبتعد عن الركام غير الممول، أو بعيداً عن الحجارة الأثرية التي يهتم الفلسطينيون بكونها جزءاً من هويتهم، وجزءاً

١٩٧ أخذت الصورة من موقع http://montada.aya.sy/

غير مستقلٍ عن مشروعهم التحرري، فكيف يتم رسم سياسات الذكرى والذاكرة في الفضاء الاجتماعي داخل البلدة القديمة. يقدم الجزء التالي مجموعة من تالفات المكان والنسيان مع أماكن الذاكرة.

٢,٣ أماكن الذاكرة: مفهوم يخلق صوراً عن الموت تَألف المكان

«اكتب ع الشمس آلاف الضحايا»[١٩٨]

(جميع الصور في هذا الجزء من تصوير الباحثة ٢٠١٤-٢٠١٥)

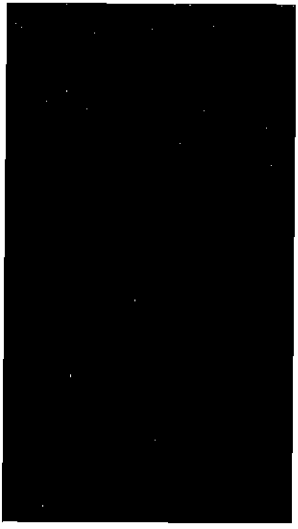

يستخدم هذا الجزء مجموعة من المفاهيم التحليلية التي تفكك المشهد، وتحاول تقديم قراءة جديدة بعيدة عن قداسة التاريخي والأرشيفية، أو قداسة تقديم الحقيقة، وذلك من خلال استخدام «التحليل العباري» لميشيل فوكو في نموذج تراكم أمكنة معينة يتم حصر الذاكرة فيها، وآلية الخطاب الذي أسس لتكوين مثل هذه الأماكن.

---

١٩٨ أغنية من الانتفاضة الأولى.

إن التحليل العباري يتجه نحو الأشكال النوعية للتراكم، التي لا يمكن مماثلتها بعمليات الاحتفاظ بالصور داخل الذات في شكل ذكريات أو عمليات تجميع محايدة للوثائق. فقد كانت العادة أثناء تحليل الخطابات التي تمت فعلاً بها يخص ذاكرة ما، هي باعتبارها خطابات تعاني من قصور ذاتي وعطالة جوهريين: وأن الصدفة وحدها هي التي احتفظت لنا بها، كما رعتها عناية البشر وأوهامهم، تلك الأوهام التي يكونونها عن أقوالهم فتذهب بهم إلى إعطائها قيمة واستحقاقاً يرفعها إلى مستوى الخلود؛ غير أنها لم تعد تمثل سوى أشكال وتعابير خطية تتكدس في المكتبات، غارقة في سبات عميق، منذ أن تم التلفظ بها ودخلت طي النسيان، وطمس الزمان معالمها. والفكرة في التحليل هي محاولة بعث الحياة في الأشياء التي حاول التاريخ سدل الستار عليها، عند إعادة قراءتها في النموذج الموجودة فيه من الواقع، أو قد نعثر فيها على علامات تأخذ بالمعرفة إلى مرحلة صياغتها والاسترشاد إلى اكتشافها، وحينما تفسر رموز تلك العلامات، قد يستخرج منها طريقة للتذكر تخترق الزمان، وكذلك نستخرج منها دلالات وأفكاراً ورغبات واستيهامات دفينة. ومهما كان، هناك تفضيل للفظ من الألفاظ الأربعة التالية على الآخر (قراءة، أثر، تفسير، الرموز، تذكر)، ومهما كانت الأهمية البلاغية التي نعلقها عليه أكثر من غيره؛ تلك الأهمية التي تخول له أن يقوم مقام المفاهيم الثلاثة الباقية وينوب عنها، فإنها تحدد مجتمعة المنظومة التي تخول لنا، كما جرى الاعتقاد، استئصال الخطاب الماضي وانتزاعه من قصوره وجموده، وابتعاث شيء من حيويته الضائعة، للحظة معينة.[١٩٩]

يطرح البحث تحليله انطلاقاً من حدث قد يعد كبيراً في مشروع التحرر الفلسطيني، وهو الانتفاضة الثانية، وبالتحديد فترات الاجتياح التي مرت على فلسطين، وتركت مجموعة من الدلالات التي تشير إلى معانٍ معينة مرئية وغير مرئية، بعد عملية تدمير المكان بمعماريته، ومحاولات اجترار الهوية الفلسطينية نحو خطابات تشوه ظهور الحقيقة بين معالم تلك المعمارية في الفضاء الاجتماعي الفلسطيني.

---

١٩٩ فوكو، ميشيل. حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٧، ص ١١٤.

تبعاً لعلي حرب، فإن «مغزى الاستشهاد بالأحداث الكبرى التي غيرت وجه الأرض ومشهد العالم، أن الحدث والحقيقة والفكر، هي ثلاثة مفاهيم تتقاطع بقدر ما تتداخل ولا مجال لأن ينفك أحدها عن الآخر، بل يعاد تركيبها باستمرار. ومع كل تركيبة مفهومية، يحصل تغير في الخارطة وانقطاع في المشهد، تتغير معه أشكال المعارف وأنماط الروابط، على قدر ما للحدث من القوة والأثر، أو من الوزن والثقل. ولذا، لا يمكن للمرء أن يفكر بصورة منتجة، بالقفز فوق الحدث وما يتولد عنه من الحقائق أو الوقائع. فمن يفكر بصورة مجدية وفعالة، إنما يفكر فيما يحدث، وبسببه ومن أجله، أي من أجل صوغ الحدث والمشاركة في صنعه، إخراجاً للممكن مخرج الوجود، أو تدخلاً في لعبة الإمكان وخارطة الكائن، للانخراط في عملية الإنتاج أو الخلق والتشكيل، وما يحدث له قوته ووقائعيته. إنها قوة الحقائق التي يولدها الحدث، والتي تفرض نفسها، في وضع ما، أو قطاع ما، أو حقل ما، بقدر ما تغير نماذج المعرفة ومعايير العمل، أو مرجعيات المعنى وأشكال التواصل، بصورة لا مجال معها للعودة إلى الوراء، إلا بقدر من الزيف والتضليل، أو بنوع من التعسف والتحجر أو بضرب من العنف والإرهاب».[٢٠٠]

ترشم البلدة القديمة في نابلس بالتحديد بمجموعة من النصب التذكارية والضروح التي تحمل معها تأريخاً لشهداء الانتفاضة الثانية، ممن سقطوا أثناء مقاومتهم للمستعمِر الإسرائيلي داخل البلدة القديمة. تُطرح هذه النُصب على أنها جزء من المحافظة على ذكراهم كشهداء المشروع التحرري، ولكن ما يتم البحث فيه انطلاقاً من ذلك هو؛ المعاني التي تشكلت من خلال مغزى الوضع داخل الفضاء الاجتماعي في البلدة القديمة، وما الأثر الذي تضفيه على ذاكرة المكان عند الفلسطينيين، وعلى قصة الحرب في التواصل الاجتماعي بينهم، على اعتبار أنها تمثل مفهوم «أماكن الذاكرة».

٢٠٠ حرب، علي. الفكر والحدث، حوارات ومحاور، بيروت: دار الكنوز للآداب، ١٩٩٧، ص ١١.

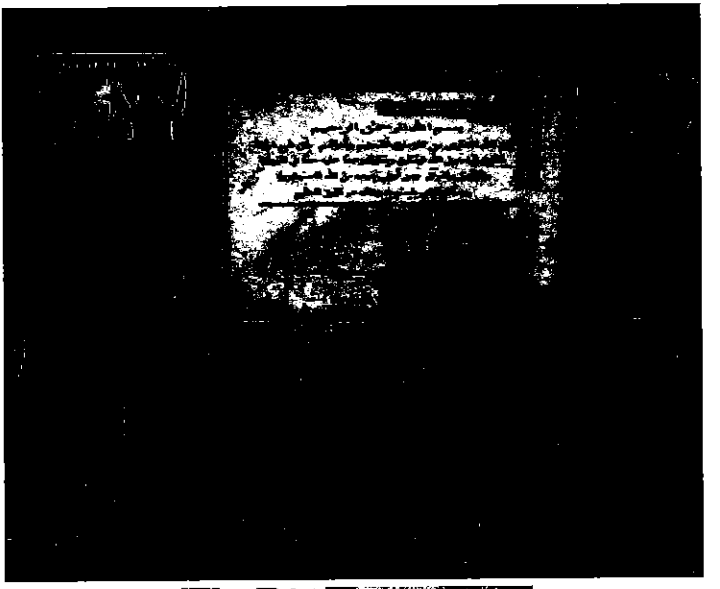

يعد مفهوم «أماكن الذاكرة» أحد إنتاجات المفكر الفرنسي بيير نورا،[٢٠١] الذي يحمل بين بنيانه مجموعة من المقارنات بين خطاب تشكيل الرموز للذاكرة والتاريخ، وكيف ترسم وتُنتج الذاكرة المعاصرة بين ثنايا الفضاءات الاجتماعية. المنظمات الرمزية المشكلة للذاكرة والتاريخ تمارس السلطة، وتحدد البنية، لأنها هي بذاتها بنية، فالسلطة الرمزية تسعى إلى إقامة نظام معرفي كوظيفة سياسية لا تقتصر فقط على وظيفة التواصل عند البنيويين، بل كأدوات للتضامن الاجتماعي، ومن حيث أنها أدوات معرفة وتواصل، فهي تخول بسلطة إعادة إنتاج النظام الاجتماعي.[٢٠٢] إن الفكرة من أماكن الذاكرة، تكمن في بلورة الذاكرة في لحظة، أو عن لحظة تاريخية معينة، بحيث تُمزق عن تلك اللحظة وتجسد الذاكرة في مواقع معينة، وذلك لأنه لم يعد مكان/ واقع حقيقي. إن مثل هذا الانهيار الأساسي للذاكرة عن المفاهيم النظرية والاجتماعية السابقة التي أوردت نظرياً في بداية البحث؛ هو مثال مألوف ينتج من خلال التحول إلى الديمقراطية والثقافة الشعبية على نطاق عالمي. إن الشعوب حديثة التحرر من الاستعمار، أيقظت علماً يبحث في السلوكيات التي انتهكها الاستعمار، وتقوم تبعاً لذلك بتنظيم استقبال الماضي. يتم تنظيم استقبال الماضي تحت نظر الحاضر الساكن، من خلال التلاعب بعمليات الإضاءة والظل عليه.[٢٠٣]

---

٢٠١ Nora, Pierre, Between memory and History: les leieux de Memoire, University of California, 1989,1

٢٠٢ بورديو، بيير. الرمز والسلطة، ترجمة: عبد السلام بنعبد العالي، الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ٢٠٠٧، ص ٤٩-٥٠.

٢٠٣ Nora, Peirre, previous refernce,2-3.

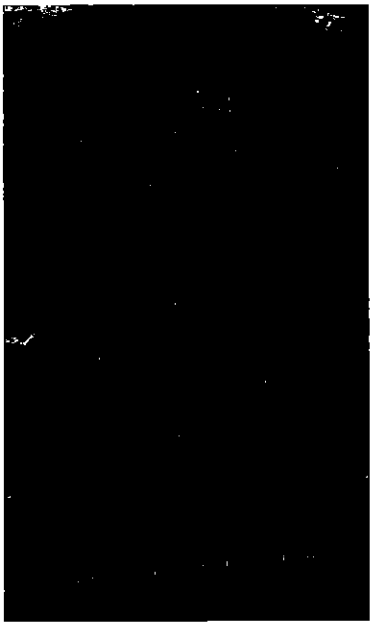

إن الهدف الأساسي وراء أماكن الذاكرة هو توقيف الزمن ومنع النسيان، وإنشاء حيز للأشياء التي تخلد الموت، وتشييء اللامحسوس، كل هذا لتجميع أكبر قدر من المعاني في أصغر الإشارات والمدلولات. ومن الواضح أن أماكن الذاكرة وجدت بفعل قدرتها على التحول وإعادة إنتاج لا منتهية لمعانيها، وانتشار تشعباتها، فأماكن الذاكرة تملك عظتها الخاصة في إشاراتها.[٢٠٤]

تحمل النصب والضروح التذكارية للشهداء مجموعة من الإضاءات على أسماء معنونة لها، إما كمجموعات وإما كأفراد منفردين بتملك النصب، وتتم إضافة ألقاب بعض الشهداء الذين حملوها أثناء مقاومتهم، أو من لقبوا بعد استشهادهم، إضافة إلى إشارات لأحزاب سياسية كانوا ينتمون إليها، ويعملون تحت مسماها، أو تاريخ زمني يحفر على الحجر ويعاد إنتاج معناه بصرياً عن يوم استشهادهم. فكيف يبدأ موت الإنسان في صناعة المعنى داخل الشيء وداخل المكان، منقولاً إلى المستقبل الذي يبصرها.

---

٢٠٤ Noura, Pierre, prevoius reference, 14-18.

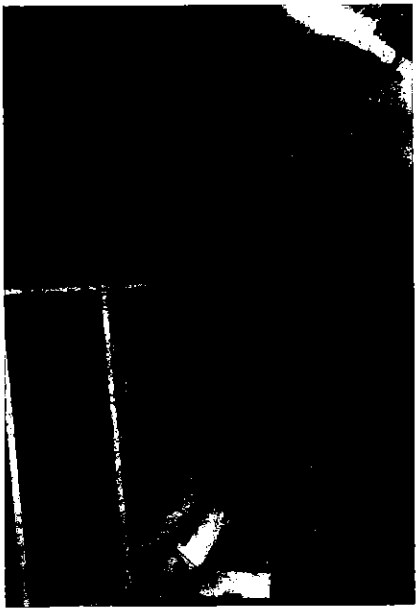

أصبحت هذه النصب تفرغ الذاكرة في الأشياء، وتتشكل في لحظة زمكانية معنية ما بين موقع الاستشهاد وتاريخه، ما يجعل الذاكرة مربوطة بالأداة، والأداة هي التي تشكل المعاني والمفاهيم تبعاً للمؤسسة التي تقوم بتحديد الإضاءات، وتحديد نوعية الاتصال الجماعي مع هذا التشييء، بالتالي تتم صناعة المستدخل الذاكراتي لما يحدده الخطاب التاريخي الرسمي للمؤسسة الفلسطينية، التي تقوم على تحديد الرموز التي ترمز الموت في الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، وتصبح عندها ذاكرة مصطنعة يتم فرضها على الاستقبال، ورسم المشهدية المحددة التي تستدخل في عين المتلقي الذي أصبح يتعايش معها كجزء من فضائه المألوف. وهنا تصبح الإحالة للمعاني غير متكررة، بل تأخذ بالتقلص لحد إقصاء معنى الموت من الرمز. إن ما سبق بعكس الرمز عند بنكراد، على سبيل المثال، «الأشياء ذات الأبعاد الرمزية تخضع، لكي تصبح حاملة لبعد دلالي رمزي، إلى سيرورة طويلة عادة ما يكون الانتقال داخلها من حالة الاستعمال إلى حالات التدليل الرمزي الإضافي انتقالاً معقداً ويستدعي استحضار ذاكرة موغلة في القدم، قد تكون مضامينها تاريخية أو دينية، أو أسطورية، أو

خرافية. فالأمر يتعلق بالانتقال من حالات التشخيص المحدد في الزمان والمكان إلى حالات التجريد المعمم الذي يضاهي الزمن في سرديته».[٢٠٥]

يختلف حال أماكن الذاكرة لأنها خرجت من فكرة أنها تستطيع رسم ممارسات التجريد الحدث بزمانه ومكانه. النُّصب التذكارية والأعمال الفنية والكتب التاريخية وأيام الذكرى السنوية، التي تصنع بخطاب رسمي، تأخذ بالحلول محل العوالم الحقيقية التي عايش فيها الناس الأحداث الماضية، والمعارك التي خاضوها، أو خاضها من قبلهم. وعلى حد تعبير نورا، تغدو أماكن الذاكرة لتقول إن الذاكرة لم تعد موجودة بشكلها العفوي، وإنما تصنع الواقع وتعيد رسمه تحت خطاب معين.

لنقل بإيجاز طرحاً لميشيل فوكو؛ لقد كان التاريخ في ثوبه التقليدي، يسعى إلى أن يجعل من نصب الماضي وأثرياته شكلاً يسمى بـ«ذاكرة»، ويحولها إلى وثائق، ويحث تلك الآثار على التكلم. ولكن تلك الآثار التي غالباً ما تكون خرساء، في حد ذاتها، أو أنها تقول صمتاً غير ما تقوله جهراً؛ أما اليوم فإن التاريخ هو ما يحول الوثائق إلى نُصب أثرية، ويعرض كمية من العناصر التي ينبغي عزلها والجمع بينها وإبرازها والربط بينها وحصرها في مجموعات، حيث كان التاريخ التقليدي يكتفي بالتنقيب عن الآثار وإبرازها والربط بينها وحصرها في مجموعات، الآثار التي خلفها البشر، ويفحصها ويتعرف على ما كانت عليه. لقد مضى زمن كانت فيه الحفريات كفرع معرفي يدرس النُّصب الأثرية الخرساء والآثار الميتة، والموضوعات غير ذات السياق؛ والأشياء التي خلفها الماضي، تتمسح بالتاريخ ولا تتخذ معناها إلا بفضل تقويم خطاب تاريخي؛ وربما كان في استطاعتنا اللعب بالألفاظ والقول إن التاريخ اليوم هو الذي صار يتمسح بالحفريات، وينزع نحو الوصف الباطني للنُّصب الأثرية.[٢٠٦] يعيد التاريخ إنتاج فكرة النُّصب التذكارية كأماكن للذاكرة، كجزء من ترسيخ بقائه، كمتملكٍ للحقيقة، ومنه أنه يعدد حدود الذاكرة تبعاً لخطابة، وليس للخطاب الاجتماعي للذاكرة.

---

٢٠٥ بنكراد، سعيد. مسالك المعنى، دراسة في بعض أنساق الثقافة العربية، اللاذقية: دار الحوار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦، ص ١١٠.

٢٠٦ فوكو، ميشيل. حفريات المعرفة، مرجع سابق، ص ٩.

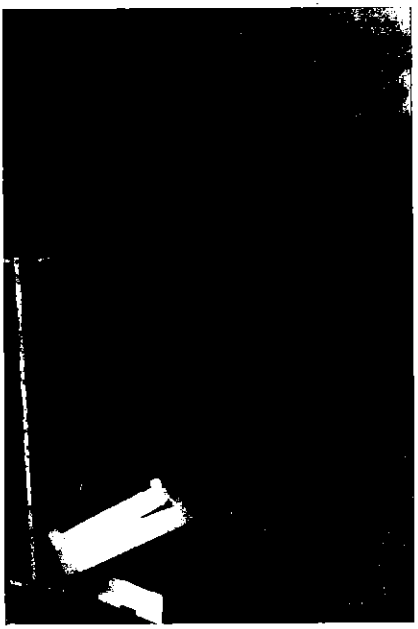

المشهد الذي تنقله الصور السابقة هو انعكاس عن تآلف النُّصب مع المكان داخل البلدة القديمة في نابلس، لدرجة أنه لم يعد مرئياً بمعنى قصة الماضي التي يقدمها لم تعد مرئية، وفعلاً تكمن الإضاءة على هذا المشهد من القصة داخل معاينات الاستقبال لمن يمر في البلدة القديمة في نابلس، هو عندما يتوقف أحد المشاة سائلاً عن النصب وحدثه، أو في محاولة تصويره، بحيث تنتقل مع الباحث أو الشخص الذي يقرر أن يضيء على هذه الجزئية من الفضاء الاجتماعي للبلدة القديمة مجموعة من نظرات المتلقين الذين يحاولون تفعيل الاستقبال البصري لما قد يكون مثيراً أو مختلفاً في بقعة المكان هذا. ومن ذلك أن عملية المرور تأخذ دربها العفوي بجانب النصب بدون الالتفات إليها، تصبح لا عفوية المكان تظهر مع عمليات الإضاءة على النُّصب التذكارية.

يطرح رينيه جيرار العلاقة مع الموت بكونه «مقدساً» والسلوك الاجتماعي الذي يرتبط به، فهو ينقسم دون قطع بين جزأين، الأول الخيّر والثاني الشرير، تبدأ العلاقة مع الأول بمنحه قداسة التقرب،

واحترام الوجودي في الموت، والثاني في الخوف وإقصاء الموت عن المحيط لعدم التعرض لعنفه على الأفراد أو الجماعة، فيصبح تآلف الناس للموت نوعاً من الوهم الذي يظنون فيه أنهم يستطيعون إقصاء الموت عن حياتهم إذا قاموا بتقديسه أولاً، وتجاهله ثانياً، «إن البشر لا يمكنهم العيش في خضم العنف، كما لا يمكنهم العيش طويلاً في ظل نسيان العنف، ولا حتى في ظل الوهم الذي يجعله مجرد أداة أو خادم أمين، ضاربين بكل الفرائض الطقسية والمحظورات عرض الحائط. وإذا كان من واجب كل جماعة أن تنشئ علاقة مع المقدس كي تزدهر في ظل هدوء منظم وسمح لا أثر فيه، لأي تراخ، فإن التعبير عن تعقد هذه العلاقة وتنوعها لا يمكن أن يكون في غياب الحقيقة العارية إلا من باب اللمح والإشارة. وعليه، يفترض بالجماعة ألا تبالغ في الاقتراب من المقدس مخافة أن يفترسها، ولا في الابتعاد عن التهديد الخيّر مخافة أن تتعرض لخسارة مفاعيل حضوره المعطاء».[٢٠٧]

إن تكرار موضوع النُّصب يؤدي إلى اختلاف معاني الذاكرة، ويقدمها دولوز كالتالي[٢٠٨] «عندما يفتقد وعي المعرفة أو إنشاء ذكرى، لا تعود المعرفة كما هي ذاتها إلا تكرار موضوعها: تُلعب أي تكرر، تحرك بدلاً من أن تعرف. ويظهر التكرار هنا كـ لاوعي المفهوم الحر، المعرفة أو الذكرى لاوعي التمثل. ويعود فرويد إلى نسب تجميد كهذا إلى السبب الطبيعي: الكبت، المقاومة التي تجعل من التكرار عينه «إكراهاً» حقيقياً، قسراً .. وهنا أيضاً يمكننا أن نستخلص مبدأ الصلة المعكوسة بين التكرار والوعي، وبين التكرار والاستذكار، وبين التكرار والتحقق (مفارقة القبور، أو الأشياء المدفونة): نكرر ماضينا كلما قلصنا من إعادة تذكره، وكلما قلصنا الوعي بتذكره- تذكر وأنشئ الذكرى كي لا تُكرر».[٢٠٩] يكمن التقليص في الذاكرة

---

٢٠٧ جيرار، رينيه. العنف المقدس، ترجمة: سميرة ريشا، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠١٦، ص ٤٥٠.

٢٠٨ راجع مقدمة المترجم في كتاب الاختلاف والتكرار: يطرح دولوز في كتابه الاختلاف والتكرار فلسفة جديدة أرادها فلسفة تجريبية لا تخرج عن العينية، إلا أنها ضد التمثل. وهذا الكتاب الذي بدأت تتشكل من خلاله فلسفة دولوز الخاصة، بعد مرحلة تاريخ الفلسفة، يتضمن في صفحاته رداً على فكر التمثل يأخذ عليه «بقاءه عند شكل الهوية، تبعاً للصلة المزدوجة للشيء المرئي والذات التي ترى».

٢٠٩ دولوز، جيل. الاختلاف والتكرار، ترجمة: وفاء شعبان، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩، ص ٦٩.

من خلال حصره بأماكن الذاكرة، وبالتالي يبقى الموت، وموت المعركة، محصوراً بتكرار الموضوع، وتقليص الوعي فيه، بحيث لا يعود التذكر وظيفة حيوية وفعالة بين أفراد الجماعة الواحدة، وحتى تنفصل الذاكرة عن الأشياء الموجودة في المحيط المعاش بفعل تكرارها.

تقدم النُّصب التي رسمت للذاكرة مجموعة من الإشارات التي تؤسس لخطاب ليس مرئياً بعد لحظة الحدث، تحمل النُّصب معها قصة المعركة الوطنية ضد المستعمِر، ويبدو ذلك من مجموعة الكتابات التي خُطت عليها ورافقت مقدار الحدث ومعانيه. الكتابات تحمل مدلولات المقاومة في المشروع التحرري، وتعلي مجموعة من الإشارات الدينية من قيمة الشهادة في هذه المعركة، ولكن تكمن فكرة مكان الذاكرة بحصر الخطاب المقاوم فيه، والإضاءة اللحظية في استبعاد الخطاب المقاوم بعد انتهائها، وجعلها جملاً تحفظ قيمة الموت بالحزن على الحجر. فما قيمة «لن نغفر .. لن ننسى» عندما تحصر لحظياً في هذا المكان.

دمعي على خدي جرى ... فابتل ثوبي فلترى
النار تكوي مهجتي ... وأعين تبكي ما ترى
ما كنت يوماً خائفاً ... بل في جسدي حزني سرى
أماه أبكي حسرة ... في لوعة ما جرى

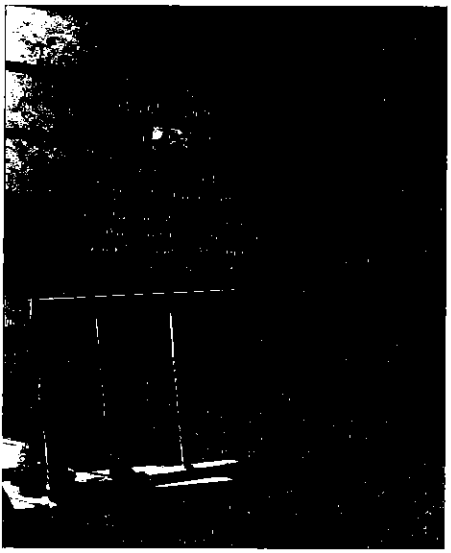

بعد أن تتحقق وتتحول الرابطة المعنوية الراغبة بتحقيق السيادة إلى مؤسسات تجسدها، متميزة ومغتربة عن الأفراد ورغباتهم، يأخذ محيط الذاكرة بالانحسار لصالح حيز مختار، وتأخذ الحاجة إلى أماكن الذاكرة بالتزايد: النصب التذكاري، مواقع المعارك من هزائم وانتصارات، المتحف كبيت للذاكرة، وتتم فيها محاولة استعادة العلاقة مع الأمة، كأنها علاقة مع أشياء محسوسة وملموسة ومعروضة، وبخاصة بعد أن تجردت العلاقة وزالت الذاكرة كممارسة طقسية، وأصبحت تستعاد في ممارسة واعية للطقوس - من ممارسة طقسية بطبيعتها إلى طقس نمارس.[٢١٠] السؤال عن الخطاب الرسمي الذي يُشكل هذه المواضع، فما هو دور البلديات بكونها لاعباً أساسياً في تشكيل المشهد داخل فضاءات البلدات القديمة كرام الله، أو نابلس.

كانت إجابة رئيس بلدية رام الله على سؤال «كيف ترمز البلدية لفترة الاجتياح في الذاكرة؟»

«ذاكرتنا لا يمكن أن نتعامل معها على أنها بدأت في ٢٠٠٠، وإنما منذ ١٩١٧، واليوم في أرشيفنا موجودة كل المراحل، ولكن لا نستطيع بل لا يمكن أن نحول البلد لمعرض ذكريات.

خطأ كبير أن يبقى المجتمع يعيش في التاريخ، صحيح أن هناك مجموعة

٢١٠ بشارة، عزمي، مرجع سابق، ص ٤٦.

كبيرة من الشهداء والجرحى والأسرى ضحوا بأنفسهم من أجل البلد، كل هؤلاء لهم حق علينا، ولكن في مجموعة أخرى من الناس «إلّي بدها تعيش»، وحتى نقدر أن نوصل لمرحلة الاستقلال، ما بنفع نضل نندب على الماضي، لا نريد عند حيان موعد الاستقلال أن نكون إحدى دول العالم الرابع أو الخامس مش بس الثالث، لأن التاريخ وقف بنا عند حد معين. يعني إذا أردنا أن نقنع أنفسنا أننا نخضع تحت الاحتلال، طب ما إحنا عم نعمل رام الله (smart city)، المدن العربية في كل الوطن العربي ليست مدن (smart city)، مع أنها دول مستقلة. ما نريد قوله هنا إنه حتى لو كنا تحت احتلال، لازم نضل ندوّر على بديل، ونستمر في النضال وبنفس الوقت مش لازم ننسى الهدف الأساسي، وهو بناء مؤسسات لهذه الدولة التي يجب أن تتحقق قريباً، ويجب أن نكون بمستوى معين قادرين على إكمال المسيرة.

في صرح للشهداء في البلدة القديمة، لا يوجد عليه أسماء، وبغض النظر عن أسماء الشهداء، فهم باقون في القلوب. الفلسطينيون وصلوا لهذه المرحلة بعد مسيرة كبيرة من التضحيات، وحتى ننقل كل هذه التضحيات، يجب أن يكون هناك إشارة لذلك حتى تراه الأجيال القادمة».

يشير رئيس بلدية رام الله إلى الخطاب الدولاتي وأهمية بناء مؤسسات الدولة، التي لا تتقاطع مع كون معارك الماضي يجب أن تبقى محاصرة للفلسطينيين في فضائهم العام. يكتب عزمي بشارة مستخدماً بيير نورا بأن تاريخ الأمة يبدأ بكتابته، وكأنها قائمة كأمة متحققة. وتبدو الذاكرة القومية كأنها تفترض وجود الأمة، ولكنها في الواقع تفترض هدفاً سياسياً، هو توحيد الأمة وتحقيق سيادتها السياسية. والذاكرة القومية تساهم في هذا التوحيد، إنها تساهم في إيجاد الأمة بافتراضها هذا الوجود. والأمة رابطة معنوية يتطلب وجودها الذاكرة الجماعية، والنسيان الجماعي، والهدف السياسي.[٢١١] ولكن ما يحدث هو محاولة رسم سياسات المستقبل للمدينة دون التعلق بالماضي، «الذاكرة الجماعية تعمل باتجاهين: إلى الخلف، وإلى الأمام. فالذاكرة لا تستعيد الماضي وتعيد بناءه وتركيبه فحسب، بل تنظم أيضاً خبرة الحاضر والمستقبل؛ وهذا

٢١١ بشارة، عزمي، «الذاكرة والتاريخ»، مصدر سابق، ص ٤٦.

ليس من الصواب أن نقابل «مبدأ الذكرى» الذي يمثل الماضي «بمبدأ الأمل» الذي يمثل الحاضر والمستقبل: فكلاهما يستوجب وجود الآخر، ولا يمكن تصور وجود أحدهما دون وجود الآخر».[٢١٢]

أما مدير بلدية رام الله أحمد أبو لبن،[٢١٣] فينظر إلى أن المتحف بالتحديد، وهو أحد أماكن الذاكرة، يمثل إحدى الاستراتيجيات الوطنية التي يجب الاهتمام بها والعمل بجدية عليه، «البلدية بتشتغل على موضوع المتحف، ويجب أن يتم تناول رام الله تاريخياً من جرّة، لورقة تعود أيام العثمانيين وقبل، الآن متحف رام الله الذي لا نعترف بشرعيته ورافعين قضية على وزارة السياحة حتى يتم إخلاؤه، لأنه لا يمثل متحف حقيقي، بالتالي تم شراء المنزل الذي خلفه والقيام بعملية ترميمه حتى يتوسع ويصبح متحفاً يمثل ذاكرة حقيقة».

إن الإشارات المتعددة إلى المتحف سواء بناء المتاحف أو بناء متحف ياسر عرفات الذي يعتبر شكوكاني «إن متحف ياسر عرفات كفيل بتسجيل وأرشفة الأحداث التي حدثت في مقاطعة رام الله فترة الاجتياح»، تشير إلى التوجه المعاصر في الخطاب الدولاتي العالمي نحو التركيز على فكرة المتحف باعتباره مؤسسة تنتج الحقيقة التاريخية، وتحافظ على ذاكرة المجتمعات بحيزه المكاني.

---

٢١٢ اسمن، ايان، مرجع سابق، ص ٧٣.

٢١٣ أحمد أبو لبن، مدير بلدية رام الله.

جيرار ليكرك يصف الولع الجديد في فكرة المتحف كنوع من القداسة التاريخي والجمالي الفني بعيداً عن قداسة الألوهة، ويرى أنها عناصر جدية من إنتاج الحضارة الغربية في مراحل الحداثة التي مرت بها «لم تعد الحضارة الغربية تبني كاتدرائيات، فهي لم تعد تنتج فناً مقدساً. لقد انقطعت عن أن تجعل الفن يلعب دور الوطنية الدينية، وبخاصة منذ أن فقدت جزءاً من إيمانها بالآلهة. خلافاً لذلك، إنها تبني المتاحف وترى في الفن شكلاً جديداً من المطلق، كما أنها ترى في خلود الأعمال الفنية مادة بديلة ممكنة عن موت الآلهة. إذ لم تعد هذه الحضارة تؤمن بالآلهة، فهل يكون ذلك مسبباً لكي تنظر إلى «الموضوعات» التي كانت فيما سبق حاملة قيماً دينية، بنظرة «جمالية» أو «نظرة فعالية في تقديرها لما هو جمالي»؟ «يحول المتحف العمل الفني إلى موضوع». ترتبط ولادة المتحف الخيالي بولادة الإثنوغرافيا -حيث المقصد يعتمد المقارنة أيضاً- وبمتاحف الرسم العربي، حيث لا تعود للفن قيمة دينية بل قيمة تاريخية وجمالية: «كان تحول الماضي تحولاً في النظرة. دون هذه الثورة الجمالية ... ما كان يقدر لمجموعات الإثنوغرافيا .. أن تجتاز الحاجز الذي يفصلها عن المتاحف».[٢١٤]

يحدث التمسك بأماكن الذاكرة بفعل اعتبارات الخطاب التاريخي الذي يقدم احتكاره للحقيقة؛ سواء ببنائها أو بإعادة بنائها، فلقد كان التاريخ أسطورة منيعة، لعلها آخر أسطورة كبيرة مع اللاوعي. كان أسطورة تنطوي في الآن نفسه على احتمال التسلسل «الموضوعي» للحوادث والأسباب واحتمال التسلسل السردي في سياق الخطاب. هذا الطابع الخرافي، هذه الطاقة الأسطورية للحدث أو لروايته، هو ما يبدو أكثر فأكثر أنه على طريق الضياع. وخلف منطق يقوم على الكفاءة والإقناع، وعلى الهوس بالأمانة التاريخية والأداء الكامل، هذه الأمانة السلبية والعنيدة لحقيقة الماضي، ولحقيقة هذه الواقعة من الماضي أو الحاضر، والأمانة ببعث مصطنع مطلق للماضي أو الحاضر، التي حلت محل كل قيمة أخرى.[٢١٥]

تفترض العالمية، أو تدعي، إن سمح لنا القول، ظهور أول كوني عابر للحضارات، أو حداثة ما بعد تاريخية. يمكننا أن نتخيل هذه الحداثة العابرة

---

٢١٤ ليكرك، جيرار. العولمة الثقافية، الحضارات على المحك، ترجمة: جورج كتورة، بيروت: دار الكتاب الجديدة المتحدة، ٢٠٠٤، ص ٣٢٣.

٢١٥ بودريار، جان. المصطنع والاصطناع، مرجع سابق، ص ١٠٦.

للثقافة عينياً بشكل المتحف الخيالي، أو بشكل مكتبة بابل. إنهما نموذجان- فعليان ووهميان في آن واحد- أصلهما المشترك يعود إلى أركولوجيا القرنين التاسع عشر والعشرين، وإلى فقه لغة القرنين التاسع عشر والعشرين. بعبارات أخرى، إن لهما رديفاً هو ما أطلقت عليه اسم «اللانهائي النصي»، وولادة «الأدب العالمي» أو «الأدب المقارن»، وتأويلية ذات نمط جديد، صار ضرورياً بفعل ما للخطابات الثقافية من صراع عام، وبفعل «المضاربة» بين النصوص المقدسة والكتابات القديمة والكلاسيكيات.[٢١٦]

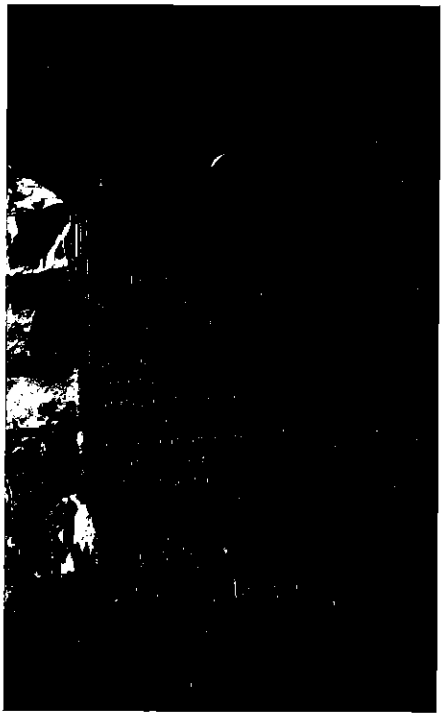

من الصراع على الحقيقة، فإن «تحليلها» كتصور للموجود أو كشف للمحجوب، لا تنفصل عن «سياسة» الحقيقة؛ أي عن آليات إنتاجها أو إجراءات إقرارها أو مؤسسات نشرها وتداولها. والأهم أن قول الحقيقة لا ينفصل عما تمارسه الخطابات، فيما تدعي بيانه، من ألاعيب التصنيف

٢١٦ ليكرك، جيرار، مرجع سابق، ص ٣٣٣.

والاستبعاد، أو من آليات الحجب والتعتيم. وكل ذلك يؤدي إلى تجاوز منطق المماهاة بين الموجود والمفهوم، أو بين المفهوم والمقول. من هنا الطابع الإشكالي للحقيقة بقدر ما ندعي الكشف عنها بهذا المعنى أيضاً، نحن لا نفكر لكي نتماهى مع ما نعتقده أو نتصوره، بل نفكر لكي نتغير عما نحن عليه ويصوغ أفكارنا على نحو مغاير. وهكذا مع كل عمل فلسفي خارق، نجد أنفسنا إزاء حدث فكري يخرب مشهد المعارف وخارطة المفاهيم، بحيث يتغير التفكير بعده عما كان عليه قلبه».[٢١٧]

ما تبحثه هذه الدراسة أو ما تسأل عنه، لا ينخرط بلعبة سياسة الحقيقة، بل هي عبارة تحليلية بسيطة عن الخطاب الذي ينتجها، ومن ناحية أخرى كيفية تعامل المجتمعات المستعمَرة كالمجتمع الفلسطيني مع الحدث؛ الحدث الذي يتصادم فيه المجتمع بناسه وأشيائه مع هذا الصراع، وكيف يقوم بالتعبير عنه في الفضاء الاجتماعي، وما يشكله من رموز ودلالات تنتج الأفراد وتنتقل بينهم.

٢١٧ حرب، علي، مرجع سابق، ص ١٢.

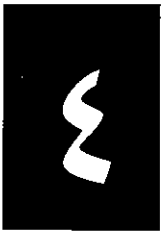

الفصل الرابع

خطاب العمارة اللاعنيفة، استيلاد فلسطيني في الواقع الاستعماري

استكمالاً لكل الفصول التي سبقت، وكمجموع لتحليل الخطاب، وطبيعة البنية الاستعمارية، والإنتاج الرسمي الفلسطيني لصورة العمارة الحالية، تأتي هذه الجزئية في عنوان «عقلنة مواراة الموت» من قبل الفلسطينيين الذين خلقوا لأنفسهم حيزاً سياسياً فارغاً، بعد الانتفاضة الثانية، تحت اللبس الوطني الذي خلقه مجموع العوامل والخطابات الاستعمارية، التي ستتم محاولة تفكيكها ضمن الحياة المتخيلة لفكرة العيش الفلسطيني.

١, ٤ الوقوع في شبك اللاعنف للمقاومة ضد المستعمِر بعد الانتفاضة الثانية

بقي المجتمع الفلسطيني فترة الانتفاضة الثانية متلقياً ضربات العدو لا فاعلاً ومقاوماً، إلا في مساندة الطليعة المقاتلة من المسلحين في أوقات معينة كالاحتجاجات، واختلفت بطبيعتها عن فترة الانتفاضة الأولى التي لم يكن فيها انفصال بين القاعدة الشعبية والمقاومة، وذلك بفعل غياب القوة التنظيمية في فترة الانتفاضة الثانية، وكذلك اختلاف طبيعة الممارسات الاستعمارية على المستعمَرين. وبالتالي، انحصر العمل الانتفاضي في العمل المسلح وحرب العصابات غير المنظمة في المراكز الحضرية الكبرى. وتمثلت الانتفاضة الثانية بإفراغها للرموز الدالة على الوطنية الفلسطينية، بل وإسقاطها واستبدالها بالدولة الجديدة. وما نتج في النهاية مجموعة من آليات السيطرة الاستعمارية التي أعادت صياغة أوسلو نحو الاحتواء والإقصاء؛ الاحتواء في الربط السياسي للفلسطينيين من خلال وجود السلطة الفلسطينية، والإقصاء الجغرافي والاجتماعي والقانوني دون سيادة حقيقية. فأصبح التصادم مع المستعمِر من كل ذلك غير واضح، وأكثر تعقيداً، كما أصبح أقل مباشرة، ومبعداً عن المرئي.[٢١٨]

سئلت مجموعة من المبحوثين ما رأيهم بإزالة آثار الهدم والقصف التي حدثت في الانتفاضة الثانية، وإذا كانوا مع أو ضد هذه الممارسة، بحيث تنوعت الإجابة وتشابه المضمون سواء عند مبحوثي مواقع الإنتاج الاجتماعي، أو مستقبليه:

موسى حديد-رئيس بلدية رام الله: «ببساطة شعب بدنا نعيش، هاي بلادنا ما رح نضل عايشين في بلد مدمرة، والاحتلال دخل ودمر كل البنى التحية، وعمل نفس الشيء في الانتفاضة الأولى، وإن لم يكن بنفس المستوى، ولكن هذا الإشي الموجود، في النهاية عشان نستمر بالحياة، لازم نضل في عملية بناء متواصل».

---

٢١٨ طبر، لينا، عزة، علاء. المقاومة الشعبية تحت الاحتلال، قراءة نقدية وتحليلية، رام الله: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠١٤، ص ٤٦-٥٠.

نينو-مدير مكتب نينو للاستشارات الهندسية: «الحل هو إنو يكون فيه حل سلمي دائم، طول ما إنو ما فيه حل سلمي دائم إذن ما في ضمانات، سيحدث الهدم والقصف، ثم إعادة الإعمار».

الرائد صوالحة: «كيف سنبني دولة مع عمار مهدم!».

استيتية: «كيف بدنا نعيش بين الهدم، الحياة ما بتمشي».

عبد الرحمن:[٢١٩] «ليس منطقياً أن يبقى الهدم، في النهاية حياتنا مرهونة بمنازلنا وأماكن رزقنا، ومؤسساتنا».

منى:[٢٢٠] «يمكن الفلسطينية قاموا بإزالة الهدم لنفس السبب الذي قال فيه محمود درويش «على هذه الأرض ما يستحق الحياة».

محمد:[٢٢١] «يعني صار إليَّ صار، خلص بدنا نعيش».

زماعرة:[٢٢٢] «أنا مع إزالة الهدم حتى لا يبقى أي أثر للاحتلال».

خالد سعد:[٢٢٣] «نعم أنا مع إزالة آثار الهدم والقصف لنظهر ملامح الحضارة والتقدم والجمال في بلادي».

أبو عريضة:[٢٢٤] «أنا من سكان الإمارات، ولما دخلت البلد من أجل أن أدرس ما كان في أي أثر للهدم، مع إني كنت متابع لأخبار الانتفاضة الثانية، والواقع أني صدمت وفكرت إنها كانت مزحة».

تشير إجابات المبحوثين، سواء بمواقعهم الوظيفية الرسمية، أو مجموعة المبحوثين المستقبلين للعمارة، مجموعة من تخيلات العيش كفلسطينيين في الخطاب المعاصر التي تتبع تمثيل جديد للذات في انسحابها من رؤية الواقع الاستعماري، فـ«الدولة الفلسطينية» التي أصبح الفلسطينيون يعيشون في كنفها، تحت وهم التمثيل الدولي، تجعلهم ينتظرون الفعل حتى يقوموا برد الفعل، في إبعاد سياسي لوضع استراتيجية واضحة للمقاومة.

---

٢١٩ عبد الرحمن (٢٥ عاماً)، من سكان مدينة رام الله.
٢٢٠ منى (١٩ عاماً)، من سكان مدينة رام الله.
٢٢١ محمد (٢٨ عاماً)، من سكان مدينة الخليل.
٢٢٢ زماعرة (٣٢ عاماً)، من سكان جنين.
٢٢٣ خالد سعد (٢٧ عاماً)، من سكان مدينة جنين.
٢٢٤ أبو عريضة (٢٥ عاماً)، سكان الإمارات، وحالياً يعيش في رام الله.

يقدم السقا عن هذه الحالة المجتمعية المعاصرة للفلسطينيين التي يسميها «حالة التشوه الاستعماري، الذي يعيشه الفلسطينيون»، وتقوم على استحضار مجموعة من الخطابات التي تعمل من خلال وسائل الإقناع المختلفة التي توحي للفلسطينيين بأنهم يعيشون في «دولة تحت الاحتلال»، وتغيب مشاريع «التحرر» وقيم «العمل التوعوي»، و«مقاومة الاستعمار».[٢٢٥]

من أين يبدأ الحديث عن التشوه الاستعماري في فلسطين؟ إن بقاء الاستعمار الإسرائيلي كشكل غير مرئي في الوعي الفلسطيني تبعاً لإجابات المبحوثين الذين ربطوا بقاء الهدم الذي سببه الاستعمار هو تدليل على وجوده، وإزالته هو دلالة على إزالة مسببه. إن هذه الرؤية التي يخلقها الفلسطينيون لوجود المستعمِر هو إحدى دلالات التشوه الاستعماري في فلسطين. فالخطاب الاستعماري، يحول بين الفكر والعمل السياسي، حتى يبقى الأول غير مثمر، والثاني أعمى، هكذا يجمد الاستعمار القوات التي تناضل ضده،٢٢٦ وتصبح الثورة ضد الاستعمار بعيدة عن التحرر والحرية في وعي المستعمرين، وتتملك منهم القابلية للاستعمار. يقوم الاستعمار على تجميد القوى المناهضة له في البلاد المستعمرة، فيعزل الفكرة، ويعزل معها بطبيعة الحال المكافح الذي دخل المعركة تحت رايتها، ليجد نفسه في اتفاق ضمني بين السياسة الشهوية وبين الاستعمار، فطبيعة السياسة العاطفية تتجه تلقائياً نحو السهولة، ونحو التغلغل في أجهزة يسخرها المستعمر لمصالحه.[٢٢٧]

من أبرز النماذج التي تدلل على التشوه الاستعماري في فلسطين؛ الإشكاليات التي تحدث على الحالة الفلسطينية في التصور الأفلاطوني الذي قد تحققه الدولة للفلسطينيين في معركة غلبة الاستعمار الإسرائيلي، ما تجعله يتجه نحو دولية قانونية تستدعي شرعيته، ليرد على رواية الغالب، مجرد النزوح نحو التأثر بغلبة المهيمن جعلت فلسطين كنموذج ترتكب التشوهات الاستعمارية مع التشوهات السياسية الجغرافية لما قد يشكله الكيان الوطني القطري.

---

٢٢٥ السقا أباهر. «عنف «اللاعنف» في الخطاب الفلسطيني الجديد»، جدل، عدد ٢٣، مدى الكرمل ٢٠١٥، ص ٣.

٢٢٦ بن نبي، مالك. الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، مصدر سابق، ص ٣٠.

٢٢٧ المصدر السابق، ص ٣١.

«لا مرجعية تعلو فوق الشرعية الدولية، لنحول لاهاي من رأي استشاري، إلى قرار»، صورة معلقة على أحد الأبواب القديمة في البلدة القديمة بنابلس[٢٢٨]

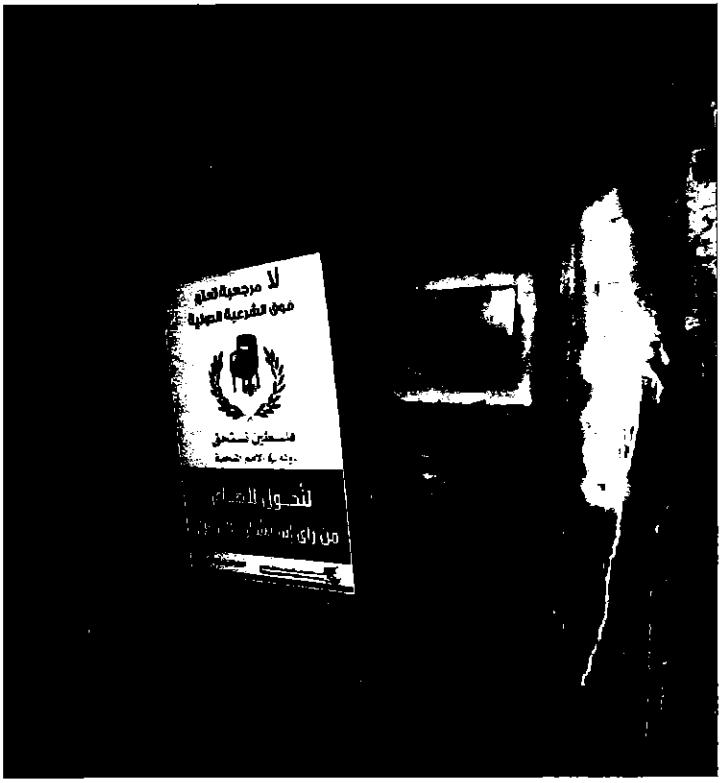

تكمن المشهدية الجديدة للمقاومة الفلسطينية في تصويرها بحدود «السلمية»، «اللاعنيفة»، وذلك في محاولة استجداء تعاطف دولي غربي تبدأ من خطاب المؤسسة الفلسطينية الرسمية، وتنتقل إلى الناشطين في المجتمع المدني، أو الحركات الاجتماعية التي تمارس الاحتجاجات السلمية بصورها المختلفة، في موضعتهم للقوة خارج المجتمع المستعمَر، ونقلها لمقدرة الحصول على الشرعية والمحاسبة الدولية لجرائم الاستعمار. فالاعتماد هنا على الوازع

٢٢٨ تصوير الباحثة، ٢٠١٥.

الأخلاقي للمشاهد الغربي في نقل مشهدية سلمية للمقاومة الفلسطينية، والتركيز على أننا «نستحق» دولة من خلال مشروع «بناء المؤسسات»،[٢٢٩] المؤسسات نفسها التي تلبس عاراً سلمياً لا تظهر فيه أي علامات للمقاومة «العنيفة» التي ذهبت دلالاتها بعد إعادة الإعمار. فالمشهدية البصرية لمعمارية الفضاء الاجتماعي، أُنتجت بالخطاب نفسه المستبطن عن أهمية نقل الصورة «السلمية» دون آثار لعنف الحرب والدمار التي حدثت فترة الاجتياحات، والتي تحاول فيها المؤسسة الرسمية الفلسطينية تقديم برنامج يقوم على تحقيق النمو والازدهار وأهمية إعادة الإعمار، ومكافحة الفساد كحل جديد للواقع الفلسطيني، وهذا الحل يقصي أي مقاومة عسكرية، بل يحافظ على إعلاء أهمية بناء الدولة عند الفلسطينيين الذين تأثروا بتبعات الظاهرة السلمية للمقاومة كحل بديل.

تقوم الحالة الفلسطينية في تقديم مبررات الواقعية وحق الناس بالعيش في حالة التشوه الاستعماري المطروحة، وذلك يترافق مع غياب سياسات اجتماعية واقتصادية تقوم على تحشيد القوى من أجل مناهضة الاستعمار، وما يساعد في عدم وجود الخطاب المضاد لخطاب المؤسسة الرسمية الفلسطينية، إن الاستعمار لا يبرز للفلسطينيين إلا في ظهور المستعمِر بشكل مرئي عند تنقل الأفراد بين المدن، أو عمليات القتل والتدمير والاعتقالات[٢٣٠] التي أصبحت هي أيضاً تقبع في خطاب المواراة، واحتواء جميع الردود الشعبية التي تحاول إبراز الوعي أو الحقيقة عن الواقع الاستعماري.

إن الاستعمار يبتدع أشكالاً مختلفة لمحي معركة الأفكار، ويسلط الضوء على ركن معين من المسرح، أي على النقطة التي يريد لها أن تظهر، من أجل امتصاص القوى الواعية في البلاد المستعمرة، حتى لا تتعلق بفكرة مجرّدة عن طريق تعبئتها لحساب فكرة متجسدة، يستطيع النيل منها؛ سواء بالقوة أو الإغراء، وهو في الوقت نفسه يعمل على حربه ضد الفكرة المجردة عبر متخصصين استعماريين على دراية تامة بخارطة البلاد النفسية، وحول هذه الأفكار المجردة وطرق الاستعمار في مواجهتها وحربها تدور كل فصول

---

٢٢٩ طير لبندا، عزة علاء، مرجع سابق، ص ٦٦.

٢٣٠ السقا، أباهر، مرجع سابق، ص ٦.

المسرحية.[٢٣١] يتشارك الاستعمار الصهيوني ولا ينفصل عن الإمبريالية العالمية بصورها المبتدعة من التمويل، وارتفاع السياسات النيوليبرالية التي تتغلغل في البنية الاجتماعية الفلسطينية، وتعمل على تشكيل صورها بادّعاء عقلاني وموضوعي. ومن الأمثلة المطروحة على ذلك، عملية التمويل التي رافقت بناء المقاطعات في الضفة الغربية، والتي ستطرح في الجزء القادم من البحث.

٢,٤ التمويل يرسم مؤسسات الدولة وخطابها معمارياً «النموذج الأمني»

إن ظهور المقاطعات بهذه الصورة الجديدة التي ألصقت بمشهد الصورة في معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، لا ينفصل عن مجموعة من العوامل السياسية الاقتصادية، التي ترتبط بدورها بخطاب معولم ومهيمن من خلال برامج المعونات التي لم تعد إلا جزءاً يألفه الفلسطيني في واقعه المعاش، وفي تنظيم خططه المستقبلية المتبناة داخل الخطاب الدولاتي التي أشير إليها مسبقاً.

الارتباطات التي تشكل الفضاء الاجتماعي هي مجموعة من قوى السلطة التي تتمحور حول ثلاث منها؛ الأولى هي القوة الاستعمارية، والجماعات المهيمنة (أيديولوجياً) المتمثلة بالجماعات التي تحاول فرض تصوراتها على المجتمع وتحوير الأحداث لصالحها الخاص، وهي تصنف «جماعات» لأنها فلسطينياً بفعل الصراع على السلطة بين فتح وحماس، إضافة إلى مجموعات أخرى تحاول تحقيق مصالحها عبر نفوذها في النظام السياسي الفلسطيني دون أن تكون داخله كالقطاع الخاص. أما القوة الثالثة فهي المنظومة العالمية من خلال شبكة المساعدات التي تقدمها للفلسطينيين والكيان الاستعماري على حد سواء.[٢٣٢]

تقوم فكرة الهدم، وثم الإعمار، على تدليل مباشر للهيمنة الاستعمارية على تشكيل هذا الفضاء؛ من حيث قيام الاستعمار الإسرائيلي بشن الحرب على «تكتلات» السلطة الفلسطينية بأبنيتها فترة الانتفاضة الثانية، ومن ثم

٢٣١ بن نبي، مالك، مرجع سابق، ص ١٤-٣٦.

٢٣٢ حمدان، آيات. المساعدات الخارجية وتشكيل الفضاء الفلسطيني، رام الله: مركز بيسان للبحوث والتنمية، ٢٠١٠، ص ١٢.

فرض خطابه الاستعماري على السلطة الفلسطينية بفرض نماذج معمارية استعمارية مستدخلة لإعادة تعزيز فكرة «المؤسسة الأمنية» فلسطينياً، كما صممت المقاطعات الجديدة، أو كما لبثت تقبع مكان السلطة الاستعمارية القديمة. أما تداخل هذه القوة مع المجموعات الأخرى، فهو ما سيحاول البحث قراءته بإشارات تقاطع الواقع في المعمارية التي تنتج داخل الفضاء الاجتماعي الفلسطيني تحت مفهوم «عقلنة مواراة الموت»؛ عبر استخدام المهنية التي تلتبسها المؤسسات غير الحكومية، والتي تنقل خطاب عقلانية التنمية في التطوير، ومنها إعادة الإعمار، وثم تنقل هذا الخطاب إلى الممارسة بالتشارك مع المؤسسات الرسمية، وبعدها تبدأ عملية التدخل في تشكيل بنية جديدة تنقل صورة عقلانية لإزالة آثار الهدم، ومنطق تنموي للبدء بإعادة الإعمار. يصف صبيح «مهننة المنظمات غير الحكومية» بفرض التخصص التقني الذي حد من اللجوء إلى الجماهير كأساس لشرعنة الفعل، والتدخل في «الحيز العام»، فيمثل هذا التحول، في إحدى سماته، تشكيل إطار مختلف يتعامل مع المحليين بوصفهم مواضيع فردية لا «ذوات» فاعلة في عملية التغيير، وفي حين تغيب الذوات المحلية عن المشهد، يظهر الممول الغربي «الذات» الفاعلة، فهو من يحدد ماذا يصلح من المفاهيم والبرامج.[٢٣٣]

ملايين من الدولارات صرفت وتصرف حتى اليوم في إعادة إعمار المقاطعات، ولا يمكن تجاهل هذه القوة التي أصبحت تشكل عاملاً أساسياً في الهيمنة، وممارسة سلطة فرض القواعد على من يستجلب العون من هذه المساعدات الخارجية. قسمت أربع من المقاطعات (جنين، نابلس، طولكرم، الخليل) على مصدرين من التمويل؛ الأول الاتحاد الأوروبي، والثاني التمويل الأمريكي، يعتبر الرائد صوالحة أن «هذه التقسيمات لا تأتي تبعاً لأي تصنيف للمقاطعات، فهي صممت بالأهداف نفسها والشكل نفسه، بالتالي هي تقسيمات عادية للتمويل، ولا يتبع التقسيم لسياسة أي من الممولين. يكمن تفحص هذا التمويل العالي لمعرفة ما هي الدوافع وراء التمويل الأجنبي العالي لهذه الأبنية، وما أثر التوقيت الذي بدأت به إعادة إعمار المقاطعات في العام ٢٠٠٧. بينما يوضحه صبيح عن تلك التقسيمات السابقة التي يرى أنها موجودة بين التخصص والممول في بحثه الذي أجراه «من خلال عرض شهادة المفاوض

٢٣٣ صبيح، صبيح. مقاتلو التنمية، بين خرافة التطبيق وعقائدية الخطاب والتصوير، رام الله: مركز بيسان للبحوث والإنماء، ٢٠١١، ص ٧-٨.

السابق زياد كلو؛ أن تمويل الأجهزة الأمنية في الأراضي الفلسطينية، تحديداً: الأمن الوقائي والمخابرات، حالياً يخضع للإشراف والاحتكار الأمريكي»،[٢٣٤] ربما يكون ما أشار إليه صبيح هو باحتكار التمويل المربوط بسياسة الوظيفة للأجهزة الأمنية، ولكن بالصورة العامة كان تمويل إعادة الإعمار هو تقسيم بين تمويل الاتحاد الأوروبي، والتمويل الأمريكي.

بيانات عن تكلفة مشروع مقاطعة طولكرم،[٢٣٥] وهو يتبع للتمويل الأمريكي:

اسم المشروع: معسكر عمليات الأمن الوطني في طولكرم - المرحلة الثابتة، شركة شديد المقاول

قيمة العقد: ٧,٨٦٩,٢٨٠ شيكلاً

رقم المشروع: ٨٧:١/٠٩/٢٠١٢

إعادة بناء مقاطعة طولكرم (مبنى القيادة) المقاول شركة المؤسسة العقارية العربية

رقم المشروع: ١٥٦:١/٠٩/٢٠١٠

قيمة العقد: ٨,٣١٨,٢٢٣ شيكلاً

إنشاء مبنى المنامات: المقاول شركة النخيل للمقاولات والتعهدات العامة

رقم المشروع: ١٠:١/٠١/٢٠١١

قيمة العقد: ٨,٢٩٥,٠٠٠ شيكل

إعادة بناء مقاطعة طولكرم المرحلة الأولى: المقاول شركة الطاهر للمقاولات

رقم المشروع: ١١٩/ ٠٧/ ٢٠١٠

قيمة العقد: ٣,٢٠٣,٤٨٩ شيكلاً

لماذا حصلت السلطة على الميزانيات العالية لتمويل مشروع إعادة إعمار المقاطعات؟ هذا السؤال الذي يفرض نفسه بالحد الزمني الذي حصل

---

٢٣٤ المرجع السابق، ص ١٣.

٢٣٥ بيانات عن المشروع من قبل مديرية أشغال طولكرم ٢٠١٣.

فيه التمويل، وكذلك بسرعة التنفيذ التي طبقت في مشروع ضخم كهذا، وبأدوات بناء خاصة استخدمت فيه؛ ومن البحث الميداني كانت إجابات بعض المبحوثين تقدم إشارات لأثر التمويل في رسم سياسات الواقع الفلسطيني المعاصر بمعماريته، وبإنتاجه. وإحدى الإجابات كانت للمكتب الهندسي «نينو» الذي قام بتصميم نموذج المقاطعات الجديدة، والذي قال إن «المشروع طرح على المكتب في سنة ٢٠٠٧، وأعطي المكتب مهلة سنة واحدة حتى انتهائه في سنة ٢٠٠٨، لأنهم كانوا يريدون أن يتم التنفيذ بشكل سريع». وإجابة أخرى لكفاح بدران القائم بأعمال مدير مديرية أشغال طولكرم، حيث سئل، كيف حصلت المقاطعة على هذا التمويل العالي لإعادة الإعمار؟

«من الأمريكان، لان الأمريكان والأجانب الممولين يعتبروا أن أهم شيء هو الأمن، وأن الأولوية هي ببناء قطرات أمنية، وبدأ في الـ ٢٠٠٧ من ناحية طرح العطاءات والتصميمات.

الإشراف لمديريات الأشغال، أما المقاولين، فالسفارة الأمريكية يختاروا مجموعة من المقاولين لتعبئة العطاءات، ثم يختاروا مع وزارة الأشغال المقاول الذي سيرسي عليه العطاء. هذه العطاءات لا تنزل الصحف، وفي أغلب الأحيان السفارة الأمريكية تعرف مسبقاً من هو المقاول الفلسطيني الذي ستتعامل معه، ومسبقاً يكون بين الطرفين اتفاقيات».

وعلى خاصية طرح التمويل أو العطاء كما يسمى بين الأطراف الهندسية، يؤكد هشام شكوكاني على ما جاء به كفاح بدران «الحالة الخصوصية هنا أننا لا ننزّل إعلان في الصحف، فالمباني هي مبانٍ أمنية. الأشغال عملت ما يسمى بالعقد الموحد وهو الفيديك. هو اختصار لشيء فرنسي يتعلق بالعطاءات «الاتحاد الدولي للاستشاريين المهندسين». ليس من الضروري أن يعمل بها الكل، يعني هذا الكتاب يشمل شروط عقد التشغيل، وإذا حدثت أي خلافات يتم الرجوع إليه، وممكن أن تعدل عليها تبعاً لأي حالة خاصة تحدث، كوضع الاحتلال، وارتفاع بعض سلع البناء مثلاً».

تنظر منظومة التنمية في الأراضي الفلسطينية بواقعها الاستعماري، كما تنظر إليها في مناطق أخرى من العالم، حيث تقوم بتأطيرها على أنها تدخل فني لا أكثر، وتخرجها وتعزلها عن القوة التي يفرضها المشروع الكولونيالي،

لتصبح غير مرئية، وتبدأ الرؤى التكنوقراطية بإخراج التنمية من سياقها السياسي وإقصاء علاقات القوة منها، وكذلك بمناهضتها للسياسة، فهي تقوم بتعزيز ممارسة الدولة البيروقراطية.[٢٣٦]

إن حجم التمويل الغربي، ونوعه، مرتبط بغاية أساسية قائمة على الحفاظ على «أمن إسرائيل»، وضمان وجودها، وتحقيق مصالحها، فالكيان الصهيوني يمثل أداةً للمشروع الإمبريالي الغربي الذي يستوجب حمايته بالطرق «السلمية»، وغير «السلمية». وكانت بداية التدخل الغربي في التمويل منذ انطلاق الانتفاضة الأولى في العام ١٩٨٧، حيث تدخلت لرعاية «عملية السلام»، ودفع منظمة التحرير للدخول فيها بأي ثمن. ومن هنا بدأت مرحلة أوسلو التي سمحت بالتدخلات الدولية تحت شعار «تنمية فلسطين»؛ ولكن بتبرير البحث عن تحقيق الاستقرار والأمن، الذي بالطبع يكمن في تحقيق أمن «إسرائيل» بالدرجة الأولى. وأصبح التذبذب في عمليات التمويل وكمياته معتمداً على فترات نشاط المفاوضات، أو ارتفاع عوامل تهديد السلام. كما حدث في العام ٢٠٠٦ بعد فوز حماس[٢٣٧] في انتخابات المجلس التشريعي.[٢٣٨] هذه المرحلة شكلت مرحلة الفصل أو القطع بين الوعي مع استمرار الممارسة؛ فانقطاع التمويل منذ لحظة فوز حماس لم يكن إلا دليلاً واضحاً على ممارسة الإقصاء على أحد أطراف التهديد للمشروع الاستعماري، فانقطاع التمويل شكل رهاناً جديداً في تحولات المشروع الوطني، وأخذ في تدرجاته مرحلة الفصل السياسي بين «فتح» و«حماس» كطرفين منقسمين في لعبة سياسية جديدة اجتر فيها الفلسطينيون لمرحلة سميت بمرحلة «الانقسام»، التي تطرح تمثلاتها حتى هذه اللحظة.

---

٢٣٦ طبر، لينداً وآخرون. نحو اقتصاد سياسي للتحرر، قراءات نقدية للتنمية في السياق الاستعماري، رام الله: مركز دراسات التنمية - جامعة بيرزيت، ٢٠١٤، ص ١٦-١٧.

٢٣٧ ما حصل بعد انتخابات المجلس التشريعي العام ٢٠٠٦ وفوز حماس فيها، قامت اللجنة الرباعية بإمهال حماس مدة شهرين للاعتراف بشروط اللجنة الرباعية، وهي: الاعتراف بالاتفاقيات الموقعة بين «إسرائيل» ومنظمة التحرير، والاعتراف «بإسرائيل»، ونبذ العنف والإرهاب، وقبول الاتفاقات كخارطة الطريق؛ التي تنص على قيام دولة فلسطينية إلى جانب «إسرائيل»، مقابل الاستمرار في تقديم المساعدات للشعب الفلسطيني، ورفضت حماس جميع الشروط، ومنه أن قطعت جميع المساعدات عن الحكومة الفلسطينية التي تشكلت باسمها. راجع: حمدان آيات، مرجع سابق، ص ٢٤.

٢٣٨ حمدان، آيات، مرجع سابق، ص ٢٣-٢٤.

ما طبيعة المصادفة في انقطاع التمويل في العام ٢٠٠٦، وإقرار تمويل المقاطعات التي تحتوي على «الأجهزة الأمنية الفلسطينية» في العام ٢٠٠٧؟ الإشكالية أنها بالتأكيد ليست مصادفة، وانطلاقاً من استراتيجية الحفاظ على «أمن إسرائيل» من الطرف الغربي، بدأت قصة تنمية وإعمار فلسطينية جديدة. الفكرة في زيادة التمويل بعد انقطاعه في العام ٢٠٠٦، كان على نتيجة الانقسام بين فتح وحماس، ومنه أن زيادة التمويل جاءت لصالح فتح بمسمى السلطة الوطنية الفلسطينية على حدود فلسطين العام ٦٧، بحيث تملك الخطاب النيوليبرالي خطوة نحو ترسيخ الانقسام أولاً لصالح بقاء السلطة وإن كانت وهمية بأن تبقى تابعة لفتح، وثانياً لأن بقاء فتح وليس حماس، أساساً في حماية غربية للاستعمار الإسرائيلي. والعامل الآخر الذي برز على السطح في هذه الفترة هو ما سمي بمرحلة «سلام فياض» المعنونة بـ«خطط التنمية في فلسطين»، وخطته الأولى التي كانت العام ٢٠٠٧، وكان عنوانها «بناء الدولة الفلسطينية: نحو السلام والازدهار»، هذه المرحلة التي تعاملت مع التنمية كجزء أصيل له علاقة بالهوية الوطنية الفلسطينية، إلا أنه وحتى هذه اللحظة، لا يعكس إلا نموذجاً معولماً، في هيمنة عالمية اقتصادية، ومغلف بظاهر مهني وتقني وإداري.[٢٣٩]

فتعزيز المؤسسات الدولاتية كالمقاطعات في الضفة الغربية وأجهزتها الأمنية التي بنيت بكل أطرافها من الباطون المسلح، ومن «الأسطح الملساء»، وعلى حد تعبير أحد المبحوثين، لمنع النمل من التسلق، دلالة من النمل لم يكن الإسرائيليين، بل بتهكمية الصورة كانت تدل على منافس فلسطيني ممنوع من تسلق جدران مؤسسات الدولة المتوهمة.

تميزت المقاطعات الجديدة ليس فقط بشكل معماري يحلل بعمارة معادة استعمارياً وتفرض ممارسات الضبط والرقابة بشكل معدل على الفلسطينيين؛ وإنما تميزت بأدوات بناء جديدة، تختلف عن المقاطعات القديمة، كالباطون المسلح، الذي على حد تعبير المهندس غسان نينو تم «حساب سُمك الإسمنت والحديد لمنع اختراق قذيفة دبابة، أو على الأقل لحماية الأشخاص في داخل المقاطعة».

---

٢٣٩ صبيح، صبيح، مرجع سابق، ص ٤٦-٤٧.

تظهر السياسات والخطط مجموعة من المشاريع التقنية والمهنية التي تحاول إزالة السياسة عن محورها، ولكن تظهر أجزاء المشاريع المعمارية التي نفذت بها المقاطعات، مجموعة من تفعيل خطاب سياسي يحمل سلطة وهيمنة تمويلية تحمل معها حتى تحديد مواد البناء التي تعكس طابعاً سياسياً بامتياز. تقول إحدى مهندسات مشروع المقاطعة في طولكرم إن «الباطون المسلح ليس فقط في الجدران، وإنما حتى «قوارة الورد» في المقاطعة فهي مبنية من الباطون المسلح». إذا كان الباطون المسلح يحمي من قذيفة الدبابة الإسرائيلية، على سبيل المثال، أين تذهب الحماية في قصف الطائرات التي لا يسلم منها أي نوع من الباطون، فما هو الأمن الذي يقدمه العمار المسلح الجديد، وتبعاً لإجابات المبحوثين الذين قبلوا بالإجابة عن سؤال: هل تعتقد أن المقاطعات ستقصف مرة أخرى؟

شكوكاني: «نعم ممكن.

في العالم كلو ممكن تصير حرب.

والاجتياح الإسرائيلي هو حرب».

الأعرج:[٢٤٠] «هذا سؤال يوجه إلى نتنياهو! الإجابة عن هذا السؤال صعبة، لا أستطيع الإجابة عنه بحكم وظيفتي، ولأنني هنا لا أمثل رأيي الشخصي، وإنما المؤسسة التي أعمل لديها، وليست لدي أي مقومات دفاعية لأستطيع الإجابة».

بدران: «طبعاً ممكن تتعرض للقصف، ليش إحنا خلصنا مع اليهود!!».

نينو: «ما في ضمانات، كل المشاريع معرضة إنو إذا صارت أي نكسة سياسية مش ممكن ينقصف، يعني مع دخول السلطة للـ ٢٠٠٢، مش انصرف ملايين الدولارات وهي اتدمرت، مطار غزة مش انبنى بضمانات دولية، وانقصف».

تشير إجابات المبحوثين إلى إخراج الفلسطيني من قوة الفعل، وقصرها على طرف المستعمِر؛ وأن قواعد اللعبة من الهجوم أو الانتهاك هي فقط بيد المستعمِر الإسرائيلي الذي ينتهك سلام الفلسطيني في واقعه، واعتبار

٢٤٠ إياد الأعرج، مدير المنطقة الأمنية في مقاطعة طولكرم.

المستعمَرين أنفسهم يعيشون في دولة لها حدود واضحة، وتمتلك مقومات دولة بخطاب رسمي حقيقي، وقد يحدث هجوم على حدودها من قبل دولة أخرى. يقوم الطرح بناءً على معطيات البنية الفلسطينية في الواقع الاستعماري التي يستشعر بها الفلسطينيون بأن حتى مؤسسات دولتهم التي تلبس باطوناً مسلحاً هي فعلاً ليست إلا أحد القرارات التمويلية التي لا يستطيع الفلسطيني التحكم بها، أو بميزانية ضخمة صرفت على هذه الجدران الجديدة، التي وإن بقي منها أثر فقد أفاد المبحوثون أن بقاءها هو لعدم وجود ميزانية كافية، وأن العمل قائم على إزالتها، كما يحدث في مقاطعة طولكرم التي بقي فيها جزء من البناء القديم للمقاطعة، ولكن قرار الهدم به قائم حتى صرف الميزانية.

جزء من المبنى القديم في مقاطعة طولكرم ويجاوره إحدى المباني الجديدة[٢٤١]

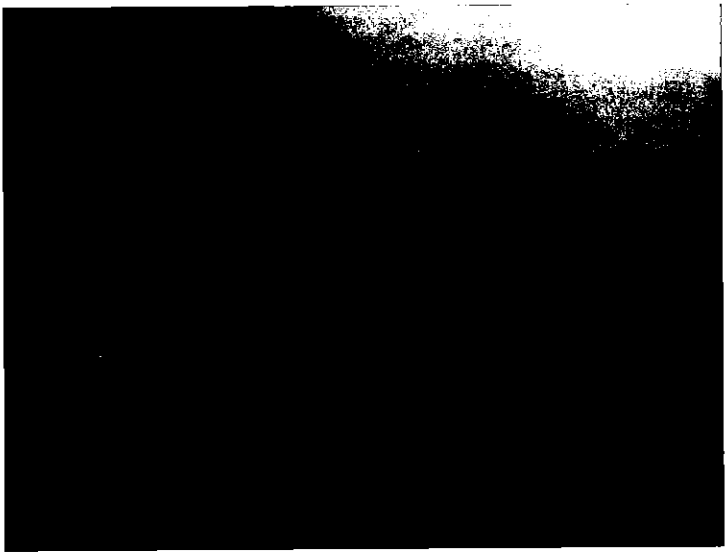

٢٤١ مقاطعة طولكرم، ٢٠١٣، تصوير الباحثة.

المبنى القديم في مقاطعة طولكرم بين الهدم وإعادة الإعمار، ٢٠١٣.

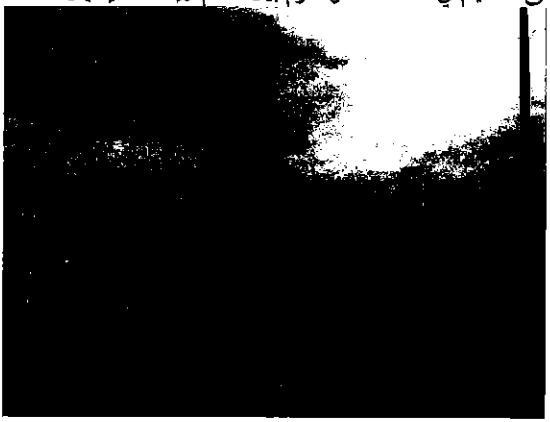

تقوم المساعدات الخارجية على الدأب المتواصل في تعزيز دور «الدولة» فلسطينياً، بصورة مهنية بإفراغها من محتواها السياسي في المشروع الوطني داخل الوقع الاستعماري، فبعد اتفاقية أوسلو، برزت الدعوات إلى إقامة دولة فلسطينية بحدود مؤقتة في الضفة الغربية وقطاع غزة مقابل توفير الأمن والاستقرار لإسرائيل. ومع أن المساعدات التي تدفقت لتحقيق ذلك كانت خاضعة تماماً للأولويات الأمريكية والإسرائيلية. وبالتالي، أجهضت إمكانية نجاح هذا المشروع، وبخاصة أنها لم تسعَ إلى إنهاء الاحتلال وإجبار إسرائيل على الانصياع للقانون الدولي من أجل الوصول إلى إقامة دولة فلسطينية، ومن خلال التركيز على بناء الدولة، على الرغم من استمرار الاستعمار، تم اختزال المشروع الوطني الفلسطيني بمفهوم «بناء الدولة».[٢٤٢] يطرح إدوارد سعيد أن الهوية القومية التي تناضل للتحرر من السيطرة الإمبريالية، وجدت نفسها مودعة ومنغرسة في الدولة «القومية المستقلة حديثاً»، ونتج عن ذلك جيوش، ورايات، ومجالس تشريعية وأحزاب سياسية، وقد تم ذلك عادة بطرق منحت النخب القومية المكانة التي يحتلها البريطانيون والفرنسيون من قبل. بالتالي، قامت البلدان ما بعد الاستعمارية بتحويل القومية إلى عقائدية جديدة للإقليم أو الدولة، وقد أخضعت نفسها في عملية كونية من العقلنة مبنية على معايير خارجية، ومنطق نظام عالمي رأسمالي تتحكم به حفنة من البلدان الصناعية الرئيسة.[٢٤٣]

---

٢٤٢ طبر، ليندا وآخرون، مرجع سابق، ص ٢٠٨-٢٠٨.

٢٤٣ سعيد إدوارد، مصدر سابق، ٣٢٠-٣٢١

إن الوعي الناتج بعد أوسلو كان إلى حد ما غير قادر على تخيل مكان الانتصار، وأضحى وعياً مهزوماً ملتزماً الشرط الاستعماري دون رؤية استراتيجية، وأضحى الوعي السياسي بعد أوسلو، أسيراً لمفاهيم علاقات القوة المرتبطة بالعقلانية السياسية، التي ترى في محاكاة أنماط القوة الاستعمارية وسيلة للمقاومة.[٢٤٤] نجحت المساعدات الخارجية بإلهاء فلسطينيي الخطاب الرسمي عن واقع بقاء الاستعمار، وخلقت لهم تخيلاً عن دور «دولتهم» على حدودها المؤقتة، وإن كان من المخيف أن تبقى مؤقتة في مرحلة الانجرار نحو لعبة مهنية المؤسسة، والحفاظ على وهمية القبول الدولي، دون إجراء تحرك سياسي نحو خطوة المحاسبة والعقاب، بل مواراة الموت تحت اسم عقلانية المؤسسة التي يتحكم فيها مقدار الميزانيات التي لم ترسم حدود أجندتها في الوعي الفلسطيني لخلق ذاتهم الحرة، بل مساهمتها في بقاء الاستعمار حتى اللحظة.

٣, ٤ العمارة المقاومة تُضَم لخطاب اللاعنف «مخيم جنين .. نموذجاً»

تقوم فكرة هذا الجزء، وإن عد قصيراً تبعاً لتاريخ تشكل المخيم والمفاهيم المصاحبة لتشكله، على محاولة لتتبع التغيرات التي ظهرت على عمارة مخيم جنين من حيث إعادة العمار الجديدة لها بعد اجتياح مخيم جنين سنة ٢٠٠٢،[٢٤٥] والتدمير الحضري الذي حل على المخيم قبيل ظاهرة إعادة الإعمار. والإشارة إلى ما كان للعمارة السابقة من دور كبير في معركة المقاومة التي تصدت للحرب الصهيونية على المخيم في بدايات الانتفاضة الثانية. ومما سبق، يقوم هذا الجزء، بالتحديد، على تفكيك المشهد الجديد للعمارة التي انفصلت في لحظة إعادة الإعمار عن العملية السياسية العسكرية للمخيمات، في إقصاء للخطاب المخيمي الحاضن للمقاومة، من خلال

---

٢٤٤ طبر، لبنى، عزة، علاء، المقاومة الشعبية الفلسطينية تحت الاحتلال، قراءة نقدية وتحليلية، مرجع سابق، ص ٤٤.

٢٤٥ جاءت عملية اقتحام جنين في العام ٢٠٠٢ امتداداً لعملية «السور الواقي» التي شنها المستعمِر الإسرائيلي على مدن الضفة الغربية بحجة تطهيرها من «إرهابيي العمليات الاستشهادية»، وكان اقتحام مخيم جنين تبعاً لتمركز وتوحد الفصائل العسكرية الفلسطينية داخل المخيم. راجع، حويل جمال. معركة مخيم جنين، التشكيل والأسطورة نيسان ٢٠٠٢، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بيرزيت، ٢٠١٢.

خطاب جديد يتبنى سياسة استعمارية من جهة، وخطاب فلسطيني تابع و«لاعنيف» من جهة أخرى، وذلك في ترسيخ مفهوم جديد للمخيم بعمارة جديدة لمن يسكنه، ولمن يستعمره بنسب متفاوتة، في معركة الوعي وتمثيل الذات الفلسطينية ودورها في المقاومة.

إن فلسفة المخيم تختلف بطبيعة تشكله عن النماذج المعمارية المدرجة في هذا البحث، وذلك لأن المخيم كمكان تشكل نتيجة لحالة حضرية «لا طبيعية»؛ من خلال خلق مفهوم مكان اللجوء عند سكان المخيم، وبالتالي فهو يشكل فكرة المكان المؤقت - غير المنتظم لساكنيه، وهو من ناحية أخرى مكان يتم ترسيخه لخلق مقاومة تهتف للعودة. ومما سبق، كان احتضان مخيم جنين للمقاومة العسكرية يشكل أحد مخاوف السيطرة العسكرية «الإسرائيلية» عليه، بفعل مشاركة أهل المخيم بالدعم المكاني والمعنوي في تقديمهم المخيم لخدمة المقاومين، وكان الهدف أو العنوان الواضح لاجتياح المخيم، هو جعل اللجوء لساكنيه مكرراً، إن لم يكن القضاء عليهم هو لعدم الإبقاء على أماكن مقاومة كمخيم جنين.

تعرض مخيم جنين فترة اجتياح ٢٠٠٢ إلى تدمير ضخم شمل المنازل والشوارع والمستشفيات وحتى تمديدات المياه، وتمديدات الكهرباء، والهواتف، وكل ذلك تبعاً لخرائط إسرائيلية مسبقة وضعت إشارات الدمار المسبق عليها، وكان أحد الأهداف لذلك الوصول لقلب مخيم جنين مكشوفاً للقوات العسكرية «الإسرائيلية»، لمنع أي رد مقاوم من قبل المقاومين الفلسطينيين داخل المخيم، واستراتيجية الهدم هذه لم تستخدم كمرة أولى عند اجتياح المخيم، بل كانت إحدى الاستراتيجيات الاستعمارية التي تبناها شارون من خلال وعيه لقوة تشكيل الروابط الاجتماعية عند الفلسطينيين بين المكان/ المنزل/ الأرض/ وحتى الأفراد أنفسهم. كما تبعت عمليات الهدم منطقاً استعمارياً آخرَ يتخوف من التوسع الحضري الذي يحدث على المناطق الفلسطينية؛ سواء المدن أو المخيمات، وكذلك الزيادة الديموغرافية، لتصل ممارسات التدمير التي حدثت ليس إلى ممارسات التدمير الحضري فحسب، وإنما أيضاً التطهير العرقي اتجاه الفلسطينيين، التي قدمها الخطاب «الإسرائيلي» العسكري على أنها ورم في جسد «دولة إسرائيل المنتظمة»، ويجب القضاء عليها للحفاظ على نظام الجسد.[٢٤٦]

٢٤٦ Graham, Stephen, Bulldozers and Bombs, the latest Palestinian- Israeli - conflict as asymmetric Urbicide, School of Archticture, Planing and landscape, Newcastle Univesity, UK, 642.680.

صورة مخيم جنين ١٢-٤-٢٠٠٢[٢٤٧]

يتحرى البحث مشهد المكان وتداخله في المعركة من خلال نص أكاديمي مختلف، وهو «معركة مخيم جنين: التشكيل والأسطورة، نيسان ٢٠٠٢»، للباحث جمال حويل، وقد قدم بحثه كرسالة ماجستير لبرنامج الدراسات العربية المعاصرة لجامعة بيرزيت، ٢٠١٢. إن اختلاف هذا النص يأتي باختلاف تقاطع الباحث مع ميدانه البحثي، فهو لم يستعرض يوميات المعركة بأرشفته لشفوية القصص من سكان المخيم ومقاوميه، وإنما، إضافة إلى ذلك، كان جزءاً محركاً وموجوداً في ميادين المعركة بذاتها، فهو يعتبر اختلافه باعتباره «المقاوم/ الباحث»، وما نصه الأكاديمي إلا جزء من استمرار مقاومته في معركة البحث عن حق الحقيقة من بين نسيج جدران مخيم جنين. ما يستخدمه هذا البحث هو إشارات تقاطع العمارة داخل المعركة حسب ما يذكرها جمال حويل، وعملية التحري تركز على فصلين من الدراسة هما «الفصل الثالث: الإعداد للمعركة، الخارطة والميدان»، و«الفصل الرابع: الصورة والأسطورة، يوميات المعركة». وإضافة إلى ما كتبه جمال حويل، يستخدم التحليل مجموعة من المقابلات التي تسترجع

٢٤٧ أخذت الصورة من موقع: http://pal-stu.com/

ذكرى المعركة رجوعاً من سنة ٢٠١٥ إلى سنة ٢٠٠٢، ومعنى المكان الجديد بعد إعادة الإعمار عند بعض أهالي المخيم، وكيف تتشكل الذات المقاومة مع العمارة الجديدة.

في تتبع أحداث المعركة، كان الواضح أن الفلسطينيين المقاومين والمتمركزين في مخيم جنين على وعيٍ ودرايةٍ كافية بأهمية عمارة المكان التي كانت تسمح لهم باندماجها في مخططهم العسكرية ضد المستعمِر الإسرائيلي منذ لحظة التخطيط الأولى، وبذلك يكونون قد خلقوا ثقافة مضادة وموازية لاستغلال المستعمِر العمارة نفسها التي قرر المستعمِر إقصاءها عن البصري، بينما احتواها المقاومون واحتوتهم كدرعٍ واقٍ، الإشارة هنا تكمن في أن العمارة ليست مطروحة على أنها فقط جزء من ممارسة استعمارية تتمثل بالتدمير الحضري الذي بُيِّن في فصول سابقة، وإنما تطرح على أنها فضاء مقاوم بطبيعة حضرية مختلفة، كطبيعة عمار المخيم الضيق ببيوته المتلاصقة؛ لذا فقد شارك العمار في غرفة العمليات المشتركة للمعركة، وتحول المخيم كله لميدان مقاومة، «تم الاتفاق على أن يكون هناك مقران لغرفة العمليات المشتركة، وفي حال دمر أحدهما يعتمد الثاني. وكان المقر الأول بالقرب من بيت أبو كمال الطوباسي، والثاني في بيت بسام المدمج، إلا أنه ومع تقدم أحداث المعركة تم تدمير المقرين، وأصبحت كل البيوت مقرات».[٢٤٨]

«تقبل الأهالي لكل من طلب منهم في تغيير واجهات منازلهم وشبابيكهم وأبواب بيوتهم، وتطبيق أجزاء من الخطة العسكرية عبر فتح ثغرات صغيرة في بعض الجدران لمرور المقاومين أو تنفيذ بعض بنود الخطة العسكرية، أو ما اقتضته المواجهات والمعارك المختلفة من فتح طاقات للقنص أو المراقبة، أو غير ذلك».[٢٤٩]

تزامنت معركة العمار الفلسطيني مع معركة الجسد منذ انطلاقة الانتفاضة الثانية، فالمعركة بوصف وايزمين؛ توسطت الطرفين الجسد والعمار داخل المناطق المأهولة بالسكان والعمار، وأحياناً المتراكمة والفائضة بهما، لتصبح إحدى استراتيجيات وتقنيات الجيش الإسرائيلي تغيير طبوغرافية المكان

٢٤٨ حويل جمال. معركة مخيم جنين، التشكيل والاسطورة «نيسان ٢٠٠٢»، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بيرزيت، ٢٠١٢، ص ٦٢.

٢٤٩ المرجع السابق، ص ٦٤.

الفلسطيني، وبخاصة المخيمات، باختراق الأبنية، والمناورة بين حيطان المنازل، والهدم المستمر بالبلدوزرات كحل جذري في خلق رؤية عسكرية واضحة لاستهداف الفلسطينيين.[٢٥٠] ومن الجانب الفلسطيني، وكما يصف حويل، تداخلت العمارة بالمعركة واستغلالها من قبل المقاومين الفلسطينيين «تم اتخاذ قرار باعتماد خطة مشابهة ومضادة للخطة التي استخدمتها قوات الاحتلال الإسرائيلي في اقتحام مخيم بلاطة «من بيت لبيت»، وقام المقاومون في مخيم جنين بفتح ثغرات في الواجهات والحيطان وفي البيوت، حتى يستطيع المقاومون العمل والسير بمرونة أكبر، فصارت حارات المخيم -التي غدت «محاور»- الضيقة أصلاً- بفعل عدم التخطيط المعماري للمخيم، أشبه بمترو الأنفاق تحت الأرض، ما سهل اختباء المقاومين وحمايتهم نسبياً ومباغتة العدو وضربه».[٢٥١]

كان المستعمِر على دراية، وإن لم يكن على قدرة، بفكرة تحكم المقاومة بعمارة مكانهم، لذا فلم يكتفِ المستعمِر الإسرائيلي باستخدام القناصة بين فتحات الجدران، أو باستخدام الدبابات والقذائف الصاروخية، بل بدأ إحساس الهزيمة اتجاه المكان، وصعوبة الوصول للمقاومين بعد أكثر من أسبوع في حصار المخيم، أن اشتد النقم على المخيم بعد قتل ثلاثة عشر جندياً إسرائيلياً في كمين نصبه لهم المقاومون، في تلك اللحظات بدأ دمار الجرافات يلحق بالمخيم بدون إبداء أي انتباه إلى أن المكان به ناسه، بل اشتدت اللعبة بين عمار المخيم والمستعمِر لحد أصبح به الحل هو تدمير كامل للمخيم تحت لعبة التبريرات الاستعمارية التي ادّعت أن المخيم لم يبقَ به إلا المقاومون. يصف حويل مشهد الدمار الصادم كما يأتي «استمرت المجموعة بالسير، أردنا الخروج من بيت أبو عمر الطوب، ففتحنا الباب ولم نجد أي أثر للبيوت قائمة، وكأنك تفتح باب طائرة، أو تقف على شفا جرف هاوٍ، أو تتفاجأ بالهواء، والهاوية، والموت!»،[٢٥٢] «بدأت الجرافات الإسرائيلية الغازية بهدم كل شيء حولنا حتى تحول المكان إلى حفرة كبيرة نتيجة لهدم كافة بيوت المنطقة المحيطة، فبدونا كأننا في حفرة عميقة، وكانت الدبابات تحيط بالمكان ومروحيات الأباتشي تجوب السماء فوقنا مباشرةً».[٢٥٣]

---

٢٥٠ Weizma , Eya ,hollow land "Israel's architecture of occupation", verso, 2007,185 ,London-210.

٢٥١ حويل جمال، مرجع سابق، ص ٦٦.

٢٥٢ المرجع السابق، ص ١٠٦.

٢٥٣ المرجع السابق، ص ١١٠.

تشير المقابلات مع بعض سكان مخيم جنين إلى اللحظة التي بدأ مخيمهم ينكشف للمستعمر من أجل القضاء على المقاومة العسكرية التي كانت محتمية فيه؛ وكما يصفها أبو محمد حواشين[٢٥٤] وآخرون: «بصراحة معركة جنين تمثل ذكرى صمود، ولكن ما جعل المقاومة تنهزم هو بداية تجريف المخيم، وهدم بيوت بكاملها، حتى وناسها كانوا موجودين فيها، أنا شفت بيتي بنزل ع الأرض قدام عيني، وبعديها طلعنا حاملين رايات بيضاء وكلنا عائلات وأطفال، إحنا ما ضل قدامنا إشي لما بلشوا يجرفوا البيوت».

أبو يزن:[٢٥٥] «كان الهدم بداية في منطقة الحواشين عندما قتل الثلاثة عشر جندياً، كان في هدم في البداية، ولكن في لحظة قتل المجندين أصبح الهدم على جنب وطرف من الحقد على المقاومين الذين تواجدوا في المنطقة، لأنها كانت بتمتاز بالشوارع الضيقة والبيوت جدا متلاصقة، ولم تكن مكشوفة للمستعمِر، كل المنطقة تم تجريفها، وأطراف المخيم كان يتم قصفها بالطائرات».

أبو بسام:[٢٥٦] «لم يقدروا أن يقتحموا المخيم ويوصلوا للمقاومة إلِّي جوا المخيم، فقاموا بتجريفه، وأنا خبروني أقربائي إنو العيلة كلها طلعت من حارتي «حارة الحواشين»، وقالولنا ارفعوا رايات بيضاء واطلعوا، هدموا المخيم لما حسوا إنهم ما أخدوا لا حق ولا باطل وهمو يستنوا يقضوا على المقاومة».

عبد اللطيف شلبي:[٢٥٧] «هدوا المخيم على روسنا عشان ينتقموا من المقاومة ومن أهل المخيم. لما انهدم المخيم بلشوا الإسرائيلية يطهروا، وصار يشد الهدم بعد ما قتلوا الثلاثة عشر جندياً، ومسكوا أبو جندل وقتلوه في الساحة».

انتهت المعركة بعد إسقاط حصن عمارة المخيم والمقاومة العسكرية الفلسطينية، بخاتمة مؤلمة باستشهاد مجموعة كبيرة من المقاومين ومن سكان المخيم. ومن الصور التي أرشفت حدث سقوط كلتا المقاومتين،

---

٢٥٤ أبو محمد حواشين (٥٤ عاماً)، من سكان مخيم جنين، هدم منزله العام ٢٠٠٢.
٢٥٥ أبو يزن (٣٢ عاماً)، من سكان مخيم جنين، هدم منزل والده العام ٢٠٠٢.
٢٥٦ أبو بسام (٧٣ عاماً)، من سكان مخيم جنين، هدم منزله العام ٢٠٠٢.
٢٥٧ عبد اللطيف شلبي (٧٠ عاماً)، من سكان مخيم جنين، هدم منزله ومنزل أخوته العام ٢٠٠٢.

صورة الشهيد «أبو جندل» قائد معركة جنين، فبعد أن تم قتل أبو جندل، رميت جثته على كتلة من الركام الذي سقط بذاته في المعركة.

استشهاد أبو جندل، قائد معركة جنين ٢٠٠٢ [٢٥٨]

وكأثر متواصل لعمليات الهدم التي حصلت للعمار؛ يأتي مشروع إعادة الإعمار مشعلاً جدلاً على كيفية هندسة العمار الجديد، وإحداها كان حول إبقاء المساحات التي هدمها الجيش الإسرائيلي، وبخاصة في مخيم جنين، كجزء من توسيع الطرق والممرات داخل المخيم، التي اقترحت من المهندس القائم على المشروع، وقوبلت باعتراض الأهالي وأعضاء بعض الأحزاب؛ على كون إبقاء هذه المساحات المفتوحة وتوسيع الطرق ما هو إلا تسهيل دخول دبابات الإسرائيليين إلى المخيم في المرات القادمة، ومع تجاهل الاعتراضات حول إعادة الإعمار تحول المخيم لشكل هندسي عماري جديد منتظم، خلق عند بعض اللاجئين شعوراً مفروضاً بوضع تجذر وهمي مع المنزل الجديد،[٢٥٩] ليضعهم تبعاً لما يطرح فياض في متاهة العمارة كمنتج اجتماعي من حيث أسئلتها «أين نحن؟

---

٢٥٨ أخذت الصورة من موقع: https://www.paldf.net

٢٥٩ Weizma , Eya ,hollow land "Israel's architecture of occupation", verso, 2007,185-London, 210.

ومـن نحـن؟»، وتـدوس بذلـك عـمارة الزمـن الكولونيـالي عـلى المـكان، ووعينـا بالمـكان، وعـن كل مـا يـدل فيهـا إلى المـكان وناسـه.[٢٦٠]

مخيـم جنـين بعـد إعـادة إعـماره، وتظهـر في الصـورة مـدى تشـابه البيـوت التـي تـم تصميمها، ووسـع الشـوارع الجديـدة ٢٠١٥ [٢٦١]

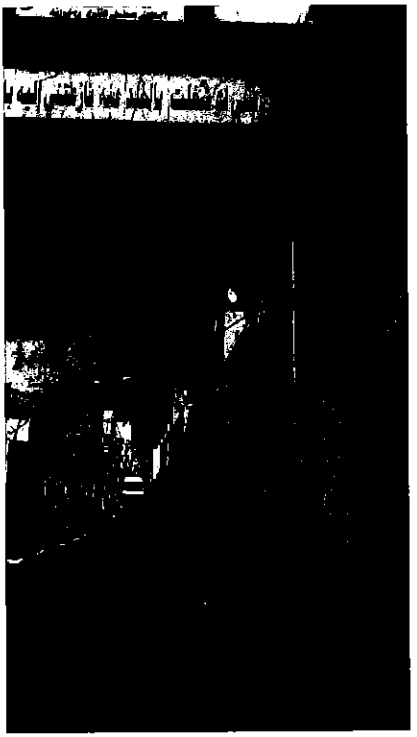

يعمـد المسـتعمِر إلى إجـراء التخطيـط الـلازم للحيـز المـكاني المسـتَلب؛ وذلـك مـن أجـل يصبـح المـكان أكثـر ملاءمـةً لعمليـة اسـتيطانه وسـكنه، ففـي الجزائـر -عـلى سـبيل المثـال- عمـل المسـتعمِر الفرنسي عـلى نـشر أعـداد مـن القـرى عـلى شـكل مجموعـات خماسـية الشـكل فـوق مواقـع دفاعيـة حصينـة بهـدف إيقـاف

٢٦٠ فياض، رهيف. العمارة ووعي المكان، بيروت: دار الفارابي، ٢٠١٤، ص ١٠٧.
٢٦١ صورة لمخيم جنين أخذت من قبل الباحثة ٢٠١٥.

زحف العناصر العربية، وتسربها باتجاه الجزائر العاصمة.[٢٦٢] وكهذه الخطط تم، أيضاً، تقسيم الحيز المكاني الفلسطيني منذ لحظة استعمار المحيط نحو الوسط في بدايات الاستعمار، وحتى رسم مخططات الشوارع وفصل المدن بالحواجز. إن محاولة تصنيع المكان الفلسطيني التي يجريها الاستعمار مدعوماً مادياً ومعنوياً من القوى الخارجية تفرض اغترابية الفلسطيني عن مكانه.[٢٦٣] ويأتي مخطط توسيع شوارع مخيم جنين ونقل أمكنة المنازل نحو الأطراف، كسياسة جديدة تحد من عودة خطاب المقاومة العسكرية الفلسطينية، بل وتقليص الوعي التحرري الذي احتواه المكان كمخيم جنين.

يصف المبحوثون مشهد المخيم بكلماتهم بعد إعادة إعماره في تناقض بين الماضي وسياسة الواقع؛ يقول أبو يزن «البيوت بعد إعادة الإعمار جيدة، والشوارع أصبحت أوسع مما كانت عليه، وهذا أفضل للناس، ولكن هناك ناس ظلمت، في ناس كانت بيوتهم كبيرة وقلت مساحتها من أجل توسيع الشوارع، كانت السلطة مفكرة تعمل سور حول البيوت التي هدمت، ويخرجوا السكان من المخيم، كل هذا من أجل إلغاء مخيم جنين، وفي قسم كبير بنوا بيوت الناس على أطراف المخيم من أجل أن يوسعوا ع الناس وخلوا الإسرائيلية ياخدوا راحتهم وينبسطوا لما يدخلوا المخيم، وكل خمس بيوت بلفها شارع عشان لما مقاوم يتخبى ما يعرف تخبى بأي زقة».

ونفس المشهد يعيده أبو بسام بعد إعادة الإعمار، «أنا انظلمت، لأنو بيتي إلي كان أوسع وأكبر ومفتوح، ولما أخدتو من لجنة الإعمار كان أصغر. اليهود إلي قرروا هذا التصميم عشان يقتلوا المقاومة وأعطوه للفلسطينية عشان يعملوا المخيم بهالشكل».

تطرح شهادات المبحوثين مجموعة من التصورات عن المكان الجديد وكيف تم التخطيط له، ولكن لم تخفَ بقايا الوعي بماضي معارك المكان التي شهدها المخيم، ففي الوقت ذاته الذي يشير إليه المبحوثون عن وعيهم بالسياسة الاستعمارية التي تريد إقصاء المكان بكامله، سيطرت سلطة جديدة لتمويل العمار على الوعي نحو «لاعنف» المقاومة و«لاعنف» العمار.

---

٢٦٢ حمدان، آيات، مرجع سابق، ص ٦٣.

٢٦٣ حمدان آيات، مرجع سابق، ص ٦٣-٦٤.

مقبرة الشهداء في مخيم جنين، وخلفها جزء من مخيم جنين الجديد بعد إعادة الإعمار ٢٠١٥ [٢٦٤]

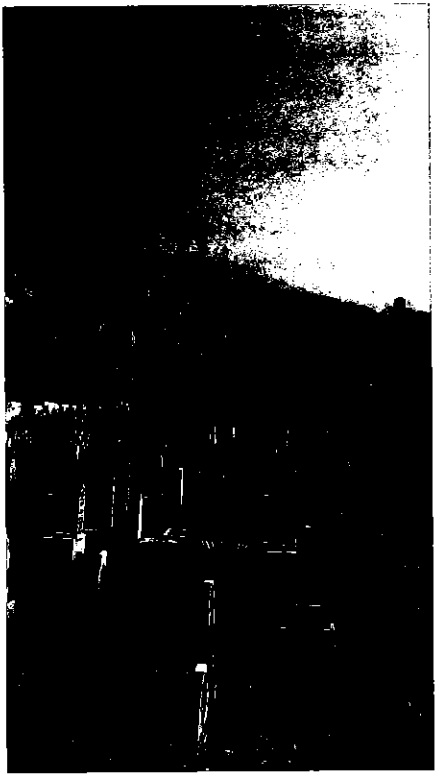

إن المقاومة العسكرية التي حصلت في مخيم جنين، تمثل أهمية تجربة المقاومة التي أعادت الاعتبار لمفهوم الإرادة، أي إلى قدرة الشعب المستعمَر على المقاومة، وهو يمثل نقيض الوعي المهزوم القائم على غياب الإدارة السياسية. فكان نتيجةً لمحاولات خلق وعي بديل عما جاءت به أوسلو، ولكن حصلت مجموعة من التحولات السياسية والاقتصادية والثقافية؛ سواء من قبل المستعمِر أو السلطة الفلسطينية أو الدول المانحة أو المؤسسات الدولية، التي بدأت بإعمار مخيم جنين في

٢٦٤ أخذت الصورة من قبل الباحثة، ٢٠١٥.

محاولة إعادة تدجين جنين ومخيمها، وعودة التنسيق الأمني، بحيث تتم عملية قولبة جديدة للفلسطيني.[٢٦٥]

يشير أهل المخيم إلى أن هناك تواطؤاً نحو عملية قولبة المخيم، ومنع إعادة أي إنتاج عسكري داخل المخيم، سواء من قبل المستعمِر أو من قبل السلطة الفلسطينية، أو حتى بسياسة المعونات التي أصبحت تسيّر الوضع فلسطينياً، ويتضح من إجابات المبحوثين عن سؤال هل هناك إمكانية لحدوث معركة مقاومة جديدة كما حدث في ٢٠٠٢؟

أبو بسام: «ما في قانون في المخيم، سيارات مسروقة، و«فيسبات» ومخدرات، الشرطة بتتدخل لما بدها ولما ما بدها، بتحكي فخار يكسر بعضه، بدهم الفوضى عشان يضلوا مسيطرين على الحكم، فكيف رح تصير مقاومة جديدة».

أبو يزن: «ما بظن يصير في اجتياح مع مرحلة السلام، ولكن المخيم ما بدخل في هاي العلاقة بين السلطة وإسرائيل، ومخيم جنين في عليه عين سواء من السلطة أو من إسرائيل، وحنا بنشكل خطر، بالنسبة لعملية السلام، والِّي بصير هلأ هو كمية المخدرات إلِّي عم تدخل المخيم، وزيادة السرقة وكلها ملهيات لحتى تبتعد الناس عن المقاومة».

أبو محمد حواشين: «لا ما بتوقع أن يتم قصف المخيم مرة أخرى، ولا يوجد تجمع للفصائل السياسية كأيام أول، وبصراحة أهل المخيم انقرصوا، يعني لا سمح الله مثال غزة اليوم بخلينا نفكر إن كنا محظوظين بإعادة إعمار المخيم، بينما في غزة بيوتهم ما زالت مدمرة».

يرى القارئ أن هناك نقماً في حديث المبحوثين عن السلطة الفلسطينية، وذلك في محاولة سكان المخيم القطع بين النخب التي تدعي تملك السياسة الوطنية، والتي برأيهم خذلتهم فترة الاجتياح، وحتى اليوم الحاضر مع تفاقم تهميش المخيم، وعدم وضع سياسات وطنية تضم اللجوء، والمقاومة وأبناء المقاومة في تقرير مجتمع بأبنائه لمحور الوضع،[٢٦٦]

---

٢٦٥ طبر ليندا، عزة علاء، مرجع سابق، ص ٥٣-٥٤.

٢٦٦ صايغ، روزماري. تجسيدات الهوية لدى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، رؤية جديدة للمحلي والوطني، بيت لحم: بديل/ المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنين واللاجئين، ٢٠٠٩، ص٢٠.

بل ما ناله سكان هذا المجتمع هو مجموعة من الإشارات التي تنزعهم عن مكانهم وذاتهم ليس فقط من قبل المستعمِر، بل من قبل خطاب السلام «اللاعنيف» المرتكز على عدم إنبات جذر جديد بين من احتضنوا القرار العسكري في مواجهة المستعمرين، طارحين مثال غزة التي استمرت في نهج المقاومة العسكرية، وهي تدمر يومياً في معركة الاستعمار دون مستجيب.

ولكن ومع اشتداد معركة مختلفة من نزع المكان بطبيعته المقاومة، فإن المخيم يشكل تيار فلسطنة مختلفاً، وذاتاً متضامنة مختلفة بين أركان مخيم جنين أو المخيمات الفلسطينية الأخرى، ويحاول إنتاج التنظيم الذاتي لمواجهة أي عامل يحاول الإطاحة بهم. يقول أبو بسام عن فكرة الذكرى بالمعركة «صحيح لم يبقَ أي أثر من الهدم لا في البيوت ولا في الشوارع، ولكن، إلّي في بطنو عظام بعرفش ينام، وإحنا مستحيل ننسى شو صار فينا، من ١٩٤٨ وحتى اليوم».

مخيم جنين من علو حارة الجبريات ٢٠١٥ [٢٦٧]

٢٦٧ أخذت الصورة من قبل الباحثة، ٢٠١٥.

فيما يشبه الخاتمة

بدأت فكرة البحث من أجل محاولة إيجاد شواهد تدلل على آثار خلفتها الحرب الاستعمارية على معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني في فترة الانتفاضة الثانية. وكان مفهوم «مواراة الموت» الذي يتحرى عنه البحث متشكل من سياسة/ خطاب يُبحث عنها داخل مشهدية معمارية تعكسه، وتعد هذه القراءة كمحاولة أولى مطولة للبحث في هذا الموضوع، الذي لا يمكن القول إنه يخلو من النقص في مواضيع معينة داخله، ولكن يبقى الأمل في أنه يضيء على مجموعة من الإشارات القابلة للبحث والتوسع المعرفي في محاولات أخرى مطولة وتفصيلية وشاملة.

تشكل البحث من ثلاثة فصول حاولت تقصي المفهوم على تقاطع تجربة العمار في كل منها. تمثل الفصل الأول في تحليل المقاطعات في الضفة الغربية، وأخذت أربع من المقاطعات كنموذج على «عمارة النموذج الأمني»، وهي «مقاطعة طولكرم، وجنين، ورام الله، ونابلس». نهضت المقاطعات بعد إعادة الإعمار تبعاً لتخصص عقلاني يواري الموت في إعلاء المفاهيم الدولاتية، وإن كانت هذه المفاهيم قد تبعت لسلطة وهمية في ظل الواقع الاستعماري، الذي يعيد المستعمَر إنتاج عمارته، ويقوم بفرض الرقابة والضبط على الفلسطينيين بشكل عمارة الرقابة والأسوار العالية، وهي بذاتها تقصي فعل الفلسطينيين وإرادتهم عن رؤية الرقابة والضبط المستعمري في الوعي، بفعل اختفائه عن المشهد البصري، إلا في لحظة التنقل بين المدن ورؤية الحواجز وأبراج المراقبة. بينما أصبحت عمارة «الرقابة الفلسطينية» تتوسط المدن الفلسطينية، وترتفع أبنيتها المنفصلة والمتخصصة بوظائف أمنية مختلفة. إن وظائف المؤسسة وفرض «عقلانية الخطاب الدولاتي» جاءت مع الارتباط بسلطة السوق النيوليبرالي، وخطة الارتباط الجديدة مع المستعمِر بصورة شروط التمويل، التي أنتجت خطاباً سلمياً يبتعد عن المقاومة وأثرها. فتتسلح المقاطعات جميعها تحت شروط التمويل بكتلة من «الباطون المسلح»، مدعيةً به مظهراً أمنياً عالياً ليحمي العمار من مجموعة القذائف العسكرية التي قد تصيب أجهزة الأمن وتدمر «مؤسسات الدولة». يرسخ التمويل هذا التخيل الفلسطيني الجديد لـ«الدولة» وبنائها، ويعزز من الهوة بين السياسي المقاوم، والسياسي العقلاني، لتتم إعادة إنتاج حلقة ربط جديدة من الثقافة الأوسلوية التي

أوجد «الباطون المسلح» لحمايتها، وفي المقابل لمواراة معركة تحول الوعي والانفصال عن أوسلو في بدايات ما يسمى بالانتفاضة الثانية.

اختص الفصل الثاني بدراسة البلدات القديمة، وأخذت بلدة رام الله القديمة «رام الله التحتا»، وبلدة نابلس القديمة كنموذج حضري ذي عمارة تاريخية -تراثية- تعرض لممارسات التدمير الحضري من قبل المستعمِر الإسرائيلي من أجل إنهاء المكان وهويته في كومةٍ من التبريرات الاستعمارية لإسقاط المقاومة فيها. وتكمن ميزة التحول من ماضي المعركة إلى ذكرى الماضي في البلدات القديمة؛ هو أن الرمز للماضي تداخل مع الواقع وتآلف معه منتجاً سلطة جديدة وبنية ذاكراتية وارت الموت عن الوعي تحت أشكال «أماكن الذاكرة»، التي انتشرت في كل زقاق البلدة القديمة في نابلس بالتحديد. في هذه الحالة، أضحت أماكن الذاكرة تحصر حدث المعركة بشكل النُّصُب التذكارية أو الأضرحة أو المتاحف، تبعاً لإنتاج المؤسسة الرسمية، التي ترسم حيزاً محصوراً للذاكرة داخل الواقع، من خلال قصر الحدث المقاوم على حجر النُّصُب التذكارية بكتابات تقدس الشهادة والمقاومة والشهيد والتأريخ، ويألفها المشهد البصري كجزء من المكان، وليس كدخيلٍ لتحريك الوعي نحو أهمية مقاومة الواقع الاستعماري الذي كان سبباً في الأحداث التي أرختها هذه الأماكن.

أما الفصل الثالث، فكان يحلل مفهوم مواراة الموت من حيث علاقته بخطاب اللاعنف الذي رسمت به العمارة الجديدة بعد إعادة الإعمار، وبالتحديد للمقاطعات، ومخيم جنين. نتج في مخيم جنين نوع من العمارة «غير العنيفة»؛ وذلك من حيث أن العمارة السابقة، التي كان يمتاز بها مخيم جنين من تلاصق للبيوت، وضيق الشوارع، وعدم انكشاف المكان، ساعدت المجموعات العسكرية الفلسطينية التي كانت تقاوم داخل المخيم. فكانت خطتهم العسكرية بناءً على خطة مضادة تستخدم العمارة كأداة عسكرية، كما فعل المستعمِر بنوع من التشابه والاختلاف. تشمل مناورة المستعمر وتحديهم له بعمارة المخيم، وتطويع المكان -المخيم- ببيوته وشوارعه وأزقته ليصبح كميناً ممتداً يسقط جنود المستعمِر خلال اقتحام جنين العام ٢٠٠٢. بينما كانت القوات الاستعمارية التي تشن حرباً على المخيم على درايةٍ بأن عمارة المخيم هي العقبة؛ ومن هنا كانت بداية النهاية للعمارة المقاومة في جنين؛ فقد بدأت الجرافات الاستعمارية بإطاحة

منازل المخيم وشوارعه وتفريغ المشهد البصري للمخيم من معماريته. ومع حلول اليوم الأخير للمعركة، فقد المخيم أحد عناصره المقاومة التي جعلت من يسكنه ومن يقاوم به مستسلماً في لحظة تفريغ المكان من عماره. أما إعادة الإعمار التي مُد بها المخيم، والتي سحبته نحو إفراغ وعمارةٍ من نوع آخر، فكانت إفراغاً لتجمع الوعي السياسي العسكري الفلسطيني، وإفراغاً لأدواته المساعدة كمعمارية المخيم. ومع التحول السياسي والاقتصادي والاجتماعي الذي حصل بعد إعادة الإعمار، يلاحظ أن البيوت «الصفراء» الجديدة أدخلت سكان المخيم في متاهة «ماذا يشكل المخيم فلسطينياً؟»؛ وبدت الخطابات السياسية الرسمية تعلن حرباً أخرى في إقصاء المخيم وتدجين سكانه عن الفعل السياسي. ولكن، ومع كل ذلك، يتضح أنه وبعد ثلاث عشرة سنة من المعركة التي مُني بها المخيم بهزائم الأرواح والعمار والإفراغ السياسي العسكري، فإنه قد خلق اجتماعياً نَفساً جديداً متضامناً وواعياً ورافضاً للانزياح عن مكانه المؤقت، أو الانزياح عن دلالات تواجد وكينونة المخيم في الأصل. على الرغم من كل العوامل التي تحاول التأثير على بنيته، يجد المخيم ويصرح بالصمود وذكراه حتى لو تمت مواراة الموت عن معماريته، وأقصيت عن المشهد البصري الذي يتلقاه فلسطينيوه.

بالتالي فقد نتج عن البحث، وتبعاً للفرضيات والتساؤلات البحثية التي بحثت في الواقع وحاولت استنطاقه، أن هناك:

ثقافة جديدة تشكلت في المعمارية الفلسطينية تواري الموت عنها في الذاكرة الفلسطينية، وتعيد إنتاج الهيمنة الاستعمارية على الذات المستعمَرة. وتثبت بذلك الفرضية الأولى.

تمثل إعادة إعمار معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني جزءاً من عدم التسجيل التاريخي لقصة الحرب مع المستعمر الإسرائيلي في الوعي الفلسطيني، وتثبت بذلك الفرضية الثانية.

تتبع عمليات إعادة إعمار العمار المهدم في الانتفاضة استمراراً لممارسات المؤسسة الرسمية وخطابها الدولاتي بعد أوسلو، التي أخفت الممارسات الاستعمارية في الوعي واللاوعي الفلسطيني، وتثبت بذلك الفرضية الثالثة.

تنطوي عملية إعادة الإعمار في تمويلاتها على دعم مالي مصحوب بأجندة الممولين في إعادة إنتاج الهيمنة الاستعمارية، وتثبت بذلك الفرضية الرابعة.

تختفي النصب التذكارية والرموز والصور التي تؤرخ حرب المعمار الفلسطيني مع الاستعمار في الهندسة المعمارية الجديدة، وتبقى مقتصرة على شخوص الأفراد ذات الطابع الحزبي، أو جداريات ورموز سلمية. وتنفي بذلك الفرضية الخامسة، لأن المؤسسة الرسمية رشمت بعض أمكنة الحدث بالنُّصُب التذكارية، ولكن تحت مفهوم «مكان الذاكرة».

يطغى الخطاب اللاعنفي السلمي على معمارية الفضاء الاجتماعي الفلسطيني كجزء من سلطة خطاب اللاعنف السياسي الذي تعيد إنتاجه مؤسسات المجتمع المدني في فلسطين في طمس العمار المهدم تحت رمادية الإسمنت الجديد الموارى للموت، وتثبت بذلك الفرضية السادسة.

أما سؤال اليوم للفلسطيني الفاعل؛ ما هي آليات خلق سلطة مضادة للخطاب الاستعماري والخطاب الاقتصادي التابع للمنح المشروطة دولياً في رسم معمارية اجتماعية فلسطينية تعيد إحياء قوة الفعل المقاوم الفلسطيني، وترسم سياسات وطنية تنبع من الإجماع الفلسطيني الكامل بعيداً عن هيمنة الخطابات الاستعمارية باختلافها؟

الملاحق

ملحق رقم (١)

صور التقطتها الباحثة أثناء معاينات النماذج المعمارية

مقاطعة طولكرم

مقاطعة نابلس

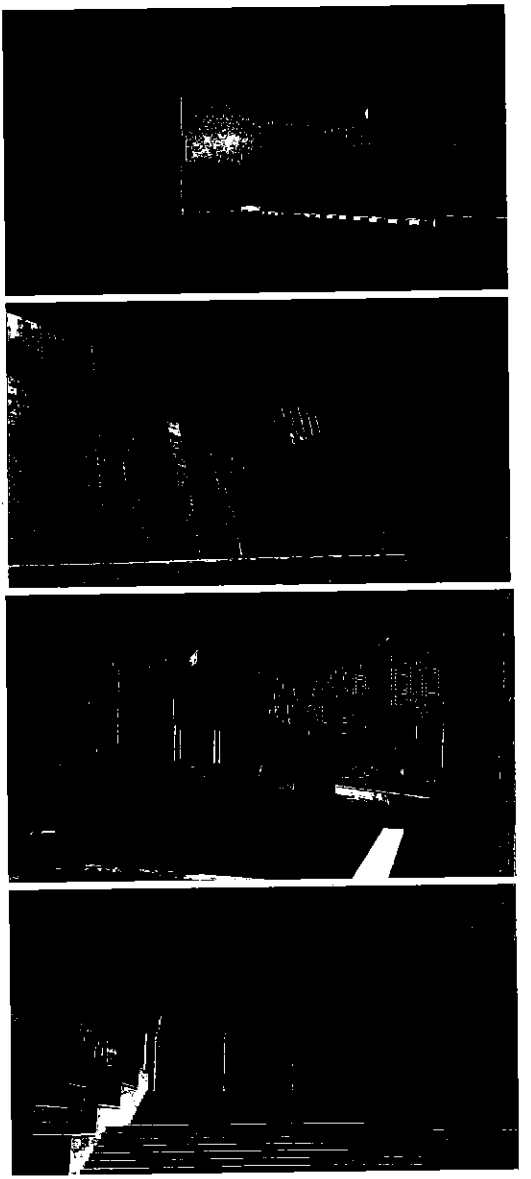

صور من مقاطعة جنين

صور من البلدة القديمة نابلس

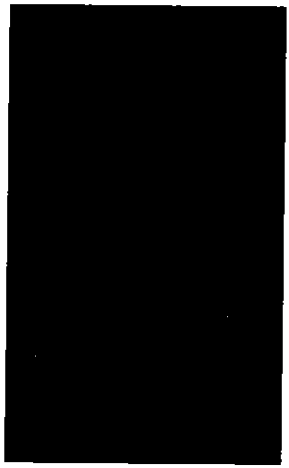

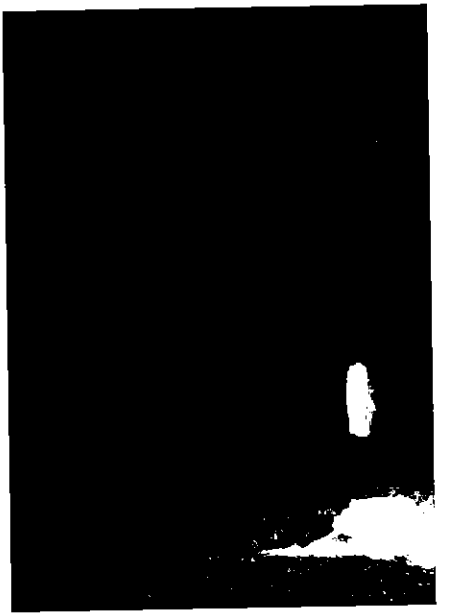

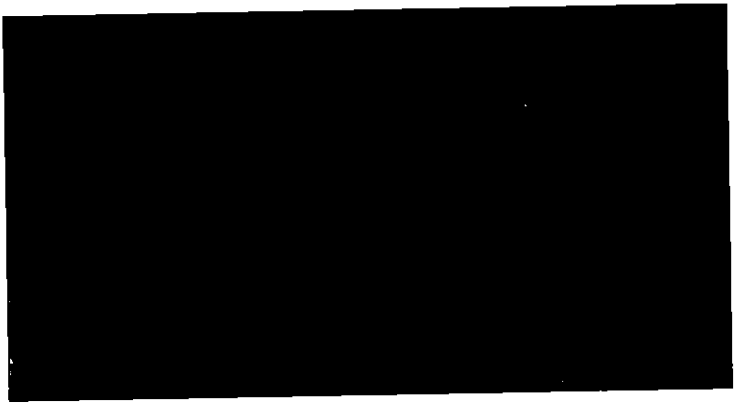

صور من مخيم جنين

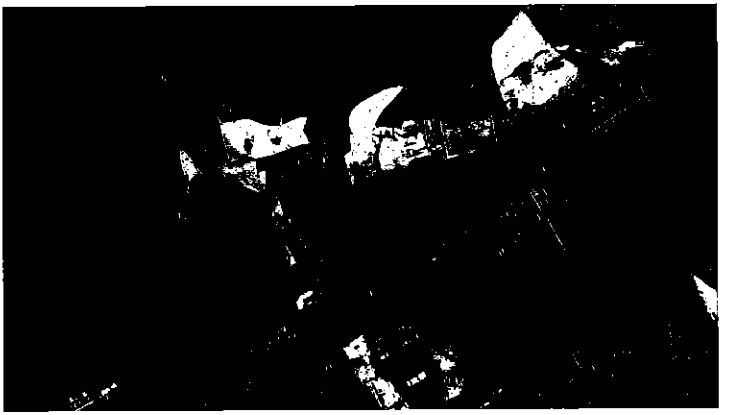

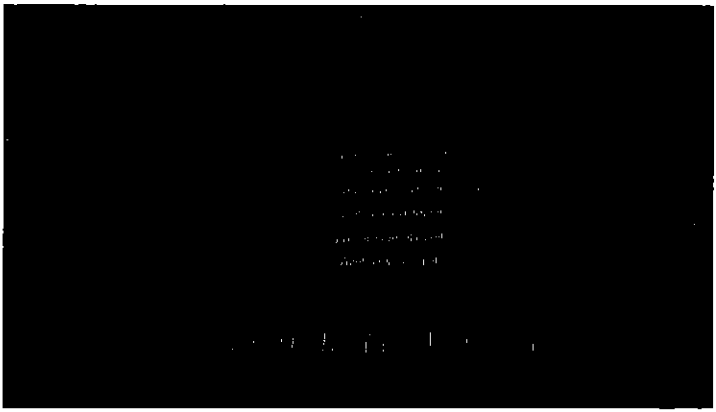

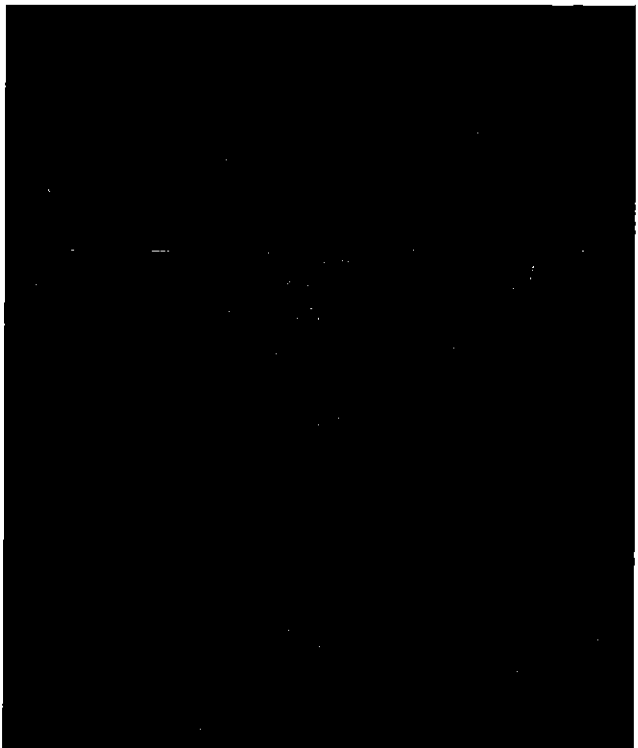

ملحق رقم (٢)

أسماء المبحوثين التابعين للمؤسسات الرسمية وغير الرسمية:

ماجد عواد، مهندس معماري يعمل في رام الله.

هشام شكوكاني، دكتور في الهندسة المعمارية في مؤسسة بيج دار.

الرائد ياسر صوالحة، يعمل في أمن المقاطعات في مناطق شمال الضفة الغربية (جنين- نابلس- طولكرم)، تم إجراء المقابلة في شهر أيلول ٢٠١٤.

يزيد الرفاعي، يحمل شهادة الدكتوراه في الهندسة المعمارية، ويعمل أستاذاً في دائرة الهندسة المعمارية في جامعة بيرزيت- فلسطين، أجريت المقابلة العام ٢٠١٥.

غسان نينو، مدير مكتب نينو للاستشارات الهندسية، وهو المكتب الذي قام بتصميم المقاطعات في الضفة الغربية ما عدا مقاطعة رام الله.

خلدون بشارة، مهندس معماري فلسطيني ويعمل مديراً لرواق -مركز المعمار الشعبي المختص بترميم العمار وإعادة إحيائه.

المهندس موسى حديد، رئيس بلدية رام الله، في شهر نيسان ٢٠١٥.

رئيس بلدية نابلس المحامي غسان الشكعة، في شهر نيسان ٢٠١٥.

أحمد أبو لبن، مدير بلدية رام الله.

إياد الأعرج، مدير المنطقة الأمنية في مقاطعة طولكرم.

مديرية أشغال طولكرم.

أما باقي المقابلات، فكانت أغلب الأسماء وهمية، لأن المبحوثين رفضوا أن يقدموا أسماءهم الحقيقية، فحفاظاً على المصداقية والأمانة الأكاديمية، وضعت أسماء وهمية لأغلب مقابلات متلقي العمارة.

ملحق رقم (٣)

من المقابلات التي أجريت للرسالة

مقابلة (١):

خلدون بشارة مدير رواق - مركز المعمار الشعبي، مهندس معماري ومرمم وعالم إنسان

في سنة ٩٤ بلشنا بتسجيل كل المباني التاريخية في فلسطين، الهدف كان، بعد تسجيل الموروث التاريخي، هو حمايته وتطويره، لأن هناك علاقة جدلية بين الممتلكات الثقافية والهوية الوطنية بشكل عام، والوطن والوطنية موجودة في حيزات، وهناك دلائل عليهم كالعمار، مثل بيوت الفلاحين وبيوت المدن، فكل بلد -حتى السلطة- تحاول أن تظهر أماكن الذاكرة التي تعكس توحد أو تجانس موحد لهذا الشعب، جماعة بشتركوا بذاكرة جمعية ليست عبثية ومتروكة، وإنما موجودة في كل شي؛ في الأكل، أو اللباس، أو طريقة البناء والمعمارية، بالتالي البيوت القديمة بالنسبة لرواق هي لأنها حاضنة للذاكرة الجمعية.

هل تعتقد أن المستعمر الإسرائيلي يمارس التدمير الحضري على البلدات القديمة في فلسطين؟

إسرائيل لما احتلت فلسطين دمرت المئات من القرى، على استمرار سنين الاستعمار، وهذا ليس ادّعاء، وإنما تاريخياً قاموا بتهديم هذه القرى، وذلك أدى إلى خسارة كل الناس للفضاء الذي يملكونه، وبخاصة المرأة، فعندما كانت في القرية كانت «تصول وتجول»، أما في المخيم، فلم يعد لها هذا الفضاء الذي تمتلكه وتفرض بعضاً من سلطتها عليه، وحصل في ٦٧ عندما دمرت أحياء كاملة في القدس، وهذا حصل في الـ ٢٠٠٢ في البلدة القديمة في نابلس، عندما دمرت مجموعة من المصابن، ولكن إسرائيل لا يوجد لها أي سبب عسكري للقيام بالتدمير، لأن أهدافهم كان ممكن تحقيقها بدون تدمير، فالإسرائيليون دمروا إلّي دمروه، والذي لم يدمروه تم أخذه وترميمه وصناعته على أنه هويتهم، في بيوت في ٤٨ لم يقتنعوا أنها بيوت فلسطينية عثمانية!! أكيد هي بيوت من الزمن الصليبي، بحيث لا يمكن أن يكون الفلسطينيون قد وصلوا لهذه التقنيات في العمارة، وبالتالي ما تم أخذه، تم

اعتباره جزءاً من هويتهم، وما بقي لنا اعتبروه شيئاً بدائياً، وليس مهماً، وأصبحنا أنفسنا نعتبر ذلك، بنوع من تأثرنا بسلطتهم. ولا يمكن إنكار أن العمارة تم استخدامها من قبل السلطة الاستعمارية للمراقبة كالحواجز، فثلاثة حواجز تفصل الضفة الغربية عن بعضها، ووضعوا أبراج المراقبة وأسواراً عالية للفصل. وهم استخدموا للعمارة بعكس المعنى الايجابي لها، المعنى الإنساني الذي يقوم بعكس الهدم.

بماذا تختلف إعادة إعمار المعمار الذي تعرض للقصف عن العمار الذي تعرض للتلف تاريخياً؟

إحنا ما عنا التجربة الكبيرة عن إعادة الإعمار بعد القصف، هلأ المفروض أنو المستعمر ما يقصف هذه المناطق، ولكن بنفس الوقت على كل دولة مستعمَرة أن تحدد هذه المناطق ذات الأهمية وتشير إليها حتى لا يتم استهدافها، ولكن تاريخياً لم يحترم أحد هذا الأمر، هتلر بعد ما مات، كانت بريطانيا بتدمر فرانكفورت، وكانوا يضربون مباني لا يوجد فيها مقاومة، وكان الهدف واضح، وهو تدمير ثقافة النازية، والمباني التاريخية جزء منها، بحيث عندما تريد أن تضعف علاقة الناس بحيزهم بمنطقتهم، فيجب أن تضرب رموزهم، مثل مبانيهم، قصورهم، سجونهم، مقرات السلطة، كان هناك دائماً علاقة جدلية بين التراث والهوية، وأغلب الأحيان لا يوجد أهداف عسكرية عند التدمير، ولكن هذا جزء من إنهاء حضارة ما.

لما تم تدمير المصابن في نابلس، اتصلنا على نابلس، وقلنا صحيح أن نابلس قد تعرضت لمصيبة كبيرة، ولكن علينا أن نقلل من الخسائر، بالتالي نعرف أنه يجب إزالة الركام، وهم كانوا يريدون إزالة الركام في حال إذا كان تحت الركام أي جثث لدفنهم. ولكن يجب أن نزيل الحجارة بشكل منظم، بحيث تتم إزالة الركام بشكل شبكة، بحيث يعرف إذا أردنا إعادة بناء البلدة القديمة نعرف أين كان الركام كمواد موجودة، ولكن قامت البلدية بجرف كل الركام وكبه في الوادي. ولكن يوجد العديد من الطرق في التعامل مع أبنية هدمت، وهناك مبررات عديدة مقبولة لإعادة البناء، ولكن في رواق ضد إعادة البناء المهدوم، إلا إذا كان جزء الهدم وظائفي، هلأ المصبنة هدمت بطريقة استعمارية، وهناك أكثر من طريقة، مثل أن

تبنى بطريقة متحفية، وتضع أساسها مثلاً والخط الأول لها كأن تمشي فيها على أنها آثار، أو تعمل تصوير بروجيكتر في الهواء، هذه طرق لإعادة الرمزيات. الآن هناك أشياء تمس حياة الناس اليومية، ولكن المصابن لم تكن كذلك، لان أصحاب المصابن التي هدمت قاموا باستئجار محلات خارج البلدة القديمة لتصنيع الصابون فيها. في البندقية عندما هدم برج سان ماركو، قرروا إعادة بنائه لأن أهل البندقية لم يستطيعوا أن يروها بدون هذا البرج، فالمشهد البصري اتدمر، وأكثر ما أتذكره من إفساد للمشهد البصري، هو ما قامت به إسرائيل في الـ٢٠٠٢ من تدمير أبراج الإرسال، ولم تكن من الأهداف العسكرية، ولا أستطيع تخيل رام الله بدونه، وهو كان يحمل التحويل الإذاعي، الآن لو قالوا لي ماذا تفعل، أقول لنعيد بناءه مرة أخرى حتى لو كان وظائفياً لم يعد مهماً، ولكن رام الله ليست كما هي بدونه. كما سأشعر نفس الشيء لو ذهبت قبة الصخرة من المشهد.

لما تم تدمير المصابن في نابلس بعض الأشخاص قالوا الآن حصلنا على «بحبوحة» في البلدة القديمة، الآن كلمة بحبوحة نتجت عن حاجة الناس للساحات للفضاء العام، أو أن الخاص سيصبح عامًّاً، بحيث أن أرض أصحاب المصابن ستصبح عامة، وهذا كله كذب طبعاً، فالملكية الخاصة إلها قداسة في بلادنا. وفي رواق ما كان في أيدينا اشي، لأنو هدا كان قرار البلدية.

هل حاولت رواق ترميم مباني تعرضت للقصف؟

قصر القاسم حدثت فيه ثقوب فترة الانتفاضة الأولى، كان الشبان يصنعون ثقوباً في الجدران للهرب من الإسرائيليين، لما رجعنا رممناه، عملنا إعادة بناء بالكامل، واختفت الثقوب مع بعض علامات التصليح الباقية، ولكن، بشكل عام، عمل الشباب الثقوب والإسرائيليين بلحقوهم، وما كنا بدنا نضل هاي القصة تكرر، لأنو بدنا نحافظ على موروثنا وتراثنا، فيجب أن يشعر كل شعب أن هناك مباني بحاجة للحماية، ويجب تعليمها لحمايتها، فبدنا نكون صريحين السؤال هو إحنا بدنا نضل نقاوم في البلدة القديمة في نابلس؟ أنا برأيي انو إحنا بنقدر نحدد وين ممكن نقاوم، إسرائيل همجية بطريقة لا تطاق، ولكن بتمنى انو يكون في أمل في يوم من الأيام حدا من عندنا أو من عندهم يصحى ونلاقي حل لنعرف نعيش، وإسرائيل دائماً تجرنا للعبة التي تلعبها، فبدعوا امتلاك الحمص بنصير نقاتل عالفلافل، فكلها ردود فعل، وما فيها استراتيجيات ولا وعي.

هـلأ في رواق مـا في عندنـا قانـون بحمـي الـتراث، بنطلـب مـن إسرائيـل تحميـه!! عنـا الجرافـات بتيجـي وبتجـرف كل اشي، والقانـون إلّي بنسـتخدموا قانـون بريطـاني حقـير، بالتـالي يجـب أن تحمـي مبانيـك التراثيـة قبـل أن تطلـب مـن المسـتعمر أن يحميهـا، فإسرائيـل حشرتنـا في مناطـق (A)، بتحشرنـا في غـزة، وكلهـا مبـاني، وبتحكيلنـا قاتلـوا.

أي مـشروع ترميـم في رواق هـو عبـارة عـن مـشروع لإنتـاج المعرفـة، لكيـف نرمـم؟ وكيـف كان الاشي زمـان؟ وكيـف كانـت طبيعـة العلاقـات زمـان مـن خـلال عـمارة مـن هـذا النـوع؟ مـا طبيعـة المجتمـع في تلـك الفـترة؟ ومـا هـو النظـام الاقتصـادي الـذي سـمح بإنتـاج عـمارة مـن هـذا النـوع؟ ومـن قـام بعمليـة البنـاء ودق الحجـر مثـلاً؟ مـن هـؤلاء الأشـخاص الذيـن أنتجـوا عـمارة مـن هـذا النـوع؟ لأن هـذه الفضـاءات كان إلهـا معـاني ورمزيـات مختلفـة عـما يحصـل الآن مـن شـقة تبقـى شـقة.

في كتـير نـاس بوافقـوا عـلى الترميـم، وفي نـاس كتـير مـا بـترضى ترمـم، في عنا في فلسـطين الملكيـة الفرديـة المشرذمـة، قـصر طوقـان مثـلاً مـا في إجمـاع مـن عائلـة طوقـان عـلى الموافقـة، وللأسـف كل مـرة أزور فيهـا القـصر، بكـون في جـزء جديـد تالـف أو مفقـود.

هـذا كنـز وطنـي برأيـي، ومـش مسـموح التلاعـب فيـه أو تركـه، حتـى لـو المالكـين لم يوافقـوا، فـإذا لم تكـن العائلـة تريـد الترميـم عـلى البلـد أن تتدخـل، فيجـب ترميـم قـصر كهـذا.

كم يكلف الترميم؟

الترميـم يكلـف ثلـث بنـاء جديـد، دائـماً نريـد أن نقنـع العـالم بـأن الترميـم يكلـف أقـل، الترميـم في فلسـطين مشـكلته إنـه كان بتـم بنـاءً عـلى الطريقـة الاسـتعمارية الإسرائيليـة، لـذا كان يكلـف أكثـر، في إسرائيـل مـتر الترميـم بكلف ٣٠٠٠ دولار، عنـا مـتر الترميـم بكلـف مـن ٢٥٠-٣٠٠ دولار، قـصر القاسـم مثـلاً ٤٤ غرفـة ١٢٠٠ مـتر مربـع، وسـاحات ٥٠٠ مـتر مربـع، كلفنـا ٥٣ ألـف دولار، لمـا تحكـي لحـدا اشـتري شـقتين سـعرهم ٢٥٠ ألـف دولار، بينـما تحكـي لشـخص اشـتري قـصر مـن ٤٤ غرفـة، ومجهـز حتـى لمـكان التدفئـة. أنـا برأيـي المشـكلة إنـو في محـل بتنسـرق المصـاري، كل مـا كنـا نـروح عـلى محـل مثـل قـصر الكايـد في سبسـطية أكثـر مـن ٣٠ غرفـة، وفنـدق يتسـع لأكثـر مـن ٢٥ سريـراً،

ترميم كلف ٢٣٠ ألف دولار، هلأ لو برام الله بتحكيله بعطيك فندق بـ ٢٥ سريراً بدفعلك أكتر من ربع مليون دولار إذا ما دفع مليون دولار، نفس الناس لما أجت السياحة والآثار حكولهم هذا بكلف مليون دولار، وراس كركر نفس الإشي، كلها أرقام بالملايين، كلمة ملايين أنا برأيي مسروق منهم مئات الألوف، هلأ كيف بضيعوا هذه المئات من الألوف، إما لأنك بتختار المواد الخطأ لأنك بدك تعمل معروف مع حدا، أو لأنك بتختار المهندس الخطأ إلّي بأخذ نسبة عالية، أو لأنو بتم إعادة ترميم الشيء أكثر من ثلاث مرات، أنا برأيي هذا هو السبب.

لماذا تهتم رام الله بالذات بدفع ملايين من أجل الأماكن التاريخية؟

لأن هناك سوقاً من العرض والطلب، أو حتى لا يوجد عرض كفاية، لأن هناك أشخاصاً يستطيعون مادياً أن يتكلفوا سعر فنجان القهوة ١٥ شيكل، وهذا قطاع رأسمالي بامتياز ويحدد نوعية الأشخاص الذين يريد منهم أن يدخلوا مطعمه مثل fuego، وهو الذي رمه على حسابه الخاص، إحنا ما بنشتغل قطاع خاص حسب المانحين، يعني ما بسمحوا إنه يتم ترميم منازل خاصة لأصحابها، هلأ بعض المانحين سمحوا لنا باستخدام برنامج المعونة بمساعدة أشخاص محتاجين جداً لترميم أو إصلاح منازلهم القديمة.

مقابلة (٢):

المهندس موسى حديد، رئيس بلدية رام الله

«تتدخل بلدية رام الله في الاستثمار في رام الله التحتا، ونحدد بالتحديد معمارية رام الله التحتا، والتي تمتاز بالطابع المعماري القديم، لأنها تراث وبتمثل أصل البلد».

لم يكن هناك خسائر كبيرة في البلدة القديمة في رام الله، آثار العدوان مش شيء معيب أو منظر معيب ليبقى موجود، بالعكس هذا أثر للعدوان الإسرائيلي، ولكن تم إزالتها بشكل عام، إذا فتحتي على النت وشفتي صور لرام الله من ٢٠٠٠ لهلأ، ما رح تشوفي إشي، لأنه تم إعادة تأهيل كل البنى التحتية، والشوارع وآثار الهدم.

ماذا تعكس رؤية المشهد البصري للمتلقي؟

ببساطة شعب بدنا نعيش، هاي بلادنا ما رح نضل عايشين في بلد مدمرة،

والاحتلال دخل ودمر كل البنى التحية، وعمل نفس الشيء في الانتفاضة الأولى، وان لم يكن بنفس المستوى، ولكن هذا الإشي الموجود في النهاية عشان نستمر بالحياة، لازم نضل في عملية بناء متواصل.

كيف ترمز البلدية لفترة الاجتياح في الذاكرة؟

ذاكرتنا ما لازم نتعامل معها على أنها بلشت في ٢٠٠٠، وإنما منذ ١٩١٧، وهلأ في أرشيفنا موجودة كل المراحل، ولكن ما رح نحول لمعرض ذكريات.

خطأ كبير أن يضل المجتمع يعيش في التاريخ، صحيح مجموعة كبيرة من الشهداء والجرحى والأسرى ضحوا بأنفسهم من أجل البلد، كل هؤلاء لهم حق علينا، ولكن في مجموعة أخرى من الناس إلّي بدها تعيش، وعشان نقدر نوصل لمرحلة الاستقلال ما بنفع نضل نندب على الماضي، ما بدنا لما ييجي الاستقلال نكون إحدى دول العالم الرابع أو الخامس مش بس الثالث، لأنو وقف التاريخ فينا عند حد معين. يعني إذا بدنا نقنع حالنا انو إحنا تحت الاحتلال، طب ما إحنا عم نعمل رام الله (smart city)، المدن العربية في كل الوطن العربي مش مدن (smart city)، مع إنها دول مستقلة. إحنا بنقول إنو حتى لو إحنا تحت احتلال لازم نضل ندوّر على بديل، ونستمر في النضال، وبنفس الوقت مش لازم ننسى الهدف الأساسي، وهو بناء مؤسسات لهذه الدولة إلّي لازم تتحقق قريباً، ولازم نكون بمستوى معين قادرين على إكمال المسيرة.

في صرح للشهداء في البلدة القديمة، بغض النظر عن أسماء الشهداء، فهم باقون في القلوب، إحنا وصلنا لهالمرحلة بعد مسيرة كبيرة من التضحيات، وحتى ننقل كل هذه التضحيات، يجب أن يكون هناك إشارة لذلك حتى تراه الأجيال القادمة.

المصادر والمراجع

- أسمن، إيان. الذاكرة الحضارية، الكتابة والذكرى والهوية السياسية في الحضارات الكبرى الأولى، ترجمة: عبد الحليم رجب، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٣.
- أغامبين، جورجيو. حالة الاستثناء، الإنسان الحرام، ترجمة: ناصر إسماعيل، القاهرة: مدارات، ٢٠١٥.
- أندرسون، بندكت. الجماعات المتخيلة «تأملات في أصل القومية وانتشارها»، ترجمة: ثائر ديب، بيروت: شركة قدمس للتوزيع والنشر، ٢٠٠٩.
- اينيك، نتالي. سوسيولوجيا الفن، ترجمة: حسين قبيسي، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠١١.
- باشلار، غاستون. جدلية الزمن، ترجمة: خليل خليل، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، ٢٠١٠.
- البرغوثي، حسين. الضوء الأزرق، رام الله: الرعاة للدراسات والنشر، ٢٠٠٧.
- بشارة، خلدون. تشغيل، مشاريع رواق الترميمية ٢٠٠١-٢٠١١، رام الله: مركز المعمار الشعبي - رواق، ٢٠١١.
- بشارة، عزمي. «في الذاكرة والتاريخ»، الكرمل، عدد ٥٠، ١٩٩٧.
- بشارة، عزمي. المجتمع المدني، دراسة نقدية، الدوحة: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط٦، ٢٠١٢.
- بغورة، الزواوي. «منهج في تحليل الخطاب»، مجلة إبداع، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، عدد ٤، ٥ نيسان أيار، ٢٠٠٠.
- بغورة، الزواوي. مدخل إلى فلسفة ميشيل فوكو، بيروت: دار الطليعة، ٢٠١٣.
- بن نبي، مالك. الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دمشق: دار الفكر، ٢٠٠٩.
- بنكراد، سعيد. سيميائيات الصورة الإشهارية، الإشهار والتمثلات الثقافية، الدار البيضاء: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٦.

- بنكـراد، سـعيد. مسـالك المعنـى، دراسـة في بعـض أنسـاق الثقافـة العربيـة، اللاذقيـة: دار الحـوار للنـشر والتوزيـع، ٢٠٠٦.
- بودريـار، جـان. المصطنـع والاصطنـاع، ترجمـة: جوزيـف عبـد الله، بـيروت: المنظمـة العربيـة للترجمـة، ٢٠٠٨.
- بورديـو، بيـير. الرمـز والسـلطة، ترجمـة: عبـد السـلام بنعبـد العـالي، الـدار البيضـاء: دار توبقـال للنـشر، ٢٠٠٧.
- بورديو، بيير. بؤس العالم، دمشق: دار كنعان، الجزء ٣، ٢٠٠١.
- بيتـي، اليسـاندرو وآخـرون. حالـة الاسـتثناء والمقاومـة في الوطـن العـربي، تحريـر: سـاري حنفـي، بـيروت: مركـز دراسـات الوحـدة العربيـة، ٢٠١٠.
- بيـك، أولريـش. السـلطة والسـلطة المضـادة، في عـصر العولمـة، ترجمـة: جـورج كتـورة وآخـرون، بـيروت: المكتبـة الشرقيـة، ٢٠١٠.
- بيـل اشـكروفت وآخـرون. دراسـات مـا بعـد الكولونياليـة، القاهـرة: المركـز القومـي للترجمـة، ٢٠١٠.
- جـيرار، رينيـه، العنـف المقـدس، ترجمـة: سـميرة ريشـا، بـيروت: المنظمـة العربية للترجمـة، ٢٠١٦.
- حـرب، عـلي. الفكـر والحـدث، حـوارات ومحـاور، بـيروت: دار الكنـوز لـلآداب، ١٩٩٧.
- الحـلاق، نـدى. «الكولونيـالي في الشـخصية المحليـة في العـمارة والعمـران»، مجلـة جامعـة دمشـق للعلـوم الهندسـية، مجلـد ٢٨، ع١، ٢٠١٢.
- حلـس عاهـد. الـدور السـياسي للعـمارة في إطـار الـصراع الفلسـطيني الإسرائيـلي، غـزة: جامعـة الأقـصى، ٢٠١٠.
- حمـدان، آيـات. المسـاعدات الخارجيـة وتشـكيل الفضـاء الفلسـطيني، رام الله: مركـز بيسـان للبحـوث والتنميـة، ٢٠١٠.
- حنفـي، سـاري. «التطهـير المـكاني، محاولـة جديـدة لفهـم اسـتراتيجيات المـشروع الكولونيـالي الإسرائيـلي»، مجلـة المسـتقبل العـربي، العـدد ٣٦٠، ٢٠٠٩.

- حنفي، ساري، وطبر، لينـدا. «النخبة الفلسطينية الجديدة»، مجلة مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مجلد ١٧، ع٦٧، ٢٠٠٦.
- حويل جمال. معركة مخيم جنين، التشكيل والاسطورة نيسان ٢٠٠٢، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة بيرزيت، ٢٠١٢.
- الخالدي، محمد. تجليات الهوية، الواقع المعاش للاجئين الفلسطينيين في لبنان، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠١٠.
- خضر، عودة. الأصول المعرفية لنظرية التلقي، عمان: دار الشروق، ١٩٩٧.
- خلف، عفاف. لغة الماء، رام الله: مركز أوغاريت الثقافي، ٢٠٠٧.
- دريدا جاك. ما الآن؟ ماذا عن غد؟ الحدث، التفكيك، الخطاب، الجزائر: دار الفارابي، ٢٠١١.
- دوبري، ريجيس. حياة الصورة وموتها، ترجمة: فريد الزاهي، الدار البيضاء: أفريقيا للشرق، ٢٠١٣.
- دولوز، جيل. الاختلاف والتكرار، ترجمة: وفاء شعبان، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩.
- راسموسين، ستين. الإحساس بالعمارة، ترجمة: عماد الكيالي، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٣.
- ريكور، بول. الذاكرة، التاريخ، النسيان، ترجمة: جورج زيناتي، بيروت: دار الكتاب الجديد المتحدة، الصنائع، ٢٠٠٩.
- زريق، إيليا. «بناء الدولة من خلال أدوات المراقبة»، المجلة البريطانية للدراسات الشرقية، ٢٠٠١.
- سعيد، إدوارد. الثقافة والمقاومة، حاوره: دايفيد بارساميان، ترجمة: علاء أبو زينة، بيروت: دار الآداب، ٢٠٠٦.
- السقا أباهر. «عنف «اللاعنف» في الخطاب الفلسطيني الجديد»، جدل، عدد ٢٣، مدى الكرمل ٢٠١٥.
- السقا، أباهر. «قراءة في الاختيار الاجتماعي»، موقع فلسطين: /http://palestine.assafir.com ٢٠١٢.

- سوكاح، زهير. «مفهوم الذاكرة الجمعية عند موريس هالبواكس»، الحوار المتمدن، عدد ١٧٥٥، ٢٠٠٦: http://www.ahewar.org/.
- شريعتي، علي. العودة إلى الذات، ترجمة: إبراهيم الدسوقي، القاهرة: الزهراء للإعلام العربي، ١٩٨٦.
- صايغ، روزماري. تجسيدات الهوية لدى مخيمات اللاجئين الفلسطينيين، رؤية جديدة للمحلي والوطني، بيت لحم: بديل/ المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنين واللاجئين، ٢٠٠٩.
- صبيح، صبيح. مقاتلو التنمية، بين خرافة التطبيق وعقائدية الخطاب والتصوير، رام الله: مركز بيسان للبحوث والإنماء، ٢٠١١.
- طبر، لينا وآخرون. نحو اقتصاد سياسي للتحرر، قراءات نقدية للتنمية في السياق الاستعماري، رام الله: مركز دراسات التنمية - جامعة بيرزيت، ٢٠١٤.
- طبر، لينا، عزة، علاء. المقاومة الشعبية تحت الاحتلال، قراءة نقدية وتحليلية، رام الله: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠١٤.
- العابد، عبد المجيد. السيميائيات البصرية، قضايا العلامة والرسالة البصرية، دمشق: النايا للنشر والتوزيع، ٢٠١٣.
- العاروري، جمال، حكاية حصار، رام الله: جمال العاروري، ٢٠٠٨.
- عدوان لورا. صورة فلسطين في روايات اللاجئين الفلسطينيين، دراسة مقارنة بين مخيم قلنديا في فلسطين، ومخيم اليرموك في سوريا، رسالة ماجستير غير منشورة، رام الله: جامعة بيرزيت، ٢٠٠٩.
- علي، ناصر. دور منظمات المجتمع المدني في تعزيز المشاركة السياسية في فلسطين، بيت ساحور: المركز الفلسطيني للدراسات وحوار الحضارات، ٢٠١٠.
- عماد، عبد الغني. منهجية البحث في علم الاجتماع، الإشكاليات، التقنيات، المقاربات، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر، ٢٠٠٧.
- فوكو، ميشيل. المراقبة والمعاقبة، ولادة السجن، ترجمة: علي مقلد، بيروت: مركز الإنماء القومي، ١٩٩٠.

- فوكو، ميشيل. حفريات المعرفة، ترجمة: سالم يفوت، بيروت: المركز الثقافي العربي، ١٩٨٧.
- فوكو، ميشيل. يجب الدفاع عن المجتمع، ترجمة: الزواوي بغوره، بيروت: دار الطليعة، ٢٠٠٣.
- فياض، رهيف. العمارة ووعي المكان، بيروت: دار الفارابي، ٢٠٠٤.
- لومبا، آنيا. في نظرية الاستعمار وما بعد الاستعمار الأدبية، ترجمة: محمد عبد الغني غنوم، دمشق: دار الحوار، ٢٠٠٧.
- ليكرك، جيرار. العولمة الثقافية، الحضارات على المحك، ترجمة: جورج كتورة، بيروت: دار الكتاب الجدية المتحدة، ٢٠٠٤.
- ماركس، كارل، وإنجلز، فريدريك. الأيديولوجيا الألمانية، ترجمة: جورج طرابيشي، دمشق: دار دمشق للطباعة والنشر، ١٩٦٥.
- مجموعة مو. بحث في العلامة المرئية، ترجمة: سمر سعد، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠١٢.
- الناشف، إسماعيل. العتبة في فتح الإبستيم، رام الله: المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية - مواطن، ٢٠١٠.
- الناشف، إسماعيل. معمارية الفقدان، سؤال الثقافة الفلسطينية المعاصرة، بيروت: الفارابي، ٢٠١٢.
- نخلة، خليل. فلسطين وطن للبيع، رام الله: روزا لوكسمبورغ وخليل نخلة، ٢٠١١.
- هارفي، درفيد. حالة ما بعد الحداثة، بحث في أصول التغيير الثقافي، ترجمة: محمد شيا، بيروت: المنظمة العربية للترجمة، ٢٠٠٥.
- هالبواكس، موريس. المورفولوجيا الاجتماعية، ترجمة: حسين حيدر، باريس: منشورات عويدات، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٨٦.

- Abujidi, Nurhan and Verchure, Han, Military occupation as Urbicide by construction and destruction the case of Nablus, Palestine, Katholieke University Leuven, Belgium, 2006.
- Graham, Stephen, Bulldozers and Bombs, the latest Palestinian-Israeli conflict as asymmetric Urbicide, School of Archticture, Planning and landscape, Newcastle University, UK, 2002.
- Svendsen .S, Living Memorials: Understanding the Social Meanings of Community Based Memorials to September ,11 2001, Sage Publications, 2010.
- Perrin, Stephen, The performance of remembering Semiology of war memorials, Sage Publication, 2006.

منشورات مواطن

سلسلة دراسات وأبحاث

دراسات في الثقافة والتراث والهوية

شريف كناعنة

العَتَبَة في فتح الإبستيم

إسماعيل ناشف

العمالة الفلسطينية في إسرائيل ومشروع الدولة الفلسطينية

ليلى فرسخ

مدخل في تاريخ الديموقراطية في اوروبا

عبد الرحمن عبد الغني

النساء والقضاة والقانون: دراسة أنثروبولوجية للمحكمة الشرعية في غزة

نهضة يونس شحادة

نساء على تقاطع طرق: الحركة النسوية الفلسطينية بين الوطنية والعلمانية والهوية الإسلامية

إصلاح جاد

في المسألة العربية: مقدمة لبيان ديمقراطي عربي

عزمي بشارة

تمكين الأجيال الفلسطينية: التعليم والتعلم تحت ظروف قاهرة

نفيدة جرباوي وخليل نخلة

"وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ": الإسلاميون والديمقراطية

رجا بهلول

فلسطين الى أين؟ تلاشي حل الدولتين (باللغة الإنجليزية)

تحرير جميل هلال

الطبقة الوسطى الفلسطينية، بحث في فوضى الهوية والمرجعية والثقافة

جميل هلال

النظام السياسي الفلسطيني بعد اوسلو: دراسة تحليلية نقدية

(طبعة ثانية - مزيدة)

جميل هلال

نظريات الانتقال إلى الديمقراطية: إعادة نظر في براديغم التحول
جوني عاصي
من التحرير إلى الدولة: تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية - 1948 1988
هلغى باومغرتن
تقاسيم زمّار الحيّ - مقالات
فيصل حوراني
بروز النخبة الفلسطينية المعولمة)باللغة الانجليزية والعربية(
ساري حنفي ولیندا طبر
الحداثة المتقهقرة: طه حسين وأدونيس
فيصل دراج
صفد في عهد الانتداب البريطاني 1917 - 1948
مصطفى العباسي
بالتعاون مع مؤسسة الدراسات الفلسطينية والمقدسية
الجبل ضد البحر
سليم تماري
من يهودية الدولة حتى شارون: دراسة في تناقض الديمقراطية الإسرائيلية
عزمي بشارة
تشكل الدولة في فلسطين)باللغة الانجليزية(
تحرير: مشتاق خان، جورج جقمان، انج أمندسن
مستقبل النظام السياسي الفلسطيني والآفاق السياسية الممكنة
تحرير: وسام رفيدي
وقائع مؤتمر مؤسسة مواطن، ومعهد ابراهيم ابو لغد ٢٠٠٤
التربية الديمقراطية، تعلم وتعليم الديمقراطية من خلال الحالات
ماهر الحشوة
حركة معلمي المدارس الحكومية في الضفة الغربية 2000 - 1967
عمر عساف
المجتمع الفلسطيني في مواجهة الاحتلال: سوسيولوجيا التكيف المقاوم خلال انتفاضة الاقصى
مجدي المالكي واخرون

اسطورة التنمية في فلسطين: الدعم السياسي والمراوغة المستديمة
خليل نخلة
جذور الرفض الفلسطيني 1918 – 1948
فيصل حوراني
القطاع العام ضمن الاقتصاد الفلسطيني
نضال صبري
هنا وهناك نحو تحليل للعلاقة بين الشتات الفلسطيني والمركز
ساري حنفي
تكوين النخبة الفلسطينية
جميل هلال
الحركة الطلابية الفلسطينية: الممارسة والفاعلية
عماد غياظة
دولة الدين، دولة الدنيا: حول العلاقة بين الديمقراطية والعلمانية
رجا بهلول
النساء الفلسطينيات والانتخابات، دراسة تحليلية
نادر عزت سعيد
المرأة وأسس الديمقراطية
رجا بهلول
النظام السياسي الفلسطيني بعد اوسلو: دراسة تحليلية نقدية
جميل هلال
ما بعد اوسلو: حقائق جديدة)باللغة الانجليزية(
تحرير: جورج حقمان
ما بعد الازمة: التغييرات البنيوية في الحياة السياسية الفلسطينية، وآفاق العمل
وقائع مؤتمر مواطن ٩٨
التحرر، التحول الديمقراطي وبناء الدولة في العالم الثالث
وقائع مؤتمر مواطن ٩٧
اشكالية تعثر التحول الديمقراطي في الوطن العربي
وقائع مؤتمر مواطن ٩٦
العطب والدلالة في الثقافة والانسداد الديمقراطي
محمد حافظ يعقوب

رجال الاعمال الفلسطينيون في الشتات والكيان الفلسطيني
ساري حنفي

مساهمة في نقد المجتمع المدني
عزمي بشارة

حول الخيار الديمقراطي
دراسات نقدية

سلسلة رسائل الماجستير

مرجعية الخطاب السياسي الإسلامي في فلسطين
خالد علي زواوي

الدبلوماسية العامة الفلسطينية بعد الانتخابات التشريعية الثانية
دلال باجس

الإنتخابات والمعارضة في المغرب بين التحول الديمقراطي واستمرارية النظام السلطوي (1997-2007)
نشأت عبد الفتاح

عن النساء والمقاومة: الرواية الاستعمارية
أميرة محمد سِلْمي

التغيير السياسي من منظور حركات الإسلام السياسي: "حماس"نموذجا
بلال الشوبكي

المجتمع المدني "بين الوصفي والمعياري": تفكيك إشكالية المفهوم وفوضى المعاني
ناديا أبو زاهر

النقد والثورة: دراسة في النقد الاجتماعي عند علي شريعتي
خالد عودة الله

حركة "فتح" والسلطة الفلسطينية: تداعيات أوسلو والانتفاضة الثانية
سامر إرشيد

سلسلة مداخلات واوراق نقدية

الإعلام الفلسطيني والإنقسام: مرارة التجربة وإمكانيات التحسين
تحرير: خالد الحروب وجمان قنيص

قبل وبعد عرفات:التحول السياسي خلال الانتفاضة الثانية
جورج جقمان

أن تكون عربياً في أيامنا
عزمي بشارة

المنهاج الفلسطيني اشكاليات الهوية والمواطنة
عبد الرحيم الشيخ (محرراً)

الحريات المتساوية حقوق المرأة بين الديمقراطية - الليبرالية وكتب التربية الإسلامية
وليد سالم وإيمان الرطروط

اليسار والخيار الاشتراكي قراءة في تجارب الماضي، واحتمالات الحاضر
داوود تلحمي

تهافت أحكام العلم في إحكام الإيمان
عزمي بشارة

الديمقراطية والإنتخابات والحالة الفلسطينية
وليم نصار

إطار عام لعقيدة أمن قومي فلسطيني
حسين آغا وأحمد سامح الخالدي

نحو أممية جديدة: قراءة في العولمة/ مناهضة العولمة والتحرر الفلسطيني
علاء محمود العزة وتوفيق شارل حداد

التنظيمات والأحزاب السياسية الفلسطينية
جميل هلال

الأحزاب السياسية الفلسطينية والديمقراطية الداخلية
طالب عوض وسميح شبيب

الراهب الكوري .. سَفَر وأشياء أخرى
زكريا محمد

واقع التعليم الجامعي الفلسطيني: رؤية نقدية
ناجح شاهين

طروحات عن النهضة المعاقة
عزمي بشارة

ديك المنارة
زكريا محمد

لئلا يفقد المعنى (مقالات من سنة الانتفاضة الاولى)
عزمي بشارة

في قضايا الثقافة الفلسطينية
زكريا محمد

ما بعد الاجتياح: في قضايا الاستراتيجية الوطنية الفلسطينية
عزمي بشارة

المسألة الوطنية الديمقراطية في فلسطين
وليد سالم

الحركة الطلابية الفلسطينية ومهمات المرحلة تجارب وآراء
تحرير مجدي المالكي

الحركة النسائية الفلسطينية اشكاليات التحول الديمقراطي واستراتيجيات مستقبلية
وقائع مؤتمر مواطن ٩٩

اليسار الفلسطيني: هزيمة الديمقراطية في فلسطين
علي جرادات

الخطاب السياسي المبتور ودراسات أخرى
عزمي بشارة

أزمة الحزب السياسي الفلسطيني
وقائع مؤتمر مواطن ٩٥

المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في فلسطين
زياد ابو عمرو واخرون

الديمقراطية الفلسطينية
موسى البديري واخرون

المؤسسات الوطنية، الانتخابات والسلطة
اسامة حلبي واخرون

الصحافة الفلسطينية بين الحاضر والمستقبل
ربى الحصري واخرون

الدستور الذي نريد
وليم نصار

سلسلة اوراق بحثية

دراسات اعلامية 2
تحرير: سميح شبيب

دراسات اعلامية
تحرير: سميح شبيب

الثقافة السياسية الفلسطينية
باسم الزبيدي

العيش بكرامة في ظل الاقتصاد العالمي
ملتون فيسك

الصحافة الفلسطينية المقروءة في الشتات 1965 – 1994
سميح شبيب

التحول المدني وبذور الانتماء للدولة في المجتمع العربي والاسلامي
خليل عثامنة

المساواة في التعليم اللامنهجي للطلبة والطالبات في فلسطين
خولة الشخشير

التجربة الديمقراطية للحركة الفلسطينية الاسيرة
خالد الهندي

التحولات الديمقراطية في الاردن
طالب عوض

النظام السياسي والتحول الديمقراطي في فلسطين
محمد خالد الازعر

البنية القانونية والتحول الديمقراطي في فلسطين
علي الجرباوي

سلسلة التجربة الفلسطينية

سَأُحَدِّثُكُم عَن هَاجِس: مجموعة نصوص أدبية ل أقلام جديدة
تقديم وتحرير هيفاء أسعد

المقاوَمة الشعبية في فلسطين تاريخ حافل بالأمل والإنجاز
مازن قمصية

شفيق الحوت
سميح شبيب (محرراً)

أنيس صايغ والمؤسسة الفلسطينية السياسات، الممارسات، الإنتاج
سميح شبيب (محرراً)

انتفاضة الأقصى: حقول الموت
محمد دراغمة

أحلام بالحرية (الطبعة الثانية)
عائشة عودة

الواقع التنظيمي للحركة الفلسطينية الأسيرة دراسة مقارنة 1988 – 2004
اياد الرياحي

مغدوشة: قصة الحرب على المخيمات في لبنان
ممدوح نوفل

يوميات المقاومة في مخيم جنين
وليد دقة

أحلام بالحرية
عائشة عودة

الجري الى الهزيمة
فيصل حوراني

أوراق شاهد حرب
زهير الجزائري

البحث عن الدولة
ممدوح نوفل

سلسلة مبادئ الديمقراطية

ما هي المواطنة؟
فصل السلطات
سيادة القانون
مبدأ الانتخابات وتطبيقاته
حرية التعبير
عملية التشريع
المحاسبة والمساءلة
الحريات المدنية
التعددية والتسامح
الثقافة السياسية
العمل النقابي
الاعلام والديمقراطية

سلسلة ركائز الديمقراطية

التربية والديمقراطية
رجا بهلول

حالات الطوارئ وضمانات حقوق الانسان
رزق شقير

الدولة والديمقراطية
جميل هلال

الديمقراطية وحقوق المرأة بين النظرية والتطبيق
منار شوربجي

سيادة القانون
اسامة حلبي

حقوق الانسان السياسية والممارسة الديمقراطية
فاتح عزام

الديمقراطية والعدالة الاجتماعية
حليم بركات

سلسلة تقارير دورية

واقع التمييز في سوق العمل الفلسطيني من منظور النوع الاجتماعي
صالح الكفري، خديجة حسين نصر

نحو قانون ضمان إجتماعي لفلسطين

تطوير قواعد عمل المجلس التشريعي نحو قانون للسلطة التشريعية
إعداد : جهاد حرب اشراف: عزمي الشعيبي

نحو نظام انتخابي لدولة فلسطين الديمقراطية
جميل هلال،عزمي الشعيبي وآخرون

الاعمال التشريعية الصادرة عن رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية
سناء عبيدات

دراسة تحليلية حول أثر النظام الانتخابي على تركيبة المجلس التشريعي القادم
احمد مجدلاني، طالب عوض

هذا الكتاب

تنطلق هذه الرسالة كمحاولة بحثية من داخل الواقع الفلسطيني المستعمَر، وتأخذ منه الجزء الذي يقرأ المشهد البصري للفضاء الاجتماعي الفلسطيني، وتحديداً معماريته؛ ومنها ثلاث مناطق حضرية تتمثل بالمخيم، والمقاطعات، والبلدات القديمة. تقوم محاولة القراءة هذه على تتبع التغيرات التي حدثت على عمارة النماذج السابقة، وبخاصة بعد فترات الاجتياحات وعمليات القصف التي حدثت في الانتفاضة الثانية؛ بحيث كانت نتيجة هذه الاجتياحات استهداف قتل معماريتها، وقتل من يحتمي بها، وما تمثله في بعض المناطق من هوية للمكان والناس. ولكن، في الفضاء الاجتماعي المعاصر، لم يتبقَ أثر لدمار العمار ومعركة المقاومة فيه، بحيث تشير حالات إعادة الإعمار إلى مواراةٍ معقلنةٍ للموت الذي حدث على هذه الجزئية، وتبعت هذه المواراة لمجموعة من خطابات اجتماعية تنبع من هيمنة المنظومة الكولونيالية من التمويل، وصولاً إلى عمارة كولونيالية بتصميم نموذج أمني للمراقبة في المقاطعات، وكذلك نموذج لخطابات تبعت تحولات سياسية في التاريخ الفلسطيني كالخطاب الأوسلوي، والخطاب التكنوقراطي المهني، ومحاولات إقصاء المقاومة، وتفريغ أي تجسدات عسكرية لها في الفضاء الاجتماعي الفلسطيني، نحو سلمية الفضاء في واقع استعماري.

ياسمين باسم قعدان

وقد قُدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في علم الاجتماع – برنامج العلوم الاجتماعية والسلوكية من كلية الآداب في جامعة بيرزيت، فلسطين.

مواطن المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية